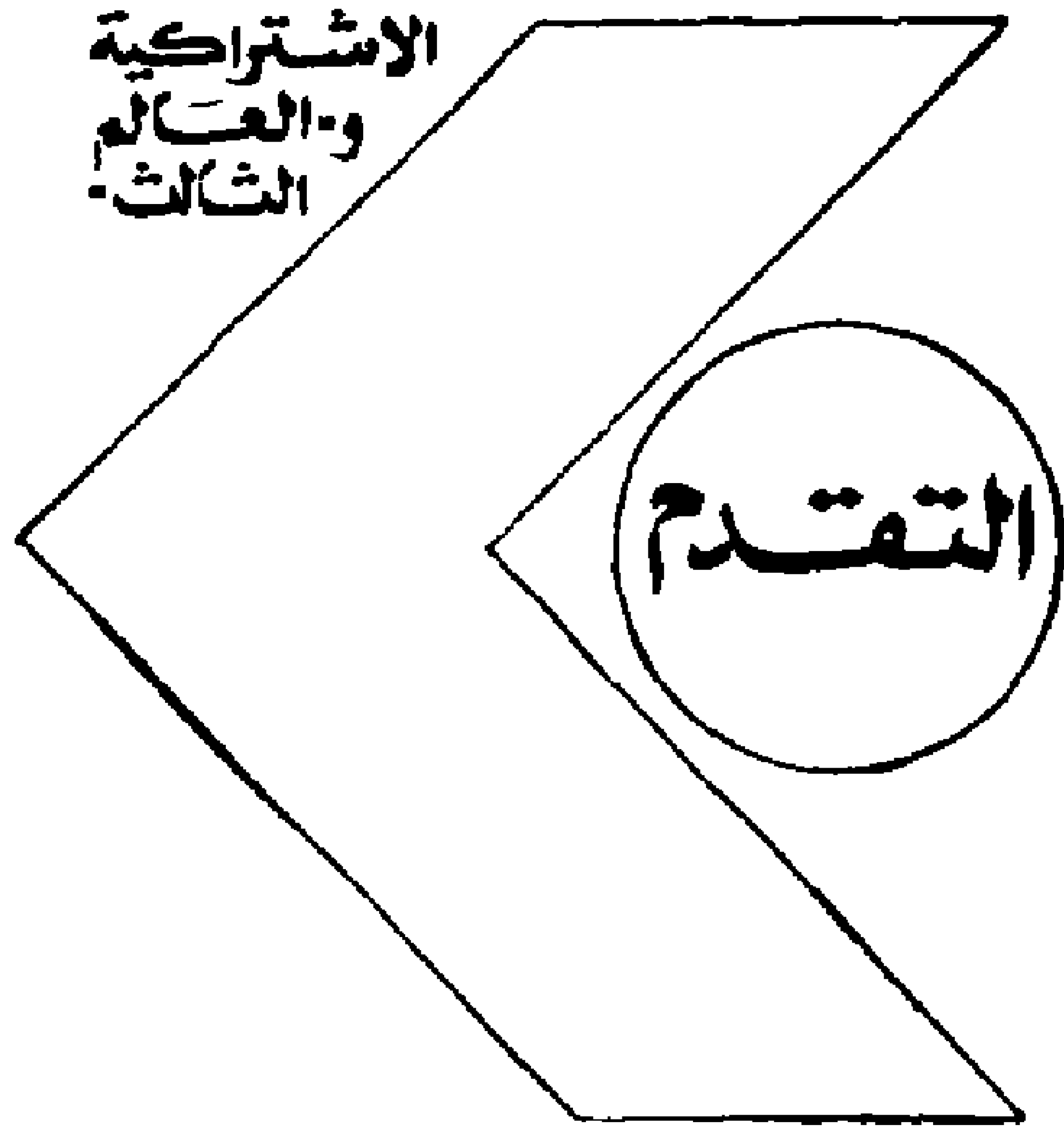


بوندارييفسكي

سياستان ازاء العالم العربي


الاشتراكية
والعالم
الثالث
التقدم

إهـــــــداء٢٠٠٧

تاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

بوندارييفسكي

سياستان ازاء العالم العربي



دار التقدم

موسكو

ترجمة خيرى الضامن

БОНДАРЕВСКИЙ
ДВЕ ПОЛИТИКИ НА АРАБСКОМ ВОСТОКЕ
На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Б $\frac{10601-568}{014(01)-75}$ 915—74

من المؤلف

تتسم دراسة السياسة الاستعمارية للدول الغربيــة ازاء العالم العربى فى القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين باهمية علمية كبيرة وباهمية عملية غير ضئيلة ، وذلك لان جذور كثير من المواقف المتازمة التى لا تزال حتى الان تلعب دورا هائلا فى ابقاء التوتر فى الشرق الاوسط قد نبتت قبيل الحرب العالمية الاولى ، بل وفى الفترة بين الحربين العالميتين على الخصوص . فمن المعروف ان الصراع من اجل العالم العربى كان واحدا من اهـم اسباب نشوب الحرب العالمية الاولى ، وكان قد لعب دورا غير قليل الشأن فى اندلاع الحرب العالمية الثانية .

ومن ناحية اخرى يتعذر القاء الاضواء على نضال شعــوب العالم العربى فى سبيل تحررها الوطنى ضـــد النير الاستعمارى الامبريالى على نحو صائب بدون تحليــل تأثير ثورة اكتوبــر الاشتراكية العظمى وسياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية الامميـة اللينينية على هذا النضال ، وبدون دراســة تاريخ العلاقـــات السوفييتية العربية .

وقد درست هذه القضايا الهامة جدا فى مؤلفات المستعربين السوفييت روتشتين ولوتسكى ويفغينى بيليايف وايغور بيليايف ولاندا وايفانوف وميرسكى ولوتسكايـــا وكيلبيرغ وبريماكوف

وسميرنوف وفيدتشينكو ، وفى مؤلفات ابرز المستعربين فى البلدان الاشتراكية الاخرى ، وبالدرجة الاولى فى دراسات العالمين راتمان وتيلمان (جمهورية المانيا الديمقراطية) وغيرهما . ودرست هذه المسائل على نطاق واسع كذلك فى مؤلفات العلماء والكتاب العرب المعروفين انطونيوس وامين سعيد وراشـــد البراوى والحداوى وشهدى الشافعى والرافعى وغيرهم . الا ان عدم توفـــر الوثائـق الدبلوماسية والمواد الاخرى المتعلقة بالسياسة الاستعمارية فى العالم العربى قد خلق صعوبات هائلة امام القاء الاضواء من كافة الجوانب على هذه القضية الهامة للغاية .

لم يكتف المؤلف بالاعتماد على الوثائـــق القيمة فى ارشيف السياسة الخارجية لوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى . فقد تهيأت له امكانية العمل فى الارشيف الوطنى فى الهند وارشيف الدولة فى بريطانيا ، والاطلاع على الوثائق القيمة فى الارشيفين الدبلوماسيين لالمانيا فى عهد غليوم وعهد النازية . ان الاغلبية الساحقة مـــن الوثائق المحفوظة فى الارشيفات الغربية لم تصبح فى متناول الايدى الا فى السنوات الاخيرة ، ولذا فهى غير معروفة بعد لدى الاوساط الاجتماعية الواسعة .

كل ذلك كان دافعا لتاليف كتاب يوضع بين يـــدى القارئ العربى ويعتمد على كل ما وقع فى ايدينا من وثائق ارشيفيـــة ومطبوعات دبلوماسية ودراسات حديثة وغير ذلك من المواد ، فى محاولة لالقاء الاضواء على التاريخ الحقيقى لسياسة الامبرياليـــة والصهيونية فى العالم العربى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين (حتى اواخر الحرب العالمية الثانية) وتبيان الطرق والاساليب التى حاول المستعمرون البريطانيون والالمان والاميركان بواسطتها اخضاع شعوب البلدان العربية لارادتهم .

ومما يجعل ذلك اكثر الحاحا واهمية ان فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية درست فى المؤلفات العربية والسوفييتية على نحو اسوأ بكثير من فترة ما بعد الحرب ، والسبب فى ذلك هو عدم توفر المصادر الخاصة بتلك الفترة .

ولعب دورا غير ضئيل واقع ان تطبيق سياسة الاستعمار الجديد الامبريالية فى العالم العربى اعتمد ، فيما اعتمد ، على نشر الدراسات العديدة والكتب والكراريس المبسطة وطبع مختلف المجموعات الوثائقية ومذكرات الدبلوماسيين السابقين والحكام الاستعماريين والجواسيس والاستطلاعيين الذين حاولوا جميعا اقناع القارئ بان الدول الغربية حملت الى العرب الحضارة والازدهار والتحرر من النير العثمانى ، بل وحتى انها «حمتهم» من «الخطر الشيوعى» و«العدوان السوفييتى» . وتصدر فى الوقت ذاته كتب زائفة تدعى الصدق العلمى وتستهدف الاثبات بان ظهور اسرائيل الصهيونية فى قلب العالم العربى لم يكن نتيجة طبيعية للسياسة الاستعمارية التى طبقتها الدول الامبريالية فى هذه المنطقة طوال عشرات السنين ، بل كان نتيجة «للسياسة الانسانية» للاوساط الحاكمة البريطانية والاميركية التى كانت تسعى فى بادئ الامر الى ايجاد مأوى قومى يهودى متواضع فى فلسطين ، ثم ملجأ لليهود الذين حررتهم قوات الحلفاء من معسكرات الموت النازية فى اوسفينتسيم ومايدانيك وداهاو وغيرها . وقد اعتمدت صناديق وارصدة روكفلر وفورد وكارنيجى والمنظمات الصهيونية العديدة مبالغ طائلة واجتذبت كبار العلماء لوضع هذه الكتب والمطبوعات الاخرى .

وقد سعى مؤلف هذا الكتاب الى استعراض سياسة اخرى ازاء العالم العربى ، هى على طرف نقيض مع السياسة الاستعمارية . انها

السياسة اللينينية ، سياسة الصداقة والاخوة التى انتهجتها اول دولة اشتراكية فى العالم ، نعنى الاتحاد السوفييتى . وتبين وثائق الارشيف الوطنى فى الهند وارشيف الدولة فى بريطانيا ضخامة الجهود التى بذلها الامبرياليون البريطانيون بغية الحيلولة دون اقامة العلاقات الودية بين روسيا السوفييتية والعرب . ومع ذلك كان النصر حليف السياسة الخارجية اللينينية فى الصراع بين النهجين الامبريالى والاشتراكى ازاء العالم العربى .

الفصل الاول

المستعمرون البريطانيون والعالم العربى

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبقدر انتقال الرأسمالية تدريجيا الى مرحلتها الاخيرة ـ الامبريالية ، احتدم الصراع على نحو شديد جدا من اجل اسواق التصريف ومصادر الخامات وميادين توظيف الرساميل والمواصلات . وكان ان انجر الى هذا الصراع العرب الذين يقطنون مساحات شاسعة من سواحل المحيط الاطلسى الى المحيط الهندى ومن جبل طارق الى الخليج العربى ، ومن اعالى دجلة الى اعالى النيل . والى هذه المنطقة من العالم التى ازدهرت فيها قبل قرون عديدة واحدة من اروع الحضارات ـ الحضارة العربية ـ والتى وقعت تحت السيطرة العثمانية منذ القرن السادس عشر اتجهت انظار المستعمرين الاوربيين وفى مقدمتهم اكثرهم ضراوة ووحشية ، نعنى المستعمرين الانجليز .

وعند تخوم القرن التاسع عشر ابدى المستعمرون الاوربيون اهتماما خاصا بمصر التى تشغل مواقع اساسية فى اهم الطرق التجارية المؤدية من منطقة البحر الابيض المتوسط الى الهند والشرق الاقصى . وفى الاول من تموز (يوليو) ١٧٩٨ نزل نابليون بونابرت فى الاسكندرية على رأس جيش من ٤٠ الف محارب

بغية السيطرة على هذه المنطقة الهامة جدا ونسف مواقع الانجليز فى آسيا وافريقيا . وبعد ثلاثة اسابيع دخلت القوات الفرنسية القاهرة . واسرع المستعمرون الانجليز فى توجيه اشد ضربة مضادة . ففى الاول من آب (اغسطس) ١٧٩٨ حطم الاميرال نلسن الاسطول الفرنسى تحطيما تاما فى معركة بحرية قرب ابى قير . وانعزل نابليون وجيشه عن فرنسا . وفى كانون الثانى (يناير) ١٧٩٩ عقدت المعاهدة الانجليزية التركية ، وزحف جيش تركى بمائة الف محارب عبر سوريا نحو فلسطين التى كانت القوات الفرنسية قد احتلت قسما كبيرا منها انذاك . وفى اذار (مارس) ١٨٠١ انزلت عمارة نلسن قوات كبيرة فى ابى قير . وفى حزيران (يونيو) ١٨٠١ دخلت القوات الانجليزية والتركية القاهرة . وسرعان ما استسلمت فلول القوات الفرنسية . واستمر احتلال الانجليز لمصر حتى اذار ١٨٠٣ حيث انسحبت قواتهم بسبب تأزم الوضع العسكرى فى اوربا تأزما شديدا والتحضير لانشاء الائتلاف الثالث ضد نابليون . واعيدت مصر الى الامبراطورية العثمانية من جديد . وهكذا لم يكن دافع التدخل المسلح الاول لبريطانيا فى شؤون مصر وفلسطين هو الرغبة فى تقوية السيطرة التركية على المناطق العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، ولا الرغبة فى مساعدة العرب . انما كان هدفه هو الحيلولة دون تعزز مواقع الفرنسيين فى شرقى منطقة البحر الابيض المتوسط .

مكافحة المستعمرين البريطانيين لدولة محمد على

لم تكن سيطرة الاتراك مجددا على مصر طويلة الامد . ففى عام ١٨٠٥ تسلم مقاليد الحكم فى مصر محمد على باشا الكبير ، وهو ألبانى الاصل ، وقد لعب دورا كبيرا فى تطوير اقتصاد البلاد وتعزيز

الدولة . وكان تنفيذ هذه المهمة عسيرا فى بداية الامر . فقـد استمرت فى مصر مغامرات واحابيل عملاء بريطانيا وفرنسـا ومبعوثى السلطان العثمانى . وفى فترة الائتلاف الاوربى الرابع ضد فرنسا تحالفت الامبراطورية العثمانية مع نابليون فى ١٨٠٧ ، مما ادى الى نشوب الحرب الانجليزية التركية . ودخـل الاسطول الانجليزى بحر مرمرة ، ولكن محاولته للوصول الى القسطنطينية قد باءت بالفشل . وعندها قرر المستعمرون البريطانيون الهجوم على مصر . ففى ١٧ اذار (مارس) ١٨٠٧ انزلت قوات بريطانية تعدادها خمسة آلاف محارب الى الاسكندرية . وفى غضون خمسة شهور جرت فى منطقة الاسكندرية ورشيد معارك طاحنـة بين فصائل الغزاة البريطانيين وقوات محمد على التى دعمها الفلاحون والبدو . وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٠٧ استقلـت فلول القوات البريطانية المهزومة السفن وانسحبت من مصر . وارتفعت كثيرا سمعة محمد على الذى دافع عن البلاد دون الغزاة الاجانب . وبهذا انتهت محاولة المستعمرين البريطانيين الثانية للاستيلاء على مصر . وجرت المحاولة هذه المرة ليس بحجة اعادة مصر الى سيطرة الامبراطورية العثمانية ، بل فى مجرى الحرب ضد هذه الامبراطورية .

وفى العقود التالية طبق محمد على عدة اصلاحـات ادت الى تطوير الزراعة لدرجة كبيرة والى النهوض بزراعة القطن وتنمية الصناعة وتشكيل الجيش الوطنى والاسطول المصرى . ودرس محمد على دراسة دقيقة اصلاحات بطرس الاكبر وكان يحب مقارنـة نفسه بهذا الاصلاحى الروسى العظيم . واتسم بأهمية كبيرة اصلاح جهاز الدولة والاصلاحات الكثيرة فى الميدان الثقافى . وقد قيـم كارل ماركس اصلاحات محمد على تقييما رفيعا . ووصفه بآنـه «الشخص الوحيد» الذى كان باستطاعتـه «التـوصل الى احلال

«رأس حقيقى» محل «عمامة المراسيم الفاخرة» (١) * (يعنى تركيا القروسطية ـ **المؤلف**) . واكد ماركس بان مصر فى ظل محمد على كانت «انذاك القسم الوحيد» من الامبراطورية العثمانية «القادر على الحياة» (٢) .

وبعد ان عزز محمد على سلطتـــــه فى مصر حاول تأسيس امبراطورية جبارة فى الشرق الاوسط . فخلال ربع القرن التالى احتلت القوات المصرية حوالى جميع بلدان العالم العربى وشبـــه جزيرة العرب . واحتلت هذه القوات السودان . وفى اواخـــــر عشرينات القرن التاسع عشرشرع محمد على الذى كان يعتبر من الناحية الشكلية واليا عثمانيا يستعد لاحتلال فلسطين وسوريا ، وبالتالى للحرب ضد الامبراطورية العثمانية وتأسيس دولة عربية مستقلة كبرى . وطوال ١٨٣١ ـ ١٨٣٣ الحـــق الجيش المصرى بقيادة القائد العسكرى المحنك الموهوب ابراهيم باشا ـ ابن محمد على ـ عدة هزائم ماحقة بالقوات العثمانية فازاحها من فلسطين وسوريا ودخل الى الاناضول . ونتيجة لتدخــــل الدول الكبرى (وبالدرجة الاولى بريطانيا) التى كانت تخشى تزايد نفوذ مصر تم فى ٤ ايار (مايو) ١٨٣٣ توقيع معاهدة الصلح بين تركيا ومصر . واعترف السلطان العثمانى بحقوق محمد على فى مصر وشبه الجزيرة العربية والسودان وعينه واليا على فلسطين وسوريا وقيليقيـــا التابعة للامبراطورية العثمانية . واضطر محمد على بدوره الى ان يعترف شكليا بالسيادة العليا للسلطان العثمانى .

وانتهز محمد على وابراهيم باشا حلول السلام لكى يشرعا باجراء الاصلاحات العميقة فى سوريا وفلسطين واستئناف الزحف نحـو الخليج العربى . وقد اثارت هذه الخطط قلقا شديـــــدا لدى

---

* انظر المراجع فى آخر كل فصل .

المستعمرين البريطانيين . ففى كانون الثانى (يناير) ١٨٣٢ اشعر القنصل العام البريطانى فى الاسكندرية سلطات لندن بان محمد على «ينوى» بعد تعزيز مواقعه فى فلسطين وسوريا «تعميم سيطرته على حلب وبغداد وجميع الولايات التى يتكلم سكانها اللغة العربية والتى يسميها هو بالجزء العربى من الامبراطورية» (٣) . وكان يشاطر القنصل رأيه هذا بالمرستون الذى شغل لامد طويل منصب وزير خارجية بريطانيـــا . فقد علل فى ربيع ١٨٣٣ ضرورة وقف زحف الجيوش المصرية وارغام محمد علي على الاعتراف بالسيادة العليا للسلطان العثمانى وكتب يقول ان الهدف الحقيقى لوالى مصر هو «تاسيس مملكة عربية تضم جميع البلدان الناطقة باللغة العربية» (٤) .

ولاحظ محمد على تزايد عداء بريطانيا لـــه فصار يخشى الصدام المسلح معها وحاول مرارا فى النصف الثانى من الثلاثينـات ان يتوصل الى اتفاقية وسط مع لندن فوافق على بعض التنازلات الاقليمية الى الاتـــراك لقاء الاعتراف باستقلال مصر والبلدان المتاخمة لها . بل ان محمد على مد يد الصداقة الى بريطانيا . الا ان بالمرستون رد على ذلك برفض مغرور شديد اللهجة . ففى رسالته التوجيهية المؤرخة فى ٧ تموز (يوليو) ١٨٣٨ الى كيمبل القنصل العام البريطانى فى القاهرة امر بتحذير محمد على بانــه اذا حاول السعى الى الاستقلال «فانه سيحكم بالهلاك على نفسه وعلى اسرته» (٥) . وفى معرض تحليل اسباب عدم تسامـــــح بالمرستون كتب الدبلوماسى البريطانى المعاصر والخبير بالشؤون العربية انطونى نوتنغ الذى شغل فى خمسينات القرن العشريـــن منصب النائب الاول لوزير خارجية بريطانيا واستقال احتجاجا على مشاركة بريطانيا فى العدوان الثلاثى على مصر يقول : «كان

بالمرستون يشتبه بوجود تحالف سرى بين محمد على وبين روسيا ، كما اشتبه انطونى ايدن بجمال عبد الناصر فى الشىء نفسه» (٦) . وكان نوتنغ يعنى المباحثات التى اجراها الجنرال الروسى مورافييف مع محمد على فى كانون الثانى (يناير) ١٨٣٣ . وقد دار الكلام فى هذه المباحثات ليس عن تحالف سرى ضد بريطانيا ، بل عن طلب القيصر نيقولاى الاول وقف الحرب المصرية التركية .

بديهى ان سياسة بالمرستون فى فترة الازمة الشرقية فى ثلاثينات القرن التاسع عشر لم يكن مبعثها ابدا الخوف من التقارب الروسى المصرى . فالمستعمرون البريطانيون لم يكونوا راغبين بتقوية مصر ، بله تأسيس دولة عربية قوية فى الشرق الاوسط . وحتى الحال الحاضر يسود فى الكتب الاجتماعية والمطبوعات العلمية الانجليزية الرأى القائل بان الموضوعة التى طرحتها الاوساط الحاكمة البريطانية فى مستهل القرن التاسع عشر عن ضرورة الحفاظ على «وحدة اراضى» الامبراطورية العثمانية كان مبعثها الانحياز الى تركيا والرغبة فى «حماية» تركيا من تطاولات روسيا القيصرية . اما فى الواقع فان هذه الموضوعة هى حجة ملائمة لتسلل الرأسمال البريطانى الى مختلف مناطق الامبراطورية العثمانية ، بما فيها الولايات العربية ، حجة ساعدت الدبلوماسية البريطانية فى مقاومة تأسيس دولة عربية قوية فى الشرق الاوسط. وفى الوقت ذاته لم تكن هذه الموضوعة ، كما رأينا ، قد حالت دون بريطانيا ودون اعلان الحرب ضد تركيا فى ١٨٠٧ ودخول اراضى مصر . ولم تكن هذه الموضوعة ، كما سنرى ، قد حالت دون المستعمرين البريطانيين ودون الاستيلاء على بعض مناطق الامبراطورية العثمانية ، وبالدرجة الاولى الاراضى العربية .

فى اواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر سارت بريطانيا فى عدة اتجاهات لمقاومة محمد على ومحاولاته لتاسيس دولة عربيــــة قوية فى العالم العربى . وكان الاتجاه الاول هو عبارة عن مجمل الاجراءات السياسية والدبلوماسية المعادية لمصر فى القسطنطينية. وكان الاتجاه الثانى هو اجراء العمليات المباشرة السافرة ضد دولة محمد على . وقد مارست الدبلوماسية البريطانية ضغطا شـــديدا للغاية على القسطنطينية سعيا منها لجعل السلطان محمود الثانى يرفض جميع اقتراحات محمد على وتنازلاته المستندة الى تسوية الخلافات الاقليمية ومنح مصر الاستقلال . وتحت ضغط بريطانيا رفضت الاقتراحات التى قدمها محمد على فى عامى ١٨٣٤ و١٨٣٧ . ولذلك دعا محمد على فى ايار (مايو) ١٨٣٨ القناصل العامين للدول الكبرى واشعرهم ببيان استقلال مصر الذى اعده هو والذى حظى بتاييد تام من علماء الدين فى القاهرة ومن الرأى العام فى البلاد .

وقد فجرت خطوة والى مصر هذه الاستياء والذعر فى لندن . وكلف بالمرستون السفير البريطانى فى القسطنطينية بونسونبى بان يطالب محمود الثانى على نحو قاطع ان يعلن بان بيان محمد على غير شرعى وان يحث السلطان على خوض العمليات الحربية ضد مصر واعدا اياه باقصى حد من المساعدة العسكرية من بريطانيا العظمى (٧) . وقد سلمت هذه المذكرة الى السلطان العثمانى فى اواخر اذار (مارس) ١٨٣٩ ، وفى ٢١ نيســـان (ابريل) عبرت القوات التركية نهر الفرات واجتاحت الاراضى السورية التابعـــة لمحمد على . وهكذا بدأت الحرب التركية المصرية الثانية .

فى مستهل حزيران (يونيو) ١٨٣٩ كتب بالمرستـــون الى السفير البريطانى فى القسطنطينية ما يلى : «وانى اكره محمد على الذى اعتبره بربريا جاهلا احرز النجاح عن طريق التحايل والوقاحة

والفطنة ... وانا اعتبر حضارته التى تكال لها المدائح هراء فى هراء» (٨) . وافاد انطونى نوتنغ ان رئيس وزراء بريطانيا ايدن استخدم مثل هذه التعابير تقريبا فى ربيع ١٩٥٦ ضد الرئيس المصرى جمال عبد الناصر .

فى ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٣٩ دحرت القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا الجيش التركى فى معركة نصيبين . وفى مستهل تموز (يوليو) انتقل الاسطول التركى بأسره الى الجانب المصرى . وخشية تدخل الدول الكبرى منع محمد على قواته من عبور جبال طورس واقترح على تركيا توقيع الصلح بشرط الاعتراف بالحقوق الوراثية لاسرته فى مصر وفلسطين وسوريا . وكان السلطان الجديد عبد المجيد ووزراؤه فى العاصمة التركية التى خيم عليها الذعر بسبب الهزائم الحربية ووفاة محمود الثانى المفاجئة مستعدين لقبول هذا الاقتراح . الا ان الدبلوماسية البريطانية حالت دون ذلك . ففى ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٣٩ امر بالمرستون السفير بونسونبى ان يطالب عبد المجيد بشكل قاطع بان يرفض جميع اقتراحات محمد على (٩) . ومع ذلك تم فى ايار (مايو) ١٨٤٠ نتيجة لوساطة فرنسا توقيع اتفاقية بين تركيا ومصر سلم السلطان طبقا لها الى محمد على مصر وسوريا بمثابة ملك وراثى .

الا ان الحكومة البريطانية قررت احباط هذه الاتفاقية والحيلولة دون تعزز مصر مهما كلف الامر . ففى ايار ١٨٤٠ دبر العملاء البريطانيون انتفاضة فى لبنان ضد مصر ، حيث ارسلوا الى هناك سرا ٢٢ الف بندقية . وفى ١٥ حزيران (يونيو) ١٨٤٠ وقعت بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا على معاهدة لندن التى منحت محمد على مصر ملكا وراثيا وفلسطين ملكا مدى الحياة على شرط ان يعترف محمد على بالسيطرة العليا للسلطان العثمانى .

وفى ١٩ آب (اغسطس) ١٨٤٠ وجهت الدول الكبرى (ما عـدا فرنسا) بايحاء من بريطانيا انذارا الى محمد على . وجاء فى الانذار انه اذا لم يقبل محمد على بهذه الشروط فى غضون عشرة ايام فسوف تترك له مصر وحدها ، واذا لم يقبل بها فى غضـون ٢٠ يوما فسوف يزاح من دست الحكم (١٠) . وكان بالمرستون قد صاغ الانذار عمدا بلهجة استفزازية لكى يجعل محمد على يرفضـه فتتوفر فى يد بالمرستون حجة للتدخل فى مصر ، او لكى ينسف سمعة محمد على كليا فى مصر والبلدان العربية المتاخمة لها فى حالة قبوله بهذه الشروط .

ولقد رفض محمد على الانذار مؤملا بالمساعدة التى وعدته بها فرنسا . وردا على ذلك بدأت بريطانيا بالاشتراك مع تركيا العمليات الحربية ضد مصر . ففى ١١ ايلول (سبتمبر) ١٨٤٠ انزلت عمارة بريطانية ، استخدمت البواخر فيهـا لاول مرة فى تاريخ الفن العسكرى ، قوات بريطانية وتركية شمـالى بيروت . ودبر العملاء البريطانيون انتفاضة اخرى فى جبال لبنان ، فى مؤخرة الجيش المصرى . وفى ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٠ الحقت القوات الانكلوتركية بقيادة الاميرال شارلز نابير هزيمة بقوات ابراهيم باشا قرب بيروت . وفى ٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٤٠ قصف الاسطول البريطانى بوحشية مدينـة عكا ، المعقل الرئيسى للمصريين فى فلسطين . وبدأت وحدات الانزال البريطانية زحفها نحـو القدس . وفى تشرين الثـانى ١٨٤٠ حاصرت عمارة نابير الاسكندرية . ووافق ذلك استبدال الوزارة فى فرنسـا . وقد رفضت وزارة سولت ـ غيزو الجديدة تنفيـذ التزامات رئيس الوزراء الفرنسى السابق تيير بشأن دعم مصر . وفى هذه الظروف اضطر المصريون فى ٢٧ تشرين الثانى ١٨٤٠ على توقيع المعاهدة

التى قدمها نابير . ولقاء ضمان الحقوق الوراثيـــــة فى مصر التزم محمد على بالجلاء عن سوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية . الا ان جلاء القوات المصرية من سوريا وفلسطين كان امرا فى غاية الصعوبة ، وذلك لان الدخلاء البريطانيين احتلوا القدس وقطعوا طريق الانسحاب . واضطر ابراهيم باشا الى التراجع عبر السهب والصحارى فيما وراء الاردن . ولم يصـــل الى غزة من ٦٠ الف جندى مصرى الا ٢٤ الفا . وذلك يعنى ان البريطانيين بعد توقيع معاهدة الصلح حكموا عمدا على اكثر من ٣٥ الف جندى مصرى بالموت والهلاك بسبب الجوع والبرد والعطش والامراض .

وفى الاول من حزيران (يونيو) ١٨٤١ وقع السلطـــان عبد المجيد مرسوما خاصا حدد الاوضاع فى مصر . وطبقا لهذا المرسوم احتفظ محمد على بمصر ملكا وراثيا ، ولكنه ظل تابعا للسلطان وكان عليه ان يدفع جزية كبيرة ، وان يقلص جيشه الى ١٨ الف محارب . واصبـــح حق تعيين الجنرالات فى الجيش المصرى من صلاحيات السلطان وحده . وحرمت مصر من حق بنـــاء السفن الحربية .

وهكذا وجه المستعمرون البريطانيون ضربة شديدة ليس فقط الى خطط محمد على الرامية الى انشاء دولة عربية كبرى فى الشرق الاوسط ، بل ونسفوا استقلال مصر نفسها . من الناحية الشكلية ازدادت تبعية مصر لتركيا ، الا ان تركيا فى واقـــع الامر فقدت مصر نهائيا فى عام ١٨٤١ . وفى معرض الحديث عن الوضـــع فى مصر كتب ماركس وانجلس عام ١٨٥٣ كلمات تأكدت صحتها كليا بعد ٣٠ عاما : «ان مصر تعود للانجليز اكثر من غيرهم . ولدى تقسيم تركيا فيما بعد ستشكل مصر حصتهم» (١١) .

الا ان دسائس المستعمرين البريطانيين ضد مصر والمناطق العربية الاخرى لم تقتصر على ذلك . ففى ١٦ آب (اغسطس) ١٨٣٨

وقعت المعاهدة التجارية الانجليزية التركية . وجاءت هذه المعاهدة لصالح بريطانيا كليا . فقد الغت احتكار الحكومة التركية لتجارة مختلف انواع الخامات ، مما هيأ للرأسمال البريطانى شراء هذه الخامات باسعار واطئة من المنتجين مباشرة . وسعت البرجوازية البريطانية الى توسيع هذه المعاهدة لتشمل ممتلكات محمد على ايضا ، بغية شراء القطن المصرى والصوف والحرير من سوريا باسعار واطئة . وكانت ترغب فى فتح اسواق البلدان العربية امام بضائعها . وكان محمد على قد عارض هذه الخطط بصورة قاطعة . ولكنه فى عام ١٨٤٢ ، بعد الهزيمة الماحقة ، لم يعد قادرا على المقاومة وهكذا شملت مواد معاهدة ١٨٣٨ الانجليزية التركية المجحفة اراضى مصر والحقت بالاقتصاد المصرى ضررا فادحا للغاية ، حيث اساءت الى مالية البلاد وخنقت فى الواقع الصناعة المصرية فى مهدها .

كان الاتجاه الثالث الذى جرى فيه التوسع البريطانى ضد البلدان العربية يمر عبر فلسطين . ففى عام ١٨٣٩ ، فى معمعان الحرب التركية المصرية الثانية وعشية انزال القوات البريطانية فى بيروت ، اتخذت الحكومة البريطانية قرارا بفتح قنصلية فرعية فى... القدس . واشار بالمرستون فى توجيهه الى اول نائب للقنصل فى القدس ، واسمه يونغ ، الى ان احدى مهامه الاساسية «حماية اليهود الى اقصى حد» (١٢) . وفى الوقت ذاته تقريبا بعث بالمرستون توجيها الى بونسونبى اشار فيه الى ان من الضرورى ان يوضح للوزير السامى «بان من المفيد للسلطان فائدة قصوى لو حصل اليهود القاطنون فى مختلف بلدان اوربا وافريقيا على محفز للهجرة الى فلسطين ، وذلك لان ثرواتهم وقابلياتهم فى تدبير الامور الادارية والصناعة ستساعد لدرجة كبيرة على زيادة موارد

الامبراطورية التركية وتقدم الحضارة فيها» (١٣) . وكان النشاط الكبير الذى مارسه يونغ فى القدس قد ساعد فصائل نابير لدرجة غير ضئيلة فى الاستيلاء على المدينة وقطع طريق التراجع على جيش ابراهيم باشا على طول الساحل .

وناقشت الصحف البريطانية على نطاق واسع ابان اشتداد الازمة فى الشرق الاوسط فكرة استخدام النازحين اليهود بشكل كامل لتعزيز المواقع البريطانية فى سوريا وفلسطين . ففى ١٧ آب (اغسطس) ١٨٤٠ كتبت «التايمس» اللندنية فى مقالة بعنوان : «سوريا وبعث اليهود» تقول : «ان اقتراح اسكان اليهود فى بلد اجدادهم ... لم يعد مسألة للمجادلات الفارغة بل اصبح على الاكثر مادة للمناقشة الجدية» . وكانت قضية تحويل سوريا وجزء من فلسطين الى منطقة للنفوذ البريطانى او مستعمرة بريطانية (بعد ان طردت منهما القوات المصرية) قد نوقشت على نطاق واسع ليس فى الصحافة وحدها ، بل وفى الاوساط الحاكمة البريطانية . ففى ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٨٤٠ اقترح السياسى الانجليزى البارز الدوق شافتسبورى الذى ايد هذه الفكرة بحرارة عدة اجراءات لتحقيقها ووجه هذه الاجراءات فى رسالة الى بالمرستون : «لو تمعنا فى مسألة عودة اليهود على ضوء بعث فلسطين او تحويلها الى مستعمرة لرأينا ان ذلك هو ارخص واسلم طريق لتامين كل ما هو ضرورى لهذه المنطقة القليلة السكان» (١٤) .

وفى عام ١٨٤١ ، عشية استسلام محمد على كليا ، حيث كانت تركيا بأمس الحاجة الى الدعم البريطانى فى صياغة شروطها ، استطاعت الدبلوماسية البريطانية ان تحصل من عبد المجيد على اعتراف شبه رسمى بحق بريطانيا فى نوع خاص من الوصاية على اليهود القاطنين فى الامبراطورية العثمانية (١٥) . وتجلى ذلك فى

الامر الذى وجهه بالمرستون آنذاك الى جميع القنصليات البريطانية فى تركيا وطلب منها رعاية اليهود وتشجيعهم بكل الوسائل على الهجرة الى فلسطين (١٦) . وفى الوقت ذاته صادقت الحكومة البريطانية على قرار رئيس اساقفة كنتربيرى بشأن ارسال اول اسقف انكليكانى الى القدس ، وهو حاخام اعتنق المسيحية . ولتقوية سمعة بريطانيا فى فلسطين ، نقل هذا الاسقف الى حيفا على متن دارعة بريطانية . الا ان بالمرستون اشار فى توجيه سرى الى يونغ الذى رفع فاصبح قنصلا لبريطانيا فى فلسطين الى ان هذا يجب ان لا يشجع الدعاية الدينية للاسقف الجديد ولا يساعد على تنصير اليهود القاطنين فى فلسطين وعددهم آنذاك ١٠ آلاف (١٧) . اذن ، فالحكومة البريطانية التى اعلنت مرارا عن تمسكها بالمثل المسيحية ، بل وبررت مشاركتها فى حرب القرم برغبتها فى حماية العتبات المقدسة المسيحية فى القدس (التى طمع الكاثوليك والبروتستانت بالسيطرة عليها لوحدهم) من تطاولات الكنيسة الارثوذكسية الروسية وارسلت الاسقف الانكليكانى الى القدس لهذا الغرض ، كانت فى الوقت ذاته تعرقل تنصير اليهود بكل الوسائل . ويتضح من الحقائق المذكورة اعلاه ان النازحين اليهود هم الذين كانوا يلزمون المستعمرين البريطانيين فى فلسطين لمواجهة خطط محمد على فى انشاء دولة قوية فى الشرق الاوسط ولتعزيز النفوذ البريطانى هناك .

المستعمرون البريطانيون فى حوض الخليج العربى

كان الاتجاه الرابع للتوسع البريطانى فى العالم العربى يستهدف حوض الخليج العربى والبحر الاحمر . ففى عام ١٧٩٢ استطاعت شركة الهند الشرقية التى استخدمت الدسائس والذهب والاسلحة

على نطاق واسع ان تمزق دولة عمان العريقة وان تؤسس على ساحلها الشرقى سلطنة مسقط العميلة لها . وبحجة الدفاع عن الهند من الخطر الفرنسى فرض اسياد شركة الهند الشرقية فى عام ١٧٩٨ على سلطان مسقط اول معاهدة غير متكافئة فى هذه المنطقة . واعتبارا من عام ١٨٠٠ ظهر فى عاصمة السلطنة ممثل دائم لشركة الهند الشرقية اخذ يبعث تقاريره المنتظمة الى كلكتا ولندن عن الوضع فى شبه الجزيرة العربية وفى الخليج العربى . وكانت انتصارات القوات المصرية فى هذه المنطقة تثير قلقا شديدا لدى المستعمرين البريطانيين . وفى عام ١٨١٩ اقترحت الهيئات الدبلوماسية البريطانية على محمد على «التعاون» فى «تهدئة» مناطق اليمن الواقعة جنوبى وجنوب شرقى صنعاء . وبعبارة اخرى فان بريطانيا اقترحت تجزئة اليمن . وبعد ان تلقى المستعمرون البريطانيون رفضا اعتمدوا على مواقعهم فى مسقط واخذوا يعملون وحيدين . ففى كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٠ انهالت عمارة بريطانية بقصف لا رحمة فيه على الميناء اليمنى مخا ، وفى ١٥ كانون الثانى (يناير) عام ١٨٢١ فرضت على امام اليمن معاهدة منحت عدة امتيازات للمستوطنين البريطانيين فى موانئ الجنوب العربى . وفى عام ١٨٣٤ احتلت قوات شركة الهند الشرقية جزيرة سوقطرة الواقعة عند مشارف خليج عدن ، وفى ١٨٣٩ تم الاستيلاء على عدن التى تحولت الى اهم رأس جسر ومعقل للسياسة الاستعمارية البريطانية فى شبه الجزيرة العربية وفى حوض البحر الاحمر .

وفى الوقت ذاته ازداد النشاط التوسعى الاستعمارى البريطانى فى الخليج العربى . ففى عام ١٨١٨ عندما وصلت القوات المصرية بعد دحر الوهابيين الى الخليج العربى واستولت على ميناء

القطيف وبدأت هجومها بالاتجاه الجنوبى الشرقى نحو موانىء ساحل عمان الشمالى وصل الى هذه المنطقة اسطول شركة الهند الشرقية الذى طالب قادته ابراهيم باشا بان يسحب قواته من ولاية الحسا الساحلية وان يتخلى رسميا عن اية ادعاءات بحوض الخليج العربى . وقد رفض ابراهيم باشا هذه المطالب ، وعندها شرع المستعمرون البريطانيون بتطبيق خطة تحويل الخليج العربى تدريجيا الى « بحيرة بريطانية » .

وسعى المستعمرون البريطانيون ، بالاعتماد على مواقعهم فى مسقط ، الى السيطرة على الساحل الشمالى الشرقى لعمان ، فيما بين شبه جزيرة قطر وشبه جزيرة مسندم ، وهى المنطقة التى تسكنها قبائل القواسم المعروفة بشجاعتها والتى مارست بصورة رئيسية طوال القرون الوساطة التجارية وملاحة السواحل بين موانىء الخليج العربى وكذلك بين موانىء شبه الجزيرة العربية وشرقى افريقيا ، بل وحتى غربى الهند . وكان مجيىء المستعمرين الاوربيين ، وخصوصا شركة الهند الشرقية التى فتحت خطوطا منتظمة بين اهم موانىء هذه المنطقة ، قد حرم بحارة عمان من اسباب الرزق . فالعمانيون الذين انجروا الى الصراع بين الدول الكبرى — الامبراطورية العثمانية وايران وبلاد الوهابيين ومصر وبريطانيا — من اجل السيطرة على مياه الخليج ، واضطروا الى الدفاع عن النفس من هجمات الغزاة ، وفقدوا مهنتهم الرئيسية — الوساطة التجارية البحرية صاروا غالبا ما يهاجمون سفن « الغير » وبالدرجة الاولى سفن منافسيهم بغية الحصول على ما يقتاتون به . وقد استخدم المستعمرون البريطانيون هذا الامر على نطاق واسع فاعلنوا ان القواسم قطاع طرق ، ونعتوا ساحل عمان الشمالى الشرقى بساحل القراصنة . ووجه المستعمرون الايطاليون

والبريطانيون نفس هذه التهمة ضد سكان المناطق الساحليـــة فى عسير واليمن على البحر الاحمر . واطلق المستعمرون الاوربيون نعت القراصنة على سكان المناطق الساحلية فى شمال افريقيـــا . وهكذا حول ايديولوجيو الاستعمار هذه الظاهرة الاجتماعية التى هى نتيجة لسياسة المستعمرين العسكرية والاقتصادية الى سمة فى الطباع القومية لسكان آلمناطق الساحلية فى عـــــدد من البلدان العربية .

وبحجة مكافحة القراصنة فى عمان وجه اسياد شركة الهند الشرقية بالتعاون مع سلطان مسقط اسطولا قويا الى الخليـــج العربى فى عام ١٨١٩ . وفى معركة بحرية استغرقت ستة ايام قرب رأس الخيمة (المنضمة حاليا الى دولة الامارات العربيـــة المتحدة) اندحر الاسطول العمانى الشمالى ثم احرق . وفى ٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٢٠ اضطر شيوخ قبائل القواسم العشر الى توقيع المعاهدة العامة الجائرة مع ممثلى شركة الهند الشرقية ، وهـــى المعاهدة التى وضعت ساحل عمان وبقايا اسطول القواسم تحت سيطرة شركة الهند الشرقية . وفى العام نفسه اضطر شيخ البحرين الى التوقيع على هذه المعاهدة ايضا . وهكذا تغلغل المستعمرون البريطانيون ، بحجة مكافحة القرصنة وتجارة الرقيق ، الى الخليج العربى وحالوا دون وقوع ساحله الغربى تحت سيطرة محمد على.

وفى الوقت ذاته بدأت شركة الهند الشرقية تغلغلها فى العراق الذى كان جزء من الامبراطورية العثمانية . وظهر فى البصرة ، ثم فى بغداد ، القناصل والوكلاء والممثلون التجاريون والسياسيـون البريطانيون التابعون لهذه الشركة . واعتبارا من عام ١٨٠٢ صار واليا على العراق حافظ على ذو الارتباط مع سفير نابليـــون فى القسطنطينية الجنرال سيباستيانى الذى ساعده فى اعادة تنظيم

قواته المسلحة . ولم يتفق ذلك ومصالح شركة الهند الشرقية التى رتبت منذ اواخر القرن الثامن عشر الاتصال البريدى المنتظم بين بريطانيا والهند عبر العراق بالذات . وكانت السفن المبحرة بانتظام من بومباى الى البصرة تنقل البريد الذى يرسل من هناك فى نهر دجلة الى بغداد ، ومن بغداد ينقل على جمال سريعة الى حلب والقسطنطينية ومن هذه الاخيرة الى بريطانيا عن طريق البحر . كان تعزز مكانة حافظ على الوثيق الارتباط بفرنسا يهدد مصالح بريطانيا السياسية والاقتصادية والستراتيجية . وفى ١٨٠٧ قتل حافظ على ، وكان لممثلى شركة الهند الشرقية ضلع فى قتله بالطبع . غير ان خليفته سليمان الصغير سرعان ما اخذ يعارض مصالح شركة الهند الشرقية . وعند ذاك استطاعت الدبلوماسية البريطانية ان تزيحه بواسطة الباب العالى . وطوال اربعة عشر عاما ـ من ١٨١٧ الى ١٨٣١ ـ حكم العراق الوالى داود باشا الذى حاول تصفية نظام الامتيازات المرهق بالنسبة للتجار المحليين . وهو النظام الذى كان يؤمن لشركة الهند الشرقية جملة امتيازات . وردا على ذلك بدأت الشركة المذكورة عمليات حربية فعلية ضد العراق . فقد دخلت سفنها الحربية نهرى الفرات ودجلة وقطعت المواصلات بين البصرة وبغداد . وفى هذه الظروف صادر داود باشا بضائع شركة الهند الشرقية واغلق جميع مؤسساتها وابعد مستخدميها من البلاد . وعند ذاك دبر المستعمرون البريطانيون صداما بين داود باشا واقطاعيى كردستان العراق . وأمنوا دعم حاكم ايران فتح على شاه للاقطاعيين الاكراد . وبعد ان منى داود باشا بعدة هزائم فى المعارك مع فصائل القبائل الكردية والقوات الايرانية ، وافق على التصالح مع شركة الهند الشرقية ، بل وتلقى مساعدة من ممثلها الجديد فى بغداد الكولونيل

تيلور فى بناء وحدات عسكرية جديدة ووحدات مدفعية والشاء ترسانة كبيـــرة للاسلحة فى بغداد . ولئن كان المستعمـــرون البريطانيون قد ايدوا السلطان العثمانى ضد محمد على فى المسألة المصرية ، فانهم ، بعد ان عززوا مواقعهم فى العراق ايدوا الى اقصى حد الميول الانفصالية لدى داود باشا . ولم يستطع السلطان محمود الثانى ان يزيح داود باشا ويستعيد السيطرة التركية على العراق الا فى عام ١٨٣١ عندما تفشى وباء الطاعون فى العـــراق فاضعف موارده وقضى على جيشه الجديد .

وفى اواخر العشرينات واوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، حينما ظهرت البواخر ، اخذت الاوساط الاستعماريـــة البريطانية تناقش بنشاط مسألة اقامة اتصالات بحرية منتظمة بين الهند وبريطانيا العظمى على اساس اختيار واحدة من امكانيتين تتلخص اولاهما فى فتح خطوط للبواخر بين بريطانيا والاسكندرية ثم نقل الركاب والشحنات على الجمال والخيول عبر برزخ السويس لنقلهما فيما بعد من ميناء السويس على بواخر خط بومباى ــ السويس . وتتلخص الامكانية الثانية فى فتح خطوط للبواخر بين بريطانيا وموانئ الساحل السورى ، ثم نقل الركاب والشحنات والبريد عبر نهر العاصى والفرات وشط العرب الى البصرة ، حيث ينقل الركاب والشحنات والبريد على بواخر خط بومباى ــ البصرة. وقد حظيت الامكانية الثانية باهتمام خاص لان الخط المقترح لا يمر عبر اراضى محمد على عدو بريطانيا ، بل عبر اراضى العراق وسوريا المعروفين بعلاقاتهما الطيبة معها ، الامر الذى كان سيساعد على استثمار الرأسمال البريطانى فى العراق وتعزيز مواقع بريطانيا فى حوض الخليج العربى بأسره . وفى عام ١٨٣١ شرع الليفتينانت الانجليزى تشيسنى برسم خرائط حوض نهرى العاصى والفرات .

وقد حظى هذا العمل بدعم نشيط من قبل شركة الهند الشرقية ثم من قبل البرلمان البريطانى ، وخصصت له المبالغ اللازمة . وفى عام ١٨٣٤ حصل السفير البريطانى بونسونبى على أمر سلطانى خاص بشأن السماح بالملاحة فى الفرات . وفى ١٨٣٥ نقلت الباخرتان النهريتان «الفرات» و«دجلة» لاول مرة مفككتين من بريطانيا الى السويدية الواقعة على مصب نهر العاصى . وبدأ التحضير للرحلة التجريبية فى الفرات . الا ان الوضع فى سوريا آنذاك تغير تغيرا جذريا . فقد انتقلت السلطة الى ابراهيم باشا الذى اخذ يخلق مختلف العراقيل ، بأمر من القاهرة ، امام مؤسسات النقل والتجارة البريطانية فى سوريا والمناطق الغربية من العراق .

الا ان هذه الاعمال لم تمنع الاوساط الاستعمارية البريطانية من استخدام استسلام محمد على استخداما نشيطا لاستعادة نفوذها المتزعزع فى حوض الخليج العربى . ففى آب (اغسطس) ١٨٤٣ ارغم المستعمرون البريطانيون شيوخ قبائل القواسم العشر الذين كانوا قد وقعوا المعاهدة العامة فى ١٨٢٠ على توقيع معاهدة جائرة جديدة هى «الاتفاقية الاولى حول وقف العمليات الحربية فى البحر» . وقدمت هذه الاتفاقية للسلطات البريطانية امتيازات وحقوقا اوسع فى هذه المنطقة . وفى عام ١٨٥٣ حولت هذه الاتفاقية الى «معاهدة الصلح الابدى» التى منحت المستعمرين البريطانيين حق التدخل فى الشؤون الداخلية للمشايخ والسلطنات واستخدام السلاح لقمع حركة تحرر قبائل وشعوب هذه المنطقة . وبعد توقيع معاهدة الصلح تصدق المستعمرون البريطانيون فحولوا اسم ساحل القراصنة الى ساحل الصلح . وفى عام ١٨٦١ فرضت بريطانيا الحماية الفعلية على جزر البحرين ، وفى عام ١٨٦٨ فرضت الحماية على القسم الاكبر من شبه جزيرة قطر .

وفى الوقت ذاته عزز المستعمرون البريطانيون من جديد مواقعهم فى العراق وفتحوا الملاحة المنتظمة فى دجلة ، واخذوا يتدخلون فى العلاقات التركية العراقية ويحرضون حكام كردستان الاقطاعيين ضد العرب فى العراق ، فاضعفوا بذلك جميع الاطراف المتنازعة ، وخطوا على هذا الاساس خطوة واسعة جديدة فى طريق تحويل حوض الخليج العربى الى «بحيرة بريطانية» . واعتمد المستعمرون البريطانيون آنذاك على مواقعهم فى عدن فاخذوا يوسعون الى اقصى حد منطقة النفوذ البريطانى فى الجنوب العربى . واستفاد العملاء وكبار رجال البورصة البريطانيون من الضعف الشديد الذى انتاب مصر فحاولوا ان يسيطروا على اقتصادها .

وهكذا تستر المستعمرون البريطانيون فى اواسط القرن التاسع عشر بشعار حماية وحدة اراضى الامبراطورية العثمانية فأججوا التناقضات بين شعوبها وارسوا اسس الامبراطورية الاستعمارية البريطانية القادمة فى الشرق الاوسط مستخدمين على نطاق واسع الذهب والتخريب والقوات المسلحة وشراء الذمم . وظهرت لاول مرة فى ترسانة الاساليب التى استخدموها خطط الاستعمار اليهودى لفلسطين .

استعباد مصر والصراع من اجل قناة السويس

توفى محمد على فى عام ١٨٤٩ . وبما ان ابنه والحاكم الفعلى لمصر ابراهيم باشا كان قد توفى لعام قبل ذلك ، فقد انتقلت السلطة الى حفيد محمد على ـ عباس باشا ذى العلاقة الوثقى مع القنصل البريطانى العام فى القاهرة ومع الرأسمال البريطانى . وقد

بذل الحاكم الجديد ، وهو من غلاة الرجعيين ، قصارى جهده لتصفية جميع نتائج اصلاحات محمد على وابراهيم باشا . فقد اغلقت المعامل والمدارس وتوقف بناء سد النيل الكبير ، بل وحطم ما كان قد بنى سابقا . واعتمد عباس على كبار الاقطاعيين الشركس والاتراك واكد على الدوام ، خلافا لابيه وجده ، اخلاصه وتبعيته للسلطان العثمانى وتمسكه بالانظمة العثمانية القديمة . ومما له دلالته ان ذلك كله جرى فى الفترة التى سيطر النفوذ البريطانى خلالها على القسطنطينية . وفى عام ١٨٥١ قدم عباس باشا للرأسمال البريطانى امتياز مد سكة حديد الاسكندرية ـ القاهرة ـ السويس التى اتسمت باهمية ستراتيجية هائلة ، لان قناة السويس لم تكن قد ظهرت للوجود بعد . وانجز مد السكة فى عام ١٨٥٧ ، واستخدمها المستعمرون البريطانيون على نحو مشدد لنقل القوات من بريطانيا الى الهند ابان الانتفاضة الوطنية التى قام بها الشعب الهندى فى ١٨٥٧ـ١٨٥٨ . وازيح الرأسمال الفرنسى من المقدمة وضعف النفوذ الفرنسى فى مصر لدرجة كبيرة .

وطرح الرأسمال الفرنسى مشروع شق قناة السويس بغية استرجاع مواقعه وتوسيع نفوذه فى كافة ارجاء المنطقة الواسعة بين البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندى ونسف مواقع منافسه الرأسمال البريطانى . ولم تكن هذه الفكرة جديدة ابدا . فمن المعروف انه كانت توجد فى مصر القديمة قبل زهاء ٤٠٠٠ عام قناة تربط بين دلتا النيل والبحر الاحمر . وفى القرن الثالث قبل الميلاد انجز شق القناة الثانية التى تربط بين الفرع الشرقى القديم لنهر النيل والبحر الاحمر ، وقد استغرق شق هذه القناة اكثر من ٣٠٠ عام . وبعد الفتح العربى لمصر فى القرن السابع

الميلادى رممت «قناة الفراعنة» المصرية القديمة ثم ردمت فيما بعد . وكان الهدف من ردمها توجيه التجارة بين اوربا والشرق ليس عبر مصر ، بل عبر سوريا والعـــراق ، اى عبر المنطقتين الرئيسيتين للخلافة العباسية . وفى فترة الغزو الفرنسى لمصر تسلم نابليون امر حكومة المديرين «بحفر قناة السويس واتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لتأمين سيطرة الجمهورية الفرنسية وحدهـــا بحرية تامة على البحر الاحمر» (١٨) . الا ان بعثة المهندس ليبير التى وجهها نابليون الى برزخ السويس اقترفت خطا جديا فى حساباتها وتوصلت الى استنتاج خاطئ مفاده وجود فرق كبير فى مستوى مياه البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، ممـــا يجعل من المستحيل شق قناة ذاتية الجريان . وكانت مشاريـــع شق قناة السويس التى اقترحها الرأسماليون الفرنسيون فى مستهل خمسينات القرن التاسع عشر قد واجهت معارضة شديدة من قبل بريطانيا ، وبالتالى من قبل عباس باشا . وفى تمــــوز (يوليو) ١٨٥٤ قتل عباس باشا على يد حراسه . وتسلم مقاليد الحكم سعيد باشا المؤيد النشيط لاصلاحات محمد على وللصداقة مع فرنسا . وفى ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٥٤ قدّم سعيـــد باشا امتياز شق قناة السويس للدبلوماسى الفرنسى الكبير والمالى البارز فرديناند دى ليسبس الذى شغل والده لامد طويل منصب القنصل الفرنسى فى القاهرة .

وعارضت الحكومة البريطانية بشدة شق القناة . ففى كانون الثانى (يناير) ١٨٥٥ تسلم سعيد باشا مذكرة من وزير خارجية بريطانيا كلاريندون الذى اصر على نصح سعيد باشا بالامتناع عن شق القناة . علما بان الحكومة البريطانية اوضحت بكل رياء سبب معارضتها وعزته الى . . . الاهتمام بمصالح مصر : «لو ان حكومة

صاحبة الجلالة ترى فى هذا المشروع اية منفعة لمصر فى المستقبل لنصحت بقبوله عن طيبة خاطر» (١٩) . وفى الوقت ذاته مارست الدبلوماسية البريطانية اشد الضغط على القسطنطينية . فقد اعلن الوزير السامى رشيد باشا الى دى ليسبس الذى وصل الى القسطنطينية بكل صراحة ان موقف بريطانيا يجعل من المتعذر على الباب العالى ان يصادق على الامتياز . وفى حزيران (يونيو) ١٨٥٥ وجه كلاريندون مذكرة شديدة اللهجة الى المسؤولين فى باريس . واشار فى المذكرة مباشرة الى اعتقاد الحكومة البريطانية الراسخ «بان فكرة القناة اوحتها الى فرنسا سياسة معادية لمصر ، وهى بالذات الرغبة فى فصل تركيا عن مصر وسد الطريق بين بريطانيا والهند» (٢٠) . ان واقع ارسال مذكرة على هذا القدر من الشدة الى الحليف (وكان ذلك فى معمعان حرب القرم) مع اتهامه بانه يسعى من وراء شق قناة السويس الى بتر مصر من تركيا ، اى نسف وحدة الامبراطورية العثمانية ـ الشريك الثالث فى الائتلاف المعادى لروسيا ـ ان هذا الواقع يدل على حدة الهياج الذى ولده مشروع شق قناة السويس فى لندن .

الا ان دى ليسبس والبورصة الفرنسية لم يستسلما . ففى ٥ كانون الثانى (يناير) ١٨٥٦ تسلم دى ليسبس من الحكومة المصرية شروط الامتياز المدققة ، وسرعان ما تأسست الشركة العامة لقناة السويس ، وصدرت اسهم بمبلغ ٢٠٠ مليون فرانك . الا ان بريطانيا تابعت مكافحة مشروع القناة : ففى ٨ نيسان (ابريل) ١٨٥٨ اعلنت «التايمس» اللندنية فى مقالة شديدة اللهجة ان فكرة القناة هى نتيجة للدسائس الفرنسية . «ان هذا المشروع مغرق فى المغامرة وغير عملى ابدا الى درجة انه لا يوجد من يصدق بان هدفه هو فعلا مصالح التجارة والملاحة» . وفى

الوقت ذاته قررت الحكومة البريطانية ان تعجل فى مد السكك الحديدية فى الشرق الاوسط ، بغية التقليل من اهمية قناة السويس كطريق للنقليات ، وبالتالى نسف توزيع اسهم الشركة العامة لقناة السويس . وليس من قبيل الصدفة ان سكة حديد الاسكندرية ـ القاهرة ـ السويس ، منافسة القناة ، التى حصل رجال الاعمال البريطانيون على امتيازها فى عهد عباس باشا ، كما ذكرنا اعلاه ، قد انجزت فى عام ١٨٥٧ بالذات نتيجة للعمل المحموم ليل نهار . وفى العام ذاته انتزعت الدبلوماسية البريطانية من الباب العالى امتياز مد سكة حديد الفرات التى كان ينبغى ان تربط بين ساحل البحر الابيض المتوسط (مصب نهر العاصى) وبين الخليج العربى وتمر عبر حلب وبغداد والبصرة . ولدى التمهيد لمد هذه السكة حصل اصحاب الامتياز والاوساط الحكومية البريطانية على فائدة كبيرة من الرسوم والخرائط التى اعدها تشيسنى فى مستهل الثلاثينات . وقد عين هذا الاخير تقديرا لخدماته مستشارا لشركة سكة حديد الفرات ومنح رتبة جنرال . وهكذا خلقت الحكومة البريطانية الصعوبات امام تنفيذ مشروع قناة السويس ، ومنعت تداول اسهمه فى بورصة لندن ، مما كان سيحرم الشركة العامة لقناة السويس من الراسمال اللازم . الا ان ذلك لم يفت فى عضد دى ليسبس . فقد سلم اسهما غير مباعة بمبلغ ٨٨ مليون فرانك الى سعيد باشا ودفع قيمتها عن طريق قروض قدمتها البنوك الفرنسية الى الحكومة المصرية . وهكذا تحققت ثلاثة اهداف فى وقت واحد ـ تامين الرساميل اللازمة لتمويل شق قناة السويس ، وحصول اصحاب البنوك الفرنسيين على مبالغ خيالية من اصدار القروض والفوائد المئوية ونفقات العمولة والخ ، ثم فتح الطريق نحو تكبيل مصر ماليا ، وهذا هو

الاهم بالنسبة للبورصة الفرنسية . ففى عام ١٨٦١ بلغت ديون مصر الخارجية ٢٥٠ مليـــون فرانك . وفى ٢٥ نيسان (ابريل) ١٨٥٩ بدأت الاعمال فى شق القسم الرئيسى من قناة السويس .

وانتقلت الدبلوماسية البريطانية على الفور الى الهجوم المضاد . فقد وصل الى القاهرة مبعوث خاص من السلطان العثمانى ومعه امر قطعى بوقف جميع اعمال شق القناة . واعترف الوزير السامى فى حديث له مع السفير الروسى فى القسطنطينية بان هذا الامر املاه السفير البريطانى الذى هدد «بان بريطانيا سترى نفسها ملزمة بالسيطرة على مصر» (٢١) اذا لم يتخذ الباب العالى الاجراءات اللازمة . وفى مستهل كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥٩ اعلن السفير البريطانى للسلطان بصراحة : «اذا وافق الباب العالى على مشروع القناة فان بريطانيا لن تتردد فى اعلان الحرب ضد تركيا» (٢٢) . ولم تتوان الحكومة البريطانية عن تعزيز تهديداتها باعمال حازمة : فقد ظهرت عمارة البحر الابيض المتوسط البريطانية فى مرفـــأ الاسكندرية . الا ان الشركة العامة لقناة السويس المعتمدة على دعم الحكومة الفرنسية وسعيد باشا ، ثم على دعم انشط مـــن اسماعيل باشا خليفة سعيد باشا بعد وفاته فى عام ١٨٦٣ ، تابعت شق القناة بوتائر سريعة مستخدمة على نطاق واسع العمل الاجبارى لمئات الآلاف من الفلاحين المصريين .

واستمرت بريطانيا من ناحيتها بمقاومة شق القناة . ودبر عملاء بريطانيا هجوم بدو الحجاز على عمال الحفر ، كما دبروا صدمات مسلحـــة فى منطقة القنال وطمروا مرارا بعض اقســام القناة . وظلت البورصة البريطانية تخلق العراقيل امام الوضع المالى للشركة العامة لقناة السويس باستمرارها على منع تداول اسهم الشركة . وفى الوقت ذاته اسرع الرأسمال المالى البريطانى للاستفادة

من حالة التوتر فى الخزينة المصرية بسبب النفقات الهائلة على شق القناة وبدأ يتغلغل فى اقتصاد مصر . ففى عام ١٨٦٢ قدمت شركة المصارف البريطانية «فروهلنغ وغوشين» الى مصر اول قرض كبير بمبلغ ٣ ملايين جنيه بشروط قاسية ، اى بفائدة سنوية قدرها ٨٪ . وكانت هذه الشركة ذات صلات وثقى مع آل روتشيلد اللندنيين الذين لعبوا فيما بعد دورا رهيبا فى خنق مصر سياسيا وماليا . وكان جورج غوشين ــ ابن رئيس شركة «فروهلنغ وغوشين» والمالك المشارك لها طوال عدة سنين ــ شخصية بارزة فى حزب المحافظين . وكان فى الستينات نائبا لوزير التجارة ووزيرا للبريد فى بريطانيا العظمى ، وفى ١٨٧١ــ١٨٧٤ شغل منصب وزير البحرية . وهكذا دل تقديم القرض على وجود مصلحة للاوساط الحاكمة البريطانية فى استغلال مصر الى اقصى حد . واتسم باهمية غير ضئيلة كذلك واقع ان علاقات وثقى كانت تربط بين «فروهلنغ وغوشين» وبين شركة المصارف الالمانية بليهريدير التى كان رئيسها غيرشال بليهريدير مصرفيا شخصيا لبسمارك ، ومثل المانيا فيما بعد فى «المجلس العالمى للديون العثمانية» ، مما هيأ الامكانية لتنسيق السياسة البريطانية والالمانية فى المسالة المصرية .

وبما ان شق قناة السويس كان مستمرا فقد اتخذت الاوساط الحاكمة البريطانية اجراءات اخرى لتعزيز مواقعها فى المشارف القريبة والبعيدة من القناة . وكانت بريطانيا قد استولت فى عام ١٨٥٤ على جزر كورياموريا الواقعة على مقربة من خليج عدن ، وبعد ثلاث سنوات استولت على جزيرة بريم الواقعة فى مضيق باب المندب والتى تتسم باهمية ستراتيجية كبيرة ، وفى عام ١٨٦٢ استولت على جزيرة كمران التى تتسم باهمية كبيرة جدا من

الناحية الستراتيجية بسبب موقعها عند ساحل عسير واليمن فى البحر الاحمر . وفيما بعد اوضحت الدبلوماسية البريطانية ضرورة بقاء سيطرتها على هذه الجزر وغيرها من المناطق التى لا تقل عنها شأنا من الناحية الستراتيجية ، والتى استولت عليها بريطانيا قبل وبعد شق قناة السويس ، متحججة بضرورة . . . الدفاع عن القناة .

والى جانب تعزيز المواقع البريطانية فى البحر الاحمر سعى المستعمرون البريطانيون بكل الوسائل الى تثبيت اقدامهم فى المشارف الغربية لقناة السويس ، اى فى حوض البحر الابيض المتوسط . ففى ايار (مايو) ١٨٦٣ بدأت على نطاق واسع اعمال توسيع وتجديد القاعدة العسكرية فى جزيرة مالطة . فقد انشئت هناك احواض وارصفة جديدة والخ . وتحولت مالطة الى القاعدة الاساسية للاسطول البريطانى فى البحر الابيض المتوسط بعد ان تعزز لدرجة كبيرة وازداد حجمه . وبالاعتماد على مالطة بدأ المستعمرون البريطانيون الصراع من اجل السيطرة على الجزء الشرقى من البحر الابيض المتوسط .

وفى ١٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٦٩ جرت الاحتفالات بافتتاح قناة السويس . وكانت هذه الاحتفالات الهائلة التى اقامها اسماعيل باشا قد كلفت مصر ١٠٠ مليون فرانك قدمها اصحاب البنوك الغربيون على شكل قروض بفوائد مئوية عالية . وازدادت كثيرا سمعة دى ليسبس . وتجدر الاشارة الى ان الحكومة البريطانية رأت من الضرورى منحه وسام «نجمة الهند» ، بينما انتخبه حى فى لندن مواطنا فخريا . وكتب وزير خارجية بريطانيا كلاريندون فى رسالة خاصة الى دى ليسبس ان الحكومة البريطانية تهنئه بمناسبة انجاز طريق جديد للمواصلات بين الشرق والغرب والمزايا

السياسية والتجارية التى يمكن ترقبها بكل ثقـــــة من القناة فى المستقبل .

ويعزى التحول الجذرى للسياسة البريطانية فى هذه المسألة ليس فقط الى المثل الانجليزى المعروف «لا جدال فى الامـــــر الواقع» ، بل والى ان الاوساط الحاكمة البريطانية التى منيت بالهزيمة فى محاولاتها العديدة لنسف شق قناة السويس قد قررت فى الموقف الجديد ان تبذل كل ما فى وسعها للسيطرة على قناة السويس وعلى مصر ايضا . فخلال ١٢ عاما بعد استلام الحكومة المصرية اول قرض من شركة «فروهلنغ وغوشين» فرض اصحاب البنوك البريطانيون على البلاد سبعة قروض اخرى تزيد قيمتها على ٦٠ مليون جنيه ، ولم يسلموا منها نقدا الا ٤٦ مليون جنيه ، واستاثروا باكثر من ١٥ مليون جنيه «كفرق فى التسعيرات» ونفقات العمولة . وفى اواخر ١٨٧٥ بلغ مقدار الديون الخارجية المصرية ٩٤ مليون جنيه . وكانت البلاد على حافة الافلاس . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٥ انتهزت الدبلوماسية البريطانيـــة الازمة المالية المصرية المرعبة فحصلت على موافقة الخديـــوى اسماعيل على بيع اسهمه من الشركة العامة لقناة السويس لقاء ٤ ملايين جنيه . وبما ان رئيس الوزراء البريطانى دزرائيلى كان بحاجة الى عقد هذه الصفقة بصورة سرية عاجلة ، فقد تسلم قرضا من ناثانييل روتشيلد مدير مصارف روتشيلد دون ان ينتظـــر اعتمادات البرلمان ، بل ودون ان يطلع وزراء الحكومة على ذلك . وكانت شركة مصارف روتشيلد بدورها تسعى من زمن بعيد الى السيطرة على مالية مصر فعملت عن طريق شركتى «فروهلنـــغ وغوشين» و«بيشوفسهايم وغولدسميث» اللتين قدمتا القروض الى مصر . ولقاء الخدمة التى قدمها ناثانييل روتشيلد الى دزرائيلى اصبح بارونا وعضوا فى مجلس اللوردات .

وهكذا كان المستعمرون البريطانيون يسيطرون على اغلى ثروة للشعب المصرى وشعوب البلـــــدان العربية الاخرى ـ قنـــاة السويس ـ منذ عام ١٨٧٥ حتى تاميم القناة على يد جمال عبد الناصر فى عام ١٩٥٦ .

كان اقتناء الحصة المصرية من اسهم الشركة العامة لقنـــاة السويس قد جرى على حساب الخزينة البريطانية ، اى على حساب دافعى الضرائب . ولاول مرة فى تاريخ بريطانيا ، البلد التقليدى للتجارة الحرة والمبادرة الخاصة ، اقتنت الدولة اسهم مؤسسة خاصة غير حكومية . وكان ذلك نذيرا بحلول عصر الامبريالية ، عصر سيطرة البنوك والاتحادات الاحتكارية . لقد تم شراء هذه الاسهم من اجل تامين مصالح روتشيلد وغوشين واكبر اصحاب البنوك فى لندن الذين فرضوا القروض على خديوى مصر وحاشيته الخائنة من اجل مصالح اصحاب الاسهم فى اكبر شركة بريطانيـــة للملاحة وهى « بينينسولار اند اورينتال ستيـــــم نافيغيشين كومبانى » التى فتحت خطوطا مباشرة للملاحة بين بريطانيا والهند والصين عبر البحر الابيض المتوسط وقناة السويس . وكل ذلك هو خير وسيلة لتاكيد قول ماركس وانجلس : « ان سلطة الدولة المعاصرة هى مجرد لجنة تدير الشؤون المشتركة لطبقة البرجوازية باسرها » (٢٣) .

وبعد ان فرض الامبرياليون البريطانيون سيطرتهم على قنـــاة السويس وعززوا مواقعهم فى مصر الى اقصى حد بدأوا يوسعون بصورة محمومة منطقة نفوذهم فى شرق البحر الابيض المتوسط . وتذكروا من جديد سوريا وفلسطين الواقعتين على مقربة كبيرة من قناة السويس . وفى عام ١٨٥٣ ، عندما كان يدور صراع طاحن حول امتياز دى ليسبس اعلن الكولونيل جورج تاولر ، الحاكم

السابق لجنوب اوستراليا ، قائلا فى البرلمان البريطانى : «لقد وضع القدر سوريا ومصر فى طريق بريطانيا الى اهم مناطق تجارتها مع البلدان المستعمرة ـ الهند والصين والارخبيل الهندى واوستراليا ... وقدر لبريطانيا ان تمارس نشاطا كبيرا فى تهيئة الظروف الملائمة فى هاتين المقاطعتين ... ويتعين على بريطانيا ان تجدد سوريا بواسطة الشعب الوحيد القادر على تنفيذ هذه الرسالة والذى يمكن استخدام طاقته دوما وبصورة فعالة ، اعنى ابناء هذه الاراضى الحقيقيين ، بنى اسرائيل» (٢٤) . وهكذا ظهرت من جديد فكرة اسكان اليهود فى فلسطين (التى كانت آنذاك جزءا من سوريا من الناحية الادارية) بغية تعزيز مواقع بريطانيا عند مشارف قناة السويس . وفى عام ١٨٧٧ ، بعد سنة ونصف من شراء الحكومة البريطانية الحصة الاساسية من الاسهم فى الشركة العامة لقناة السويس ، نشر الكاهن القانونى جيمس نايل كتاب «الهجرة الى فلسطين ، او لمّ شمل اسرائيل المشتتة» . واثبت فيه ضرورة التعجيل بالهجرة اليهودية الى فلسطين من اجل مصالح الامبراطورية البريطانية . وبغية تنفيذ ما ورد فى كتاب نايل من افكار تأسست فى لندن «الشركة السورية الفلسطينية» . وكل ذلك جعل الزعيم الصهيونى ماكس نورداو فى مستهل القرن العشرين يكتب انه لم يبق على الصهيونية الا ان تظهر للوجود ، والا فان «بريطانيا كانت ستضطر الى ابتداعها» (٢٥) .

الا ان مشكلة استيطان اليهود فى فلسطين لم تكن سريعة الحل . ومع ذلك سارع الامبرياليون البريطانيون الى ترسيخ مواقعهم فى شرقى البحر الابيض المتوسط على مشارف قناة السويس . وتهيأ وضع ملائم فى عام ١٨٧٨ ، بعد الحرب الروسية التركية وانهائها بصلح سان ستيفانو ، حيث وجهت الاوساط الحاكمة البريطانية اسطول

البحر الابيض المتوسط الى الدردنيل وساعدت على تشديد التوتر الى اقصى حد ، مهددة بحرب كبرى تهديدا سافرا . وفى هـــذه الظروف عقد مؤتمر برلين بمبادرة من بسمارك لاعادة النظر فى معاهدة سان ستيفانو ، بحجة تحقيق تسويـــة سلمية اوسع فى الشرق الاوسط . وكانت الدبلوماسية البريطانية التى عملت قبيـــل المؤتمر واثناءه تحت شعارها القديم الخاص بحماية وحدة اراضى تركيا قد فرضت على السلطان عبد الحميد معاهدة جائرة تسلمت بريطانيا بموجبها قبرص ذات الموقع الستراتيجى الهام . ومما له دلالته ان المادة السادسة من المعاهدة البريطانية التركية المؤرخة فى ٤ حزيران (يونيو) ١٨٧٨ تشير الى ان بريطانيا تلتزم بالجلاء عن قبرص حالما تعيد روسيا الى تركيا قارص واردهان وارتوين التى انتقلت الى روسيا بعد الحرب الروسية التركية . وفى عـــام ١٩٢١ سلمت هذه الاراضى الى تركيا طبقا للمعاهدة السوفييتية التركية التى وقعت فى موسكو فى السادس عشر من آذار (مارس) العام المذكور . الا ان المستعمرين البريطانيين خرقوا معاهـــدة ١٨٧٨ وواصلوا احتلال قبرص حتى منحها الاستقلال فى عـــام ١٩٦٠ . وحتى الوقت الحاضر ظلت موجودة فى قبرص القواعـــد الجوية البريطانية المتمتعة بالحصانة والتى استخدمها المستعمرون البريطانيون فى العدوان على الشعب المصرى عام ١٩٥٦ وفى التدخل المسلح فى الاردن عام ١٩٥٨ . واصبحت هذه القواعد مرتكـــزا لحلف الناتو ضد الثورات المعادية للامبريالية فى البلدان العربية حتى اليوم .

وفى فترة مؤتمر برلين لم تقتصر جهود الدبلوماسية البريطانيـــة على قبرص وحدها . فقد اتضح من رسالة سرية وجهها وزيـــر خارجية بريطانيا سولزبرى الى السفير البريطانى فى القسطنطينيـــة

لايارد بتاريخ ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٨ ان وزير الخارجية البريطانى اجرى اثناء وجوده فى برلين مباحثات سرية مع زميله الفرنسي وادينغتون بشأن الوضع فى الامبراطورية العثمانية ومصيرها . واعلن بصراحة ان بريطانيا تسعى الى «النفوذ السائد فى غربى آسيا وخصوصا فى العراق» . وفى الوقت ذاته لمح سولزبرى ودزرائيلى للفرنسيين بوضوح بان هؤلاء يمكنهم ان يحولوا تونس الى شبه مستعمرة لهم ! وفى حالة انهيار الامبراطورية العثمانية ستحتل بريطانيا مصر ، على حد قول سولزبرى ، ولن تعارض مثل هذا العمل اذا قامت به فرنسا ازاء تونس (٢٦) .

وهكذا ، فان الاوساط الحاكمة البريطانية التى عبات اسطولها فى عام ١٨٧٧ ووجهته الى الدردنيل لحماية الامبراطورية العثمانية من الخطر الروسى ، وطرحت فى مؤتمر برلين موضوعة حماية «وحدة اراضى تركيا» ، كانت تناقش بكل اطمئنان مسالة تحويل العراق وسوريا وفلسطين (غربى آسيا) الى منطقة لنفوذها والاستيلاء على مصر فى حالة انهيار تركيا . علما بان هذه الاوساط وافقت عن طيبة خاطر على تعويض فرنسا بجزء آخر من اجزاء الامبراطورية العثمانية ، نعنى تونس .

وبعد مرور نصف عام على ارفضاض مؤتمر برلين ناقشت الحكومة البريطانية رسميا ، ودون ان تنتظر انهيار الامبراطورية العثمانية ، مسالة احتلال مصر . فقد كتب دزرائيلى الى الملكة فكتوريا بتاريخ ٢١ شباط (فبراير) ١٨٧٩ : «ولولا قضية جنوب افريقيا لبدأنا التحضير لاحتلال مصر» (٢٧) . وكانت هذه «القضية» تتلخص فى نشوب الحرب بين بريطانيا ودولة الزولو فى كانون الثانى (يناير) ١٨٧٩ نتيجة لعدوان المستعمرين البريطانيين

المتحصنين فى اقليم ناتال على هذه الدولة . وفى ٢٢ كانون الثانى (يناير) دحر جيش الزولو بقيادة الملك كيتشفايو القوات البريطانية فى معركة ايزانزلفان . وكانت تلك اقسى هزيمة تواجه البريطانيين فى افريقيا . فقد الحقت ضررا بليغا بسمعة المستعمرين واضطرتهم الى وقف التدخل ضد مصر . ومما له دلالته ان رئيس الوزراء البريطانى آنذاك غلادستون اضطر قبل ست سنوات من تلك الاحداث الى رفض مشروع تحويل الجنوب العربى الى محمية بريطانية واعلن «بان من الخطأ الفادح تحويل ذلك الى ساحل الذهب الثانى» (٢٨) . وفى خريف ١٨٧٣ حطم جيش الشانتيين بقيادة القائد العسكرى المحنك امانكوا تيا القوات البريطانية وفصائل حلفائها والحق بها شر هزيمة فى معركتى كيب كوست وايلمينا الطاحنتين .

وهكذا ساهم النضال البطولى لشعوب الشانتيين والزولو وماشونا وماتابيلى وغيرها من شعوب افريقيا مساهمة كبيرة فى النضال التحررى للجماهير الشعبية العريضة ليس فى افريقيا فقط بل وفى آسيا ايضا ، وعرقل بذلك عملية استعمار هذه المناطق .

* * *

على اثر اقتناء بريطانيا الحصة الاساسية من الاسهم فى الشركة العامة لقناة السويس نشرت صحيفة «التايمس» ، بوق البورصة ، مقالة متهللة جاء فيها : «نحن الآن اكبر المساهمين ... تمتلك بلادنا الصوت الحاسم فى جميع المسائل : العلمية والمالية والسياسة ، وستكون الادارة والمفاوضات فى ايدينا ، وبما اننا نمتلك السلطة فان المسؤولية امام العالم تقع علينا» (٢٩). وفى تلك الاثناء استمر مسيل القروض البريطانية . وبما ان الحكومة

المصرية كانت عاجزة عن دفع الفوائد المئوية الباهظة ، فقد اوقفت فى نيسان (ابريل) ١٨٧٦ الدفع حسب التزامات الخزينة ، اى انها اعلنت افلاسها . وبناء على طلب اصحاب البنوك الغربيين – مالكى الاسهم المصرية – توجهت الى مصر لجنة مالية انكلوفرنسية بغية التحضير لوضع مالية البلاد تحت رقابة اوربية . وترأس هذه اللجنة جورج غوشين ، احد صاحبى شركة «فروهلنغ وغوشين» . وبسبب فشل المحافظين فى الانتخابات فى بريطانيا اضطر جورج غوشين الى التخلى عن منصب وزير البحرية ، فارسلته الى القاهرة حكومة غلادستون الليبرالية ، مما يدل على وحدة مصالح اصحاب البورصة البريطانيين ومصالح الحزبين السياسيين الرئيسيين فى بريطانيا . وقامت لجنة غوشين بتوحيد الديون المصرية ، وصارت جميع ابواب الواردات فى الميزانية تصرف على دفع القروض والفوائد المئوية بانتظام . وعين موظف بريطانى مدققا عاما لواردات مصر ، كما عين موظف فرنسى مدققا عاما لنفقاتها . وبالاضافة الى ذلك تشكلت لجنة الديون الخاصة وترأستها الشخصية الاستعمارية والمالية البارزة فى بريطانيا الماجور بيرينغ (اللورد كرومر ، دكتاتور مصر فيما بعد) ، وهو ابن عم اللورد ريفيلستوك ، احد كبار اسياد بورصة لندن ورئيس شركة المصارف «الاخوان بيرينغ» ومدير المصرف البريطانى . وقد وصل الماجور بيرينغ الى القاهرة من الهند ، حيث كان يشغل منصب مساعد نائب الملك ، اللورد نورثبروك ، الذى كان من اقاربه . وهكذا ظهرت السيطرة المزدوجة (الانكلوفرنسية) على مصر . وبناء على طلب اسياد البورصات الغربية اضطر الخديوى اسماعيل فى عام ١٨٧٨ على تشكيل «الوزارة الاوربية» المكونة باغلبيتها من الموظفين الاوربيين . وشغل فيها منصبا ذا

اهمية كبيرة ، وهو منصب وزير المالية ، الشخصية الاستعمارية البريطانية ريفرز ولسن الذى تمرس على الادارة الاستعمارية فى الهند . وعين رئيسا للوزارة نوبار باشا ، وهو ارمنى كومبرادورى محلى ذو ارتباط وثيق مع آل روتشيلد فى لندن وباريس . واعترف كرومر بان نوبار باشا لم يكن يتمتع بنفوذ بين السكان المصريين الذين لم يستطع حتى التخاطب معهم بسبب جهله اللغة العربية . وقد اعتمد نوبار باشا على دعم الحكومتين البريطانية والفرنسية . وقبل ان يشغل ريفرز ولسن منصب وزير المالية زار آل روتشيلد فى لندن وباريس واتفق معهم على تسلم قرض جديد بمبلغ ٨ ملايين جنيه استرلينى ، على ان تكون ضمانة للقرض اغنى اراضى مصر ــ ضياع الخديوى الخاصة المعروفة « بالدائرة السنية » . وقدم آل روتشيلد القرض على هذا الاساس . الا ان الخزينة المصرية استلمت مليونى جنيه لا غير ، اما الباقى فقد تسلمه نفس اصحاب البنوك تسديدا « لنفقات تقديم القرض » والديون العاجلة .

وبدأت فترة استغلال لا مثيل له للجماهير الشعبية المصرية ، فترة خنق مصر ماليا ، فترة الرجعية فى كافة المجالات .

كل ذلك ادى الى تذمر شديد فى البلاد وفى الجيش خصوصا . وفى هذه الظروف اضطر الخديوى اسماعيل فى نيسان (ابريل) ١٨٧٩ الى نشر بيان بشأن اقالة « الوزارة الاوربية » واجراء عدد من الاصلاحات اللبرالية . ووردت فى هذا البيان بصورة رسمية لاول مرة صيغة تقول ان الشعب المصرى امة واحدة . وردا على ذلك طالبت الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية خصوصا فى القسطنطينية والقاهرة بشكل قاطع بخلع الخديوى اسماعيل . واصبح الخديوى الجديد ابنه توفيق باشا الضعيف الارادة والعديم

الكفاءة . واصبح رئيسا للوزراء صنيعة الانجليز رياض باشا . واعترف بيرينغ بان رئيس الوزراء الجديد كان يثق به الى درجة انه كان يوقع اهم اللوائح والوثائق الحكومية التى يستحسنها بيرينغ دون ان يقرأها ذاك . ويقول المؤرخ المصرى محمد صبرى بانه قد خيم على مصر آنذاك نظام الاستبداد والارهاب والتجسس .

واستمر التذمر والاستياء يتعاظمان فى البلاد . ففى شباط (فبراير) ١٨٨٢ تشكلت تحت ضغط مجلس النواب والجيش حكومة جديدة برئاسة الشخصية الليبرالية محمود سامى . وشغل منصب وزير الحربية الزعيم الوطنى والشخصية العسكرية المرموقة احمد عرابى .

كان المستعمرون البريطانيون يراقبون بكل اهتمام نمو الحركة المناوئة للامبريالية فى مصر . ففى شباط ١٨٧٩ اشار دزرائيلى فى رسالته المذكورة اعلاه والتى اوضح فيها للملكة فكتوريا اسباب امتناع بريطانيا عن احتلال مصر (هزيمة القوات البريطانية فى المعركة مع الزولو) ، الى ان السيطرة على قبرص قد غيرت الوضع فى شرق البحر الابيض المتوسط تغييرا جذريا . «فخلال ليلة واحدة تستطيع عدة سفن انزال القوات البريطانية المرابطة فى قبرص الى الاسكندرية» . وطوال عام ١٨٨١ وفى مستهل عام ١٨٨٢ اعد الامبرياليون البريطانيون التدخل بكل دقة ومن جميع الجوانب . وكان ذلك يتطلب الحيلولة دون مقاومة الدول الاوربية وفرنسا فى المقام الاول . ولهذا الغرض استخدم الطعم التونسى الذى اجرى سولزبرى ودزرائيلى المفاوضات بشأنه مع الدبلوماسيين الفرنسيين خلال مؤتمر برلين . وفى ١٢ ايار (مايو) ١٨٨١ طوقت القوات الفرنسية قصر باى تونس فى باردو بضواحى مدينة تونس وارغمت الباى على توقيع معاهدة باردو التى وافق الباى طبقا لها

على احتلال القوات الفرنسية للبلاد «لاحلال النظام» . ولم تسمح الدبلوماسية البريطانية بادراج كلمة «محميـــة» فى المعاهدة ، فالفرنسيون لم يكونوا قد دفعوا ثمن احتلال تونس بالكمبيالـة المصرية .

فى عام ١٨٨٠ سقطت حكومة دزرائيلى ـ سولزبرى المحافظة التى بذلت جهودا كبيرة لتكبيل مصر والتحضير لاحتلالها . وتسلم السلطة الليبراليون . وشغل منصب رئيس الوزراء وليم غلادستون الذى دافع مرارا فى فترة المعارضة عن الحركات المناوئة للاقطاعية فى آسيا واعرب عن تعاطفه مع ايرلندة . الا ان هذه الاراء لـم تحل دون التحضير لاحتلال مصر . ففى ايار (مايو) ١٨٨٢ ظهرت عمارة البحر الابيض المتوسط البريطانية بقيادة الاميرال سيمور فى الاسكندرية . وبناء على امر من عرابى بدأت السلطات المحلية باصلاح التحصينات الساحلية التى كانت قد انشئت فى عهد محمد على للدفاع عن الميناء الرئيسى فى البلاد . وكان ذلك هو الحجـــة التى طال انتظارها لتحقيق التدخل الذى توجه الاسطول البريطانى الى الاسكندرية من اجله . وفى السادس من تموز (يوليو) وجه سيمور انذارا وطالب بوقف اصلاح التحصينات . وردت القيادة المصرية بان لها الحق فى الدفاع عن حدودها واكدت بان المصريين لا يبنون منشآت تحصينية جديدة ولا ينصبون مدافع جديدة . وفى ١٠ تموز وجه سيمور انذارا آخر اكثر استفزازا . فقـــد طالب بان تسلم اليه فى غضون ٢٤ ساعة جميع التحصينـــات الساحلية فى الاسكندرية . وفى ١١ تموز ١٨٨٢ انهالت الدارعات البريطانية بقصف وحشى على الاسكندرية فحولت المدينة الزاهرة الى حطام .

وقد اثار هذا العمل البربرى الاستنكار لدى الرأى العام التقدمى فى العالم بأسره ، بما فيه بريطانيا . فقد تحدث النائب ريتشادز فى البرلمان قائلا : « ولنفرض انى اشاهد شخصا ما مريبا ذا نوايا شريرة يحوم حول دارى . فاسرع واوصد الباب بالمفتاح والمزلاج واحكم غلق الشبابيك . اما هذا الشخص السيئ النية فيرى فى عملى هذا اهانة وتهديدا له ويحطم ابواب دارى ويعلن بانه يفعل ذلك لمجرد الدفاع عن النفس » (٣٠) .

وفى اواخر تموز (يوليو) ١٨٨٢ حاولت قوات فيلق الحملات البريطانية بقيادة الجنرال ولسى ان تخترق التحصينات المصرية عند كفر الدوار (قرب الاسكندرية) وتبدأ الهجوم على القاهرة . ولكن المصريين ردعوها . وعندها قرر المستعمرون البريطانيون استخدام وسيلتين : شراء الذمم والهجوم الحربى . واقترح ممثلو آل روتشيلد فى لندن على عرابى باشا ان يغادر البلاد وان يمنحوه لقاء ذلك تقاعدا مدى الحياة بمبلغ ٤ آلاف جنيه فى العام ، وزاد ممثلو آل روتشيلد فى باريس هذه الرشوة الى مبلغ ٦ آلاف جنيه (٣١) . بديهى ان الوطنى المصرى احمد عرابى رفض هذه الوعود غاضبا . واخذت البلاد تتسلح على قدم وساق .

كان الهجوم على القاهرة يمكن ان يجرى باتجاهين : من جهة الدلتا ومن جهة قناة السويس شرقا . واقترحت قيادة الجيش المصرى تعطيل قناة السويس وغلق قناة المياه العذبة التى تزود هذه المنطقة كلها بمياه النيل ، مما يؤمن سلامة الجناح الشرقى ويتيح تحشيد الجيش المصرى كله فى الدلتا . ولكن ذلك من شأنه ان يؤدى الى وقف المرور عبر القناة وتكبد مساهمى الشركة العامة خسائر كبيرة . وتدخل فى الامر فرديناند دى ليسبس الذى وعد عرابى « بكلمة شرف من صديق لمصر بانه سيعرقل انزال

٥*

القوات البريطانية في منطقة القناة» واستطاع ان يجعل القناة تعمل بصورة طبيعية . وعجل الغزاة البريطانيون في الاستفادة من ذلك . ففي ٢٠ آب (اغسطس) انزلوا قوات كبيرة ، خلافا لتاكيدات دي ليسبس ، في بور سعيد والاسماعيلية ، حيث لم تكن هناك اية قوات مصرية تقريبا . وفي ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٨٨٢ اندحرت القوات المصرية في معركة التل الكبير ليلا . ولاول مرة ، وليس لآخر مرة ابدا ، استخدم الامبرياليون البريطانيون منطقة قناة السويس لاستعباد مصر .

وفي اواخر ايلول ١٨٨٢ عاد توفيق باشا وحاشيته الى القاهرة في ركاب الجيش البريطاني . وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٢ حكم بالاعدام على عرابي باشا وانصاره المقربين ، ثم استبدل حكم الاعدام بالنفي المؤبد الى جزيرة سيلان . واعدم رميا بالرصاص وقتل تحت التعذيب آلاف من انصار عرابي باشا . وكان السفير البريطاني في القسطنطينية اللورد دوفرين الذي وصل الى القاهرة «لاحلال النظام» قد كتب في تقريره الى لندن يقول : «الشعب المستعبد بحاجة الى يد السيد الحديدية وليس الى نظام دستوري» (٣٢) . وطبقا لهذا المبدأ اقيم في مصر نظام التعسف الاستبدادي الاستعماري . وطوال ربع قرن حكم مصر القنصل العام البريطاني في القاهرة الماجور بيرينغ الذي شغل هذا المنصب في ١٨٨٣ (فخلال الفترة ١٨٨٠ ـ ١٨٨٣ كان يعمل في الهند مديرا للمالية في الادارة الاستعمارية البريطانية) . وفرضت على الشعب المصري غرامة بمبلغ ٩ ملايين جنيه استرليني (هكذا دفع المصريون الى اصحاب البنوك في بريطانيا قيمة اسهم قناة السويس ونفقات التدخل واكثر) . وتسلم مكافاة سخية ليس فقط روتشيلد وصنائعه ، بل والمنظمون المباشرون للتنكيل بمصر .

فان الفيس اميرال سيمور تحول الى اللورد اولسيستر ومنح رتبة اعلى حيث اصبح اميرال الاسطول . وصار الجنرال ولسى فيكونتا ، ثم فيلدمارشالا وقائدا عاما للجيش البريطانى ، وتحول الماجور بيرينغ الى اللورد كرومر . اما مصر التى ظلت شكليـــا ضمن الامبراطورية العثمانية فقـــد تحولت الى احدى اهم مستعمرات الامبريالية البريطانية . وحتى عام ١٩٥٦ ظلت بعض مناطق مصر تحت سيطرة قوات الاحتلال البريطانية .

واضطر حكام بريطانيا على مضض الى تنفيذ التزامهم السرى الذى اخذوه على عاتقهم فى فترة مؤتمر برلين ، فوافقوا على ابتلاع فرنسا لتونس نهائيا . وفى ٨ حزيران (يونيو) ١٨٨٣ تم توقيع الاتفاقية الفرنسية التونسية فى المرسى . وقـــد حرمت هذه الاتفاقية حكومة تونس من الاستقلال فى الشؤون الداخلية ايضا . فقد اعلنت ان تونس من الناحية الرسمية محمية لفرنسا . وهكذا صار الامبرياليون الاوربيون يهدون بعضهم البعض «بسخـــاء» بلدانا عربية باكملها .

وبعد غزو مصر اسرع المستعمرون البريطانيون الى الاستيلاء على السودان بغية السيطرة على منابع النيل والوصول الى حدود اثيوبيا واوغندا واخضاع الساحل الغربى للبحر الاحمر . ومما له دلالته ان حملة الغزو البريطانية فى السودان قد قامت بها القـوات المصرية تحت قيادة ضباط بريطانيين تحت شعار «استعـــادة السيادة المصرية على السودان التى كانت قائمة فى عهد محمد على» . وكان الغزاة البريطانيون متحمسين جدا لهذه المسالة فكانـــوا «مصريين» اكثر من الخديوى نفسه . فاعلنوا انه ليست السودان وحدها بل وقسم كبير من الصومال هى اراض مصريـــة ، اى بريطانية . وهكذا سعى الامبرياليون البريطانيون الى استخـــدام

اراضى مصر ومواردها البشرية والمادية لتجزئة افريقيا والنضال من اجل المستعمرات ضد منافساتهم فرنسا والمانيا وايطاليا .

الا ان الشعب السودانى بقيادة الدرويش محمد احمد الذى اعلن انه هو المهدى (المنتظر) هب للنضال ضد الغزاة البريطانيين . ففى عام ١٨٨٥ احتل جيش المهدى الخرطوم . وقتل الحاكم البريطانى فى السودان الجنرال غوردون الذى «اشتهر» قبل ذلك بابادة عشرات الالاف من الصينيين ابان «حروب الافيون» وانتفاضة تايبين . وطوال ١٥ عاما استمرت الدولة السودانية المستقلة القوية برئاسة المهدى وخليفته عبد الله .

وقد وجه دحر القوات البريطانية وتأسيس الدولة السودانية المستقلة ضربة شديدة الى سمعة المستعمرين البريطانيين فى افريقيا والشرق الاوسط . ولذلك استعدوا بكل دقة طوال ١٥ عاما لدحر المهديين وفرض سيطرتهم على البلاد . علما بانهم وضعوا خطة غزو السودان بواسطة القوات المصرية وعلى حساب الخزينة المصرية . وعلى هذا النحو كان المستعمرون البريطانيون يأملون بتحقيق عدة اهداف ــ تحاشى شجب الرأى العام العالمى التقدمى رسميا لحرب الغزو ، وتأزيم العلاقات ليس فقط بين المصريين والسودانيين ، بل وبين العرب والسكان الزنوج فى جنوب السودان ، وتعميق التناقضات بين مصر واثيوبيا ، وبعبارة اخرى كانوا يستهدفون مرة اخرى تطبيق المبدأ القديم ، الا وهو «فرق تسد» .

وفى عام ١٨٩٨ اندحرت القوات السودانية الباسلة فى معركة ام درمان . ففى هذه المعركة الدامية استخدم المستعمرون البريطانيون الرشاشات لاول مرة فى التاريخ ، فاطلقوا الرصاص على الالاف من الناس الابرياء . ودنس الغزاة ضريح المهدى الذى

تمجده الملايين من المسلمين داخل السودان وخارجها ، ونثروا رفاته ادراج الرياح . وبنتيجة استخدام احدث الآليات الحربية لم يفقد البريطانيون غير ٤٨ قتيلا . الا ان الجانب المالى من القضية حظى باعجاب خاص لدى اسياد بورصة لندن . فان الحملة على السودان كلفت ٢٣٥٤٠٠٠ جنيه استرليني لم تدفع الخزينة البريطانية منها الا ٨٠٠ الف جنيه ، اما المبلغ الباقى فقد دفعته الخزينة المصرية . وليس عجبا ان نظم استقبال حافل فى لندن للجنرال كيتشنر الذى قهر المهديين . واصبح هذا الجنرال يلقب باللورد كيتشنر الخرطومى ، وتلقى شكرا رسميا من كلا مجلسى البرلمان البريطانى ومنح الصليب الكبير لوسام بانى و٣٠ الف جنيه .

الا ان المستعمرين البريطانيين لم يكتفوا بدحر المهديين . ففى خريف ١٨٩٨ قلقت لندن اشد القلق من الانباء التى افادت ان فصيلا فرنسيا بقيادة الكابتن مارشان قطع افريقيا من الغرب الى الشرق ووصل الى اعالى النيل . وصدر الامر الى قوات كيتشنر ان تتحرك نحو الجنوب فورا . وتلاقت قوات كلتا الدولتين الاستعماريتين فى فاشودة باعالى النيل . وبلغت العلاقات الانكلوفرنسية اقصى حد من التوتر . وكتب لينين فى الجدول الذى وضعه «لاهم الازمات فى السياسة الدولية للدول الكبرى بعد ١٨٧٠ــ١٨٧١» يقول : «بريطانيا على شفا الحرب مع فرنسا (فاشودة) (٣٣) .

الا ان الامبرياليين الفرنسيين اضطروا الى الاستسلام للانجليز . وغادر فصيل مارشان اراضى السودان . وفى ٢١ اذار (مارس) ١٨٩٩ وقعت المعاهدة الانكلوفرنسية التى اعترفت فرنسا بموجبها رسميا بحقوق بريطانيا المطلقة فى وادى النيل باسره ، واعترفت بريطانيا بحقوق فرنسا فى قسم من افريقيا الوسطى وفى القسم

الاكبر من غربى افريقيا . وفى هذه المرة دفع المستعمرون البريطانيون ثمن احتلال الاراضى العربية الى مزاحميهم الفرنسيين باراضى وشعوب افريقيا .

وفى عام ١٨٩٩ (١٩ كانون الثانى - يناير و١٠ تموز - يوليو) وقعت اتفاقيتان بشان ما سمى بالحكم الثنائى البريطانى المصرى فى السودان . ويختلف هذا الحكم عن الادارة الاستعمارية المباشرة فى ان نفقات حكم السودان تكبدتها مصر ، بينما كانت الموارد تتقاطر على الخزينة البريطانية وعلى الخزائن الواسعة لدى الاحتكارات البريطانية التى حولت مصر ، والسودان خصوصا ، الى المصدر الرئيسى للحصول على القطن الرفيع التيلة . وكانت اقامة الحكم الثنائى قد ازمت العلاقات بين مصر والسودان وقدمت للمستعمرين البريطانيين «حججا» اضافية لادارة كلا البلدين عمليا تحت ستار الحفاظ على الحكم الثنائى فى بادئ الامر ، ثم تحت ستار «تسوية العلاقات المصرية السودانية» . ولم يتخلص الشعب السوادنى من براثن المستعمرين البريطانيين ويكتسب حريته الا فى كانون الثانى (يناير) ١٩٥٦ . الا ان البذور المسمومة التى زرعها المستعمرون استمرت حتى بعد ذلك تسمم العلاقات بين مصر والسودان ، كما بين سكان شمال السودان وجنوبه .

وفى مستهل القرن العشرين اشتد كثيرا استغلال مصر اقتصاديا من قبل الامبريالية البريطانية . فقد بلغ الحجم الاجمالى للتوظيفات البريطانية فى مصر زهاء ٥٠ مليون جنيه . وللمقارنة نقول ان مبلغ الرساميل البريطانية الموظفة فى تركيا خلال تلك الفترة كان يعادل ١٨,٣ مليون جنيه ، وفى الصين ٢٦,٨ مليون جنيه . وبلغ الحجم الاجمالى «للجزية» الاستعمارية التى كانت الامبريالية البريطانية تبتزها من مصر ٦-٧ ملايين جنيه سنويا (٣٤) .

وفى الوقت ذاته استخدمت الاوساط الحاكمة البريطانية مصر كرأس جسر لتوسيع نفوذها وتعزيز مواقعها ليس فى السودان وشمال شرقى افريقيا فحسب ، بل وفى شبه الجزيرة العربية ايضا . ففى ايلول (سبتمبر) ١٨٩١ كتب رئيس وزراء بريطانيا سولزبرى الى وايت السفير البريطانى فى القسطنطينية يقول : «ان جزيرة العرب هى كابوس احلام السلطان ونقطة الضعف فى درعه ، ففى ساعة ما من الليل او النهار يمكن ان يظهر فى الجزيرة العربية بالذات امام المؤمنين المعارض له» (٣٥) (اى الخليفة ــ **ملاحظة المؤلف**) . وفى ١٨٩٢ اعلن مختار باشا المندوب العثمانى فى مصر الى القنصل العام الروسى كوياندير ان القسطنطينية قلقة جدا من الخطط البريطانية الرامية الى تاسيس دولة عربية فى الحجاز والمناطق المتاخمة لها (٣٦) . وكانت الدبلوماسية الفرنسية تخشى من ذلك ايضا . وكتب كامبون السفير الفرنسى فى القسطنطينية فى تقريره الى باريس بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) ١٨٩٣ قائلا : «عبد الحميد لا يفهم ان تمديد احتلال مصر يؤدى الى الحماية البريطانية ، الى الالحاق ، الى تجزئة الامبراطورية ، والى استبدال الاستانة بالخلافة العربية عاجلا ام آجلا» (٣٧) .

وفى اواخر ١٨٩٤ واوائل ١٨٩٥ ارغب نشاط عملاء بريطانيا الذين تسربوا الى الحجاز من مصر عبد الحميد الى درجة جعلته يطالب مختار باشا بتقرير ضاف مع تقديم مقترحات بشأن الاجراءات المضادة العاجلة . وفضلا عن ذلك طلب عبد الحميد بالحاح من السفير الروسى نيليدوف بان يحصل على المعلومات اللازمة من كوياندير . واتضح ان الدبلوماسية البريطانية كانت تمارس اعداد اجراءات جدية تستهدف ، كما كتب نيليدوف الى بطرسبورغ فى ايار (مايو) ١٨٩٥ ، ضم الحجاز الى مصر

و«تاسيس خلافة مصرية تواجه تركيا» (٣٨) . وعلى ضوء هذه الحقائق يصبح اكثر وضوحا رأى سولزبرى المذكور اعلاه بشان امكانية تاسيس خلافة جديدة فى شبه الجزيرة العربية . وبغض النظر عن الامكانية الفعلية لتاسيس خلافة مصرية فان هذه الفكرة بذاتها كانت سلاحا فعالا فى ايدى الدبلوماسية البريطانية الساعية الى احراز مختلف التنازلات من عبد الحميد والباب العالى .

وهكذا كانت لمصر اهمية اقتصادية وستراتيجية وسياسية هائلة بالنسبة للامبريالية البريطانية . وكانت الاوساط الاستعمارية البريطانية المرتبطة اوثق ارتباط مع شركات النقل الكبرى والبنوك والاتحادات الاحتكارية الاخرى تعتبر مصر اساسا لتشكيل امبراطورية فى افريقيا والشرق الاوسط من طراز «الهند العربية» . ولذلك بالذات جرى توظيف ملايين جديدة متزايدة فى مصر ، ووسعت القواعد العسكرية بصورة محمومة فى قبرص والاسكندرية ومنطقة قناة السويس ، وزيد تعداد القوات البريطانية المرابطة فى مصر والسودان وتضاعفت قوة الاسطول البريطانى فى البحر الابيض المتوسط . وكان على القاهرة بالذات ان تصبح المحطة المركزية لاكبر سكة حديد فى العالم هى سكة حديد كابشتات (كابتاون) ــ القاهرة ــ كلكتا التى كان ينبغى ان تصبح ، حسب تقديرات لندن ، حلقة فولاذية تطوق الامبراطورية الافريقية الآسيوية التابعة للامبريالية البريطانية .

وبالرغم من مطالب الرأى العام المصرى المتزايدة وتذكير الباب العالى دوما وضغط فرنسا وروسيا اللتين سعيتا الى وقف الاحتلال البريطانى «المؤقت» لمصر ، وبالرغم من التصريحات العديدة الصادرة عن رؤساء الوزارات البريطانية ووزراء خارجية بريطانيا فى البرلمان والقائلة بان بريطانيا تستعد لسحب قواتها من مصر ،

لم تكن الامبريالية البريطانية تنوى مغادرة هذه البلاد ابدا . ففى شباط (فبراير) ١٨٩٢ اعلن اللورد كرومر بوقاحة لزميله الفرنسي ريفيرسو فى القاهرة : «انت على خطأ مبين اذا كنت تتصور او تأمل بان قواتنا ستنسحب من مصر فى زمن ما . باستطاعتى ان اؤكد لك ان ذلك لن يكون . لقد قدمت هنا خدمات جلى لحكومتى ، فلا يمكنها ان تتجاهل آرائى . وان الرأى العام فى بريطانيا والبرلمان الى جانبى ، وانا اؤكد لك بانى لن اسمح بالجلاء ابدا . واذا اراد غلادستون بعد دخول الوزارة ان يحل المسألة المصرية خلافا لآرائى فسوف استقيل بضجة تجعل الرأى العام يستاء وتضطر غلادستون الى التراجع . اما بخصوص الوعود التى قدمناها نحن على رؤوس الاشهاد واشرت اليها انت فان الظروف قد تبدلت مذ ذاك وان مصالح بريطانيا تتطلب وجود قواتها العسكرية حتما فى وادى النيل» (٣٩) .

وقد تكلم القنصل البريطانى العام فى القاهرة بهذه اللهجة الشديدة لانه كان يمثل فى وادى النيل ليس فقط وزارة الخارجية البريطانية ، بل واكبر الشركات المصرفية فى بريطانيا وعلى رأسها بنك روتشيلد الذى كان يسيطر على مناجم الذهب والماس فى جنوب افريقيا ويسعى الى توحيد هاتين المنطقتين من النفوذ البريطانى فى امبراطورية افريقية موحدة تابعة لبريطانيا العظمى . وبعد نصف عام من تصريح كرومر الشديد اللهجة هذا جرى فى بريطانيا — فى آب (اغسطس) ١٨٩٢ — التبديل الوزارى الدورى وتسلمت السلطة حكومة لبرالية كان رئيسها غلادستون قد اعرب مرارا عن نيته الثابتة فى سحب القوات من مصر . الا ان ماركس نعت غلادستون «بالمرائى والمتملص الماكر» . وليس ذلك من قبيل الصدفة . فقد اوكل غلادستون منصب وزير الخارجية الى اللورد روزبرى الذى

قدم شرطا قاطعا لاشتراكه فى الوزارة هو ، كما اتضح بعد سنين عديدة ، التخلى كليا عن الجلاء عن مصر (٤٠) . وليس فى ذلك ما يثير الدهشة فان الدوق روزبرى كان زعيمـــا للامبرياليين الليبراليين وكان الى جانب ذلك صهرا لناثانيل روتشيلد ، وليس هذا الامر الاخير باقل اهمية .

خطط تجزئة الامبراطورية العثمانية والاستيلاء على العالم العربى

وسعت الامبريالية البريطانية رأس الجسر المصرى فى الشرق الاوسط الى اقصى حد واخذت تعلق آمالها منذ اوائل تسعينات القرن التاسع عشر على تجزئة الامبراطورية العثمانية والاستيلاء على اغلبية الاراضى العربية الداخلة ضمنها . وكان مبعث ذلـك جملة من الاسباب الاقتصادية والستراتيجية والسياسية .

فحتى عام ١٨٩١ كانت الخطط البريطانية السرية للعمليـات الحربية ضد روسيا تنص على توجيه الضربة الاساسية من قبـل فيلق الحملات البريطانية فى حالة نشوب الحرب الانكلوروسية . وكان على الاسطول البريطانى ان ينقل هذا الفيلق عبر البوسفور الى سواحل القفقاس على البحر الاسود . وكلف الفيلق بقطع خطوط المواصلات الروسية فى آسيا ومساعدة انتفاضة شعوب القفقاس الاسلامية ضد السيطرة الروسية (٤١) . ولذلك بالـذات كان اساس السياسة الشرقية لجميع الحكومات البريطانية طوال القسم الاكبر من القرن التاسع عشر هو ابقاء السيطرة البريطانية على شرقى البحر الابيض المتوسط وعلى البوسفور والدردنيل ، وابقاء السيطرة على المواصلات البرية مع الهند فى ايدى السلطان العثمانى المعتمد على الدبلوماسية البريطانية . وكان ذلـك هو مكنـون نضـال

بريطانيا فى سبيل وحدة اراضى الامبراطورية العثمانية ، والمغزى الحقيقى للشعار القائل بان الدفاع عن الهند يبدأ من القسطنطينية .

الا ان الوضع تغير بصورة جذرية حتى اوائل التسعينات . فان احتلال قبرص ومصر والتوسع فى الخليج العربى وجنوب شبه جزيرة العرب قد اديا الى تأزم العلاقات البريطانية التركية .

ومن العوامل التى ساعدت على حدوث تغير جدى فى الموقف العسكرى والسياسى فى حوض البحر الابيض المتوسط والشرق الاوسط تأزم العلاقات البريطانية الفرنسية الى درجة كبيرة . ولم يكن من قبيل الصدفة ان تازم هذه العلاقات قد وافق تكوين التحالف الفرنسى الروسى الذى جعل من المستحيل عبور الاسطول البريطانى مضيقى الدردنيل والبوسفور الى البحر الاسود .

واذا اضفنا الى ذلك ان السلطان والقوات المسلحة التركية اخذت تتعرض بدرجة متزايدة لنفوذ الامبرياليين الالمان ـ الد اعداء بريطانيا ، يصبح مفهوما تحول السياسة البريطانية فى الشرق الاوسط .

وفى عام ١٨٩٥ خلال وجود امبراطور المانيا غليوم الثانى فى بريطانيا اقترح رئيس وزراء بريطانيا سولزبرى بصراحة الاتفاق بشأن اقتسام الامبراطورية العثمانية بحيث تسيطر روسيا على منطقة المضيقين وتسيطر ايطاليا على البانيا ومناطق شبه جزيرة البلقان المتاخمة لها والتى كانت آنذاك جزءا من الامبراطورية العثمانية . اما بريطانيا فقد اعربت بتواضع عن رغبتها فى الاعتراف بسيطرتها التامة على مصر وتسليمها العراق وشبه الجزيرة العربية (٤٢) .

وقد رفضت الدبلوماسية الالمانية الاقتراح البريطانى خشية ان يكون خطوة استفزازية من الدبلوماسية البريطانية تستهدف

تشديد التناقضات الروسية الالمانية والفرنسيـــة الالمانيـــة ، والاساءة الى سمعة المانيا فى انظار السلطان .

وعند ذاك بدأت الدبلوماسية البريطانية من الطرف الثـــانى . ففى ايلول (سبتمبر) ١٨٩٦ اقترح سولزبرى على القيصر الروسى نيكولاى الثانى الذى زار بريطانيا آنذاك تقسيم الامبراطوريـــة العثمانية بحيث تسيطر روسيا على المضيقين وتسيطر بريطانيا على اغلبية البلدان العربية (٤٣) . وقد رفضت الحكومـــة الروسية هذا الاقتراح . ولم يكن السبب يكمن فقط فى الشكوك المتأصلـــة ازاء «ألبيون الغدار» (ألبيون ــ اسم بريطانيا القديم ــ **المترجم**) . فقد اوضح وزير خارجية روسيا لوبانوف-روستوفسكـــى موقف حكومته ازاء هذه المسألة للسفير الالمانى فى فيينـــا ايلنبورغ المقرب الى غليوم الثانى ، واعلن قائلا : «ان عقدة جميع الصعوبات الشرقية قائمة فى مصر عند قناة السويس» . واكد لوبانـــوف-روستوفسكى اهتمام روسيا فى عمل القناة الطبيعى واشار الى ان بطرسبورغ لن توافق ابدا على وجود القوات البريطانية دوما فى مصر (٤٤) .

ومع ذلك امر سولزبرى السفير البريطانى فى بطرسبـــورغ اوكونور فى كانون الثانى ــ شباط (يناير ــ فبراير) ١٨٩٨ بان يبدأ المفاوضات رسميا مع روسيا حول اقتســـام الامبراطوريـــة العثمانية . وبعد ان اعترف سولزبرى بان منطقة النفوذ الروسى هى «البحر الاسود مع السواحل القريبة المتاخمة له ومضيق البوسفور مع مخرج الى بحر ايجه» اكد بان بريطانيا من جانبها ستطالب «بافريقيا العثمانية وشبه الجزيرة العربية ووادى الفرات جنوبى بغداد» (٤٥) . وهكذا سعت بريطانيا الى الاستيلاء على البلدان العربية مهما كلف الامر . ان الحكومة البريطانية التى اعلنت مرارا

عن سعيها الثابت الى الحفاظ على وحدة اراضى الامبراطورية العثمانية واعتبرت هذا الامر السبب الرئيسى فى دخولها حرب القرم ضد روسيا والتزمت بالدفاع عن تركيا ضد التوسع الروسى عندما تسلمت جزيرة قبرص طبقا للاتفاقية الانكلوتركية فى ٤ حزيران (يونيو)١٨٧٨ ـ ان هذه الحكومة قد قدمت بكل طيبة خاطر الى الحكومة القيصرية عاصمة الامبراطورية العثمانية وآسيا الصغرى بأجمعها ! وبما ان الدبلوماسية القيصرية لم توافق على ذلك اقترح سولزبرى توسيع المعاهدة الانكلوروسية وادراج تقسيم الامبراطورية العثمانية بل والصين ايضا فيها . الا ان موقف الدبلوماسية القيصرية ظل على حاله .

يتميز مشروع سولزبرى لتجزئة الامبراطورية العثمانية والذى نص على احتلال المناطق العربية وتسليم القسطنطينية والمضيقين وآسيا الصغرى الى روسيا القيصرية بأهمية كبيرة من الناحيتين العلمية والسياسة . وليس من قبيل الصدفة ان المجلد الاول من النشريات الدبلوماسية البريطانية قد القى اضواء باهتة للغاية على هذا المشروع الذى لم يحصل فى الواقع على التقييم اللازم فى البحوث العلمية . ومما له دلالته ان ملفات الوثائق الخاصة بذلك فى ارشيف الدولة فى بريطانيا لا تسلم الى القراء والباحثين بحجة ان هذه «الوثائق معطبة بسبب سوء الصيانة» . ولذلك اضطر كاتب هذه الحروف الى الاكتفاء بوثائق ارشيف السياسة الخارجية الروسية ، وهى وثائق قيمة ليس فقط باحتوائها على الوثائق الروسية ومذكرات السفير البريطانى فى بطرسبورغ اوكونور ، بل وبوجود المراسلات بين سولزبرى واوكونور بعد ان فك رموزها القسم الخاص لدى وزارة خارجية روسيا القيصرية . إن مشروع سولزبرى يدحض الرأى السائد فى

البحوث الغربية والقائل بان القوة المحركة للسياسة الشرقية لدى روسيا القيصرية هى رغبتها بالاستيلاء على المضيقين والقسطنطينية مهما كلف الامر . فقد اتضح ان الامبرياليين البريطانيين هم الاعداء الرئيسيون لوحدة اراضى تركيا .

فبعد ان تلقى الامبرياليون البريطانيون رفضا من برلين وبطرسبورغ قرروا الاتفاق مع منافسيهم الفرنسيين . وبما ان الرأسمال الفرنسى كان لا يزال يشغل مواقع قوية جدا فى اقتصاد مصر وفى ادارة الشركة العامة لقناة السويس ، وبما ان الامبريالية تسعى الى الاحتكار كما هو معروف ، فقد اقترحت الاوساط الحاكمة البريطانية على فرنسا فى عام ١٩٠٤ تقسيما نهائيا لمناطق النفوذ فى المناطق العربية من افريقيا . وفى ٤ ابريل (نيسان) ١٩٠٤ تم توقيع الاتفاقية الانكلوفرنسية بصدد تبادل مصر غير العائدة لفرنسا بالمغرب غير العائدة لبريطانيا . وكانت فرنسا التى اضعفتها واقعة فاشودة وتسلمت تعويضا كبيرا فى شمال غربى افريقيا قد وافقت نهائيا على الاعتراف بان مصر منطقة نفوذ محتكرة لبريطانيا . ولقد ذكرنا سابقا ان بريطانيا وافقت فى ١٨٧٨ ـ ١٨٨١ على احتلال فرنسا لتونس لقاء موافقة فرنسا على احتلال بريطانيا لمصر . ودفعت بريطانيا ثمن الاحتلال النهائى لمصر عن طريق «تسليم» المغرب الى فرنسا . وهكذا اصبحت الشعوب العربية المستعبدة اساسا انشأ عليه الامبرياليون البريطانيون والفرنسيون كيان «الوفاق» الذى كانوا بأمس الحاجة اليه لمكافحة الامبريالية الالمانية بعد ان اصبحت عند مستهل القرن العشرين المنافس الرئيسى لهم .

الا ان الدور الذى اعده المستعمرون لشعوب البلدان العربية لم يقتصر على ذلك . فالامبرياليون الالمان الذين سعوا الى تشكيل حلف

عسكرى ضد فرنسا وروسيا استطاعوا فى ايار (مايو) ١٨٨٢ ان يوقعوا معاهدة تحالف مع النمسا-المجر وايطاليا . وهكذا ظهر الحلف الثلاثي الذى لعب دورا غير ضئيل فى نشوب الحرب العالمية الاولى . وكان من الاسباب الاساسية التى دفعت الاوساط الحاكمة الايطالية الى الانضمام الى هذا التحالف ، بالرغم من التناقضات الحادة بينها وبين النمسا-المجر ، تذمر المستعمريـــن الايطاليين الشديد من الاحتلال الفرنسى لتونس . وفى عام ١٨٩١ ، لـــدى تمديد المعاهدة الثلاثية للمرة الثالثة ادرج فيها بند خاص (هـو البند التاسع) نص على عدم الاعتراف بهذا الاحتلال وعلى اتخـاذ جميع الاجراءات لابقاء الوضع القائم فى برقة وطرابلس الغـرب الداخلتين ضمن الامبراطورية العثمانية . وبعد ان فقد المستعمرون الايطاليون الامل فى احتلال تونس صاروا يسعـــون الى تأمـــين احتفاظهم بهاتين المنطقتين على الاقل . وتفهمت لنـــدن وباريس هذا الامر تفهما جيدا حيث ظهرت فى اواخر القرن التاسع عشر فكرة انتزاع ايطاليا من الحلف الثلاثي عن طريق وعدهـــا بـ ... برقة وطرابلس الغرب . ونتيجة للمفاوضات الفرنسية الايطالية السرية الطويلة الامد تم الاتفاق على ان تعترف ايطاليا باحتـــلال فرنسا لتونس ، وفيما بعد ، نتيجة لتبادل المذكرات بين فرنسا وايطاليا فى ١٤ـ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ و١ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٠٢ تم الاتفاق على ان تعترف ايطاليا بالحقوق الفرنسية فى المغرب لقاء اعتراف فرنسا بالحقوق الايطاليـــة فى طرابلس الغرب . وفضلا عن ذلك التزمت الحكومة الايطالية سرا بعدم المشاركة فى الصدام الحربى فيما لو حدث بين الحلف الثلاثى وفرنسا . وفى ١٢ اذار (مارس) ١٩٠٢ حدث تبادل مماثـــل لمذكرتين بين بريطانيا وايطاليا (٤٦) . وهكذا قدمت الاوساط

الحاكمة البريطانية والفرنسية الى ايطاليا طرابلس الغرب ثمنا لانفصالها فى الواقع عن الحلف الثلاثى .

ولم يمنع ذلك كله الامبريالية الايطالية التى سترت مفاوضاتها السرية مع بريطانيا وفرنسا من ان توقع فى حزيران (يونيو) ١٩٠٢ للمرة الرابعة معاهدة تمديد الحلف الثلاثى !

ورد الامبرياليون البريطانيون بدورهم ردا مماثلا . فبعد ان وافقوا شكليا على تسليم ولاية طرابلس الغرب التابعة للامبراطورية العثمانية الى ايطاليا فى المستقبل ، اخذ الدبلوماسيون ورجال المخابرات البريطانيون اعتبارا من عام ١٩٠١ يستعدون لالحاق قسم كبير من برقة ، بما فيه واحتا جيرابوب وكفرا الهامتان من الناحية الاقتصادية والستراتيجية الى مستعمراتهم المصرية . وتنص مذكرة فورستيه ـ ووكر ، وهو احد قادة المخابرات البريطانية ، بتاريخ ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٠٢ على اقتطاع مساحة ٢٥٠ الف ميل مربع من اراضى برقة . وفى عام ١٩٠٤ ، بعد عامين من تبادل المذكرتين بين بريطانيا وايطاليا حيث جرى الاعتراف بان ولاية طرابلس الغرب (وبرقة كما تصور الايطاليون) هى منطقة للنفوذ الايطالى ، عمل كرومر وقادة القوات المسلحة البريطانية بنشاط فى التحضير لانتزاع برقة . وانشئت على طول الحدود المعاقل ومستودعات السلاح وشقت سكة حديدية ضيقة (٤٧) .

وفى الوضع الدولى الذى تغير قبيل الحرب العالمية الاولى احتل الامبرياليون الايطاليون طرابلس الغرب وبرقة بعد ان دحروا القوات المسلحة التركية عام ١٩١١ وحولوا هاتين المنطقتين الى مستعمرة ايطالية هى ليبيا . وساعد ذلك الامبريالية الايطالية على اثر بداية الحرب العالمية الاولى فى عدم تنفيذ التزاماتها حسب الحلف الثلاثى ، بل وفى الانضمام الى دول الوفاق عام ١٩١٥

والمساهمة فى العمليات الحربية ضد حليفتيها . وهكذا لعبت الشعوب العربية فى شمال افريقيا ، بما فيها طرابلس الغرب وبرقة ، دور عملة الصرف فى المساومة المعقدة الطويلة الامد التى اجرتها دول الحلف الثلاثى ودول الوفاق عشية الحرب العالمية الاولى .

والى جانب تعزيز مواقع بريطانيا فى شرقى البحر الابيض المتوسط ، استمر المستعمرون البريطانيون فى ممارسة سياسة هجومية فى شرقى العالم العربى ، اى فى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى .

تحويل الخليج العربى الى «بحيرة بريطانية»

عند اواخر ستينات القرن التاسع عشر سيطر المستعمرون البريطانيون على سلطنة مسقط وحولوا ساحل الصلح الى محمية فجزأوا دولة عمان القديمة الى ثلاثة اجزاء . ونتيجة لمعاهدتى ١٨٦١ و١٨٦٨ اقيم نظام الحماية فى الواقع فى جزر البحرين وقسم من شبه جزيرة قطر . الا ان القوات التركية بقيادة مدحت باشا احتلت فى عامى ١٨٧٠-١٨٧١ منطقة الساحل الغربى للخليج العربى الممتدة من الكويت حتى ساحل الصلح . وظهرت حامية تركية فى الدوحة ، المدينة الرئيسية فى قطر . وانتقل المستعمرون البريطانيون الى الهجوم المضاد على الفور . وبعث المقيم البريطانى فى الخليج العربى العقيد بيلى المطلع جيدا على الميول المعادية لروسيا لدى الاوساط الحاكمة البريطانية تقريرا الى كلكتا ولندن حاول ان يثبت فيه ان التوسع التركى فى الخليج العربى هو نتيجة للتواطؤ بين تركيا وروسيا ولذلك فهو يشكل خطرا شديدا على بريطانيا (٤٨) . وبدأ العملاء البريطانيون

يدبرون الصدامات بين قطر والبحرين ، بين ابو ظبى (من امارات ساحل الصلح) وقطر ، فزادوا من حدة التوتر فى هذه المنطقة . وفى ايار (مايو) ١٨٧٩ وضع اللورد ليتون ، نائب الملك فى الهند ، برنامجا واسعا لزيادة النفوذ البريطانى فى الخليج العربى الى اقصى حد . فقد اقترح تحويل جميع امارات الخليج العربى جنوبى الكويت الى توابع للامبراطورية البريطانية والزامها بدفع جزية سنوية (٤٩) . ومما له دلالته ان هذا البرنامج قد وضع بعد سيطرة بريطانيا على قناة السويس واحتلال قبرص وفى فترة اشتداد التحضير لاحتلال مصر . وهكذا كان ذلك كله جزءا من خطة الاوساط الاستعمارية البريطانية الرامية الى تحويل العالم العربى باسره الى محمية بريطانية .

الا ان الوضع الدولى وتفاقم التناقضات الانكلوفرنسية والانكلوروسية اضطر الدبلوماسية البريطانية الى التمسك بالحذر . ولذلك فبدلا من التطبيق الفورى لبرنامج ليتون بدأ الزحف التدريجى من ساحل الصلح وجزر البحرين الى قطر بغية نسف المواقع العثمانية هناك واستعادة النفوذ البريطانى . ونتيجة لدسائس البريطانيين حدثت فى اعوام ١٨٨٣ ـ ١٨٨٩ اشتباكات طاحنة بين فصائل حاكم قطر وشيخ ابو ظبى . وايد المستعمرون البريطانيون شيخ ابو ظبى الى اقصى حد فمارسوا فى الوقت ذاته ضغطا شديدا على القسطنطينية بغية الحيلولة دون تقديم المساعدة التركية الى حاكم قطر . وفى عام ١٨٩٥ دبر العملاء البريطانيون صداما خطيرا بين قطر والبحرين . فالتزمت العمارة البريطانية جانب البحرين فيما بعد وقصفت السواحل الشرقية فى قطر وحطمت جميع القوارب والشخاتير العائدة للسكان المحليين والتى كانوا يستخدمونها فى صيد السمك واللؤلؤ . وبما ان ذلك كان المصدر

الوحيد لمعيشة القسم الغالب من سكان شبه الجزيرة فقد حكم عليهم فى الواقع بالموت جوعا . وكانت اعمال الغزاة البريطانيين هذه قد تركت فى النفوس اثرا عميقا حتى ان السلطان عبد الحميد افرد لادانتها وشجبها بعد سنين عديدة فصلا خاصا بعنوان «وحشية الانجليز» فى كتابه «تأملات وذكريات» (٥٠) . وادت احداث ١٨٩٥ الى اضعاف المواقع التركية فى قطر وتعزز المواقع البريطانية لدرجة كبيرة . فمنذ ذلك الحين بالذات صار شيوخ قطر وكذلك حكام امارات ساحل الصلح وجزر البحرين يتحولون على نحو متزايد الوضوح الى منفذين طيعين لارادة المقيم البريطانى فى الخليج العربى .

وقد اشرنا الى ان التغلغل البريطانى فى الخليج العربى بدأ بتوقيع المعاهدة بين بريطانيا ومسقط فى ١٧٩٨ . ومنذ ذلك الحين تعززت مواقع المستعمرين البريطانيين فى سلطنة مسقط الى درجة كبيرة . واستخدم المستعمرون البريطانيون على نطاق واسع اسطول مسقط وقواعدها ونفوذها للتغلغل الى منطقة ساحل الصلح وجزر البحرين . وبذل المستعمرون البريطانيون فى الوقت ذاته قصارى جهدهم لفصل ساحل الصلح ومسقط نهائيا عن امامة عمان .

وكانت سلطنة مسقط تتميز بأهمية كبيرة للمستعمرين البريطانيين لانها ، فضلا عن ذلك ، تمتلك جزيرتى زنجبار وبيمبا ومساحات شاسعة من اراضى شرقى افريقيا . ولذلك كانت السيطرة على مسقط تهيئ لبريطانيا امكانيات واسعة للتغلغل الى اعالى النيل ولتعزيز النفوذ البريطانى فى القسم الشرقى من البحر الاحمر . الا ان تقوية سلطنة مسقط عند اواسط القرن التاسع عشر كانت تتعارض ومصالح المستعمرين البريطانيين . ولذلك ففى عام

١٨٥٦ ، بعد وفاة السلطان سعيد ، تدخلت السلطات البريطانية في خلاف اسرة السلطان بسبب العرش . وفي عام ١٨٦١ فرض نائب الملك البريطاني كانينغ وساطته للتحكيم بين المتنازعين على العرش ، وبنتيجة هذا التحكيم قسمت سلطنة مسقط الى دولتين ــ سلطنة زنجبار وسلطنة مسقط . والتزم سلطان زنجبار بان يدفع الى مسقط على الدوام ٨٦ الف روبية سنويا بشكل تعويض عن الاستقلال الذى فاز به . الا ان زنجبار توقفت عن دفع التعويضات بسبب الصراع الدموى الذى نشب بين افراد الحاشية في سلطنة مسقط في ١٨٦٨ ــ ١٨٧١ .

وفي عام ١٨٧٣ ، بعد ان تسلم مقاليد الحكم في مسقط السلطان تركي صنيعة المستعمرين البريطانيين ، صارت السلطات البريطانية الهندية تدفع التعويضات من اموالها الخاصة . وهكذا صارت الاموال المكدسة من الاستغلال البشع للشعب الهندى تحول الى صنيعة المستعمرين البريطانيين في مسقط لتوسيع مجال السيطرة الاستعمارية البريطانية الى اقصى حد في شبه الجزيرة العربية وفي حوض الخليج العربي .

وفي ٢٠ اذار (مارس) ١٨٩١ وقعت المعاهدة السرية بين بريطانيا ومسقط ، وهي المعاهدة التي حولت السلطنة حقوقيا الى محمية بريطانية . ومما له دلالته ان حاكم السلطنة قد نعت لاول مرة في هذه المعاهدة «بسلطان مسقط وعمان» . واستمرت هذه المعاهدة حتى عام ١٩٥٨ ، حيث استبدلت باتفاقية جديدة ، سرية ايضا ، وضعت تحت تصرف الامبرياليين البريطانيين جزيرة مصيرة ذات الاهمية الفائقة من الناحية الستراتيجية .

ونتيجة لاستعباد مسقط وساحل الصلح وجزر البحرين وقطر وما رافق ذلك من زحف مستمر الى اعماق الخليج العربي وتعزيز

للمواقع البريطانية الاقتصادية والسياسية فى جنوب العراق ووسطه اطبق الطوق بالتدريج حول اهم منطقة فى الخليج العربى ـ مشيخة الكويت ومركزها مدينة الكويت التى كانت الميناء الرئيسى فى القسم الشرقى من شبه الجزيرة العربية .

وفى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ازدادت الاهمية الستراتيجية للكويت بصورة خاصة ، وذلك لان الامبرياليين الالمان الذين اخضعوا تركيا لنفوذهم العسكرى والسياسى حاولوا تحويل الكويت الى محطة اخيرة فى سكة حديد بغداد الشهيرة التى كان يتعين عليها ان تعزز مواقعهم فى الشرقين الاوسط والادنى وان تساعد فى استعباد تركيا نهائيا وفى تحشيد الفرق الالمانية عند الضرورة على المشارف البعيدة لجوهرة التاج البريطانى ـ الهند . ولذلك استخدمت السلطات الاستعمارية البريطانية فى الخليج العربى على نطاق واسع فى اواخر القرن التاسع عشر سياسة اللين والشدة ، ودبرت الصدامات بين الكويت والقبائل العربية المجاورة له ، وحاولت تخويف حاكم الكويت الشيخ مبارك بالخطر التركى وبخطط وهمية زعمت بان روسيا القيصرية تعدها لاخضاع مشيخة الكويت . وكان الهدف من ذلك كله فرض معاهدة جائرة على مبارك ، وهى المعاهدة التى وقعت فى كانون الثانى (يناير) ١٨٩٩ واغلقت فى وجه الامبريالية الالمانية الباب الى الخليج العربى وحولت الكويت فى الواقع الى محمية بريطانية . وكانت لهذه المعاهدة اهمية ستراتيجية واقتصادية هائلة . فقد جاء فى كتاب «الكارتل البترولى العالمى» الذى نشر عام ١٩٥٢ بتكليف من اللجنة التجارية الاتحادية الاميركية «ان الممهدات السياسية التى ادت الى حيازة «شركة نفط الخليج» ٥٠٪ من الاسهم فى «شركة نفط الكويت» كانت قد ظهرت فى عام ١٨٩٩ عندما وقع شيخ

الكويت مبارك اتفاقية مع المقيم السياسى للحكومة البريطانية فى منطقة الخليج العربى» (٥١) . ويعود النصف الآخر من اسهم «شركة نفط الكويت» الى «شركة النفط البريطانية» ، اى الى الحكومة البريطانية . اذن ، فان الاحتكارات البترولية والاوساط الحاكمة فى بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية لا تزال حتى اليوم تبتز الارباح بالمليارات نتيجة لمعاهدة ١٨٩٩ الانكلوكويتية ، بالرغم من الغاء هذه المعاهدة فى عام ١٩٦١ عندما اعلن الاستقلال التام للكويت .

ان المؤرخين البريطانيين المعاصرين الذين يحاولون تصوير بريطانيا بكل الوسائل بمثابة بلد ينشد خير شعوب البلدان العربية ، بما فيها بلدان الخليج العربى ، لا يزالون يزعمون ان المبادر لعقد معاهدة ١٨٩٩ ليس بريطانيا ، بل شيخ الكويت مبارك الذى كان يبحث عمن يحميه من «الخطر الروسى» . وقد عثر مؤلف هذا الكتاب فى ارشيف السياسة الخارجية الروسية على النسخ الاصلية لثلاث رسائل كان قد وجهها مبارك فى نيسان (ابريل) ١٩٠١ الى كروغلوف القنصل الروسى العام فى بغداد . وتضمنت هذه الرسائل طلبا ملحا الى الحكومة الروسية بان تحمى الكويت من دسائس الانجليز . حتى ان مبارك اقترح رفع العلم الروسى وفق الكويت ! (٥٢) . وهكذا دحضت محاولة اخرى لتشويه الحقائق والتضليل من قبل حماة الامبريالية البريطانية .

وعندما حول الامبريالون البريطانيون الخليج العربى الى « بحيرة بريطانية » فى مستهل القرن العشرين اخذوا فى الوقت ذاته يوسعون ممتلكاتهم ومحمياتهم فى القسم الجنوبى والجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية . ففى اواخر القرن التاسع عشر حاول سلاطين مسقط الذين اصبحوا عملاء للبريطانيين بدرجة كبيرة ان

يوسعوا بكل الطرق ممتلكاتهم على حساب دولة عمان المستقلة . علما بانهم اعتمدوا كليا على المساعدة العسكرية والمالية من بريطانيا . وفى الوقت ذاته سعى سلاطين مسقط بدعم من البريطانيين ، بل وبأمر مباشر من لندن ، الى الحاق ظفار المتاخمة لمحمية عدن . وفى ضوء الحركة التحررية الجبارة التى يخوضها اليوم شعب ظفار ضد سلطان مسقط وعمان وحماته البريطانيين تتسم بأهمية سياسية كبيرة الوثائق التى نشرها رجل المخابرات البريطانى الكبير لوريمير فى «دليل الخليج العربى» الذى ازيح عنه ستار الكتمان والسرية مؤخرا . وتدل الوثائق فى هذا «الدليل» البريطانى على ان ظفار قبل عام ١٨٧٩ كانت تعتبرها حتى السلطان البريطانية جزءا من حضرموت (جزء من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حاليا) وليس من مسقط (٥٣) .

وبعد ان سيطر المستعمرون البريطانيون على قناة السويس ومصر واستولوا على السودان وعززوا مواقعهم بالتالى فى الساحل الغربى للبحر الاحمر ، وانتزعوا ظفار من حضرموت واخضعوها لسلاطين مسقط ، رأوا ان اللحظة الملائمة قد حانت لتوسيع ممتلكاتهم فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، حيث وسعوا شبكة محمياتهم بلا انقطاع بحجة «حماية عدن» طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان المستعمرون البريطانيون فى هذه المنطقة يصطدمون دوما بالغزاة الاتراك الذين احتلوا اليمن منذ ١٨٧١ ورفضوا الاعتراف بحقوق بريطانيا فى جنوب شبه الجزيرة العربية بحجة ان الجنوب ، كما زعموا ، جزء لا يتجزأ من اليمن ، وبالتالى من تركيا . ولم يستطع الامبرياليون البريطانيون ان يرغموا السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى على الموافقة على رسم الحدود بين الممتلكات البريطانية والعثمانية فى شبه الجزيرة العربية ، اى

رسم الحدود الدولية بين اليمن ومحمية عدن الغربية ، الا فى عام ١٩٠٣ ، حيث انتهزوا فرصة اصابة تركيا بضعف شديد وقيام الانتفاضات العديدة آنذاك فى البلقان . وهكذا كونت الامبريالية البريطانية فى مستهل القرن العشرين رأس جسر واسع جدا فى جنوب شبه الجزيرة العربية ايضا . ولم يكتف ساسة لندن واسيادها الماليون بتحويل الخليج العربى الى «بحيرة بريطانية» فصاروا يحلمون بتحويل البحر الاحمر ايضا الى بحيرة مماثلة .

بدأ طمع الاوساط الحاكمة البريطانية فى تحويل الشرق الاوسط الى منطقة محظورة تابعة لها يواجه مقاومة متزايدة من قبل المزاحم الرئيسى لبريطانيا والطامع فى السيطرة على هذه المنطقة ، نعنى الامبريالية الالمانية الفتية الضارية . وكانت لدى بريطانيا والمانيا اهداف متماثلة ـ اقامة السيطرة الاحتكارية على العالم العربى . ولكن طرق بلوغ هذه الاهداف كانت على طرفى نقيض . فالامبريالية البريطانية التى عززت مواقعها فى اطراف الامبراطورية العثمانية كانت تعلق آمالها على تجزئة هذه الامبراطورية المتهرئة والاستيلاء على المناطق العربية الاكثر اهمية من الناحيتين الاقتصادية والستراتيجية . اما الامبريالية الالمانية فكانت ، كما سنبين ادناه ، تأمل بتعزيز سيطرتها على الشرق الاوسط ، ومنه الاقطار العربية ، عن طريق تحويل الامبراطورية التركية الى شبه مستعمرة المانية ، وتقوية نفوذ هذه الامبراطورية الضعيف فى المناطق العربية ـ العراق وشبه الجزيرة العربية ثم السيطرة عليها . ولهذا الغرض بالذات مارست الاحتكارات الالمانية عملا محموما فى مد سكة حديد بغداد وسعت الى الاشراف على القوات المسلحة التركية . واصبح الصراع البريطانى الالمانى من اجل السيطرة على العالم العربى اكثر ضراوة وحدة . وبغية كسب

الحلفاء وقع الامبرياليون البريطانيون ، كما ذكرنا سابقا ، اتفاقية مع فرنسا فى نيسان (ابريل) ١٩٠٤ . وفى آب (اغسطس) ١٩٠٧ وقع الامبرياليون البريطانيون اتفاقية مساومة مع روسيا القيصرية بشأن اقتسام الشرق الاوسط ووسط آسيا بشكل مناطق نفوذ . وطبقا لهذه الاتفاقية اعترفت روسيا القيصرية فى الواقع بسيطرة بريطانيا على الخليج العربى . وهكذا تأسس ائتلاف دول الوفاق .

واصبحت الاحتكارات البريطانية مستعدة للمناوشة الحاسمة مع منافستها المانيا .

وأدى اكتشاف حقول البترول الغنية جدا فى الشرقين الادنى والاوسط ، فى منطقة الموصل (العراق) وميدان نفطون (بلاد فارس) ، الى اشتداد الصراع البريطانى الالمانى الى درجة اكبر . فالتناقضات الامبريالية الانكلوالمانية قد شملت كذلك المنافسة البحرية الشديدة للغاية . فكلا الطرفين كانا يبنيان بصورة محمومة السفن الحربية المتزايدة الاحجام . وبغية زيادة سرعة الاسطول ومدى عملياته بدأ الاميرالات البريطانيون بتحويله الى العمل على الوقود البترولى . وبالتالى فان حقول البترول الجديدة التى اكتشفت فى الشرق الاوسط ، بما فيها بترول الموصل ، قد اصبحت موضع صراع طاحن بين بريطانيا والمانيا ليس فقط لان هذه الحقول كانت تبشر بارباح طائلة ، بل ولانها كانت تستطيع لدرجة كبيرة ان تقرر مآل الصراع بين العملاقين الامبرياليين من اجل السيطرة على العالم ، وذلك لكون هذه الحقول هى المصدر الوحيد (بالاضافة لاميركا وباكو فى روسيا القيصرية) للحصول على البترول .

وفى بادئ الامر استخدمت الاحتكارات الالمانية نفوذها فى استامبول فوضعت يدها على بترول الموصل ، ذلك لان العراق

كان داخلا ضمن الامبراطورية العثمانيـــة . ولكن الامبرياليــة البريطانية اعتمدت بعد ثورة تركيا الفتاة على حليفاتهــا ـ دول الوفاق ـ فشنت هجوما مضادا موفقا . ونتيجة لعدة اتفاقـــات وقعت فى ١٩١١ ـ ١٩١٤ بين بريطانيا والمانيا وتركيا اضطرت الاحتكارات الالمانية الى التخلى عن حلمها بايصال سكة حديـد بغداد الى الكويت واحتكار ملكية بترول الموصل . واضطرت هذه الاحتكارات الى الموافقة على ايصال سكة حديد بغداد الى البصرة فقط . واصبح مد قسم السكة الواقع بين بغداد والبصرة وكذلك الملاحة فى نهر دجلة احتكارا لبريطانيا فى الواقع . ولم يحصـــل الرأسمال الالمانى الا على ٢٥٪ من اسهم «شركة النفط التركية» التى تأسست فى عام ١٩١٢ واحتكرت التنقيب عن البترول العراقى واستخراجه وتصريفه . اما القسم الباقى من الأسهم فقد استولى عليه الرأسمال البريطانى (والبريطانى-الهولندى جزئيا) . وهكـــذا فرض الامبرياليون البريطانيون سيطرتهم على البترول العراقـــى (فى عام ١٩٢٩ استبدل اسم «شركة النفط التركية» «بشركة نفط العراق») . ولم تتم تصفية هذه السيطرة الا فى ١ حزيران (يونيو) ١٩٧٢ حيث اممت الحكومة العراقية «شركـــة نفط العراق» البغيضة لشعوب البلدان العربية .

وفى ٢٩ تموز (يوليو) ١٩١٣ تم توقيـــع الاتفاقيـــة الانكلوتركية بشأن تحديد مناطق النفوذ فى حوض الخليج العربى وشبه الجزيرة العربية . وبناء على هذه الاتفاقية اعترفت تركيا بالسيطرة البريطانية على الخليج العربى ووافقت على رسم «الخط البنفسجى» السيئ الصيت الذى كان من شأنه ان يكون حدا بين نجد (العربية السعودية حاليا) ومحمية عدن الشرقية (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حاليا) وكذلك بين نجـــد ومسقط

وساحل الصلح وقطر . وبهذه الاتفاقية انجز رسم الحدود بين اليمن ومحمية عدن الغربية (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حاليا) .

وهكذا انتهى بالمساومة عشية عام ١٩١٤ الصراع البريطانى الالمانى الحاد من اجل السيطرة على العالم العربى . واحتفظت بريطانيا بسيطرتها على الخليج العربى وجنوب وجنوب شرقى شبه الجزيرة العربية وعززت مواقعها فى منطقة البصرة واستولت على حصة الاسد من بترول العراق . غير ان الامبريالية الالمانية ظلت محافظة على نفوذها السائد فى الامبراطورية العثمانية وجيشها . وجرت الاعمال على قدم وساق فى مد سكة حديد الحجاز التى كانت الامبريالية الالمانية تأمل بان تنقل الفرق الالمانية بواسطتها الى قناة السويس ، وكذلك سكة حديد بغداد التى كان مقررا استخدامها فى نقل القوات لاقتحام ممتلكات «شركة النفط التركية» وشركة النفط البريطانية الفارسية وشق الطريق فى الوقت ذاته الى الخليج العربى .

الامبريالية البريطانية فى النضال
من اجل العالم العربى
فى سنوات الحرب العالمية الاولى

كانت الاتفاقية الانكلوالمانية حول مسائل العالم العربى اتفاقية مساومة مؤقتة غير متينة . وفى ١ آب (اغسطس) ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الاولى . وكان من اسبابها الرئيسية سعى الامبريالية البريطانية الى دحر الامبراطورية العثمانية وتجزئتها واستعباد العالم العربى كليا . اما الامبريالية الالمانية فكانت تأمل بشق طريقها

الى قناة السويس معتمدة على حليفتها تركيا وقطع «شريان الحياة هذا بالنسبة للامبراطورية البريطانية» وازاحة بريطانيا من الخليج العربى وتحويل ممتلكات الامبراطورية التركية ، بما فيها الاراضى والامارات العربية المنضمة اليها شكليا وفعليـــا ، الى محميات المانية .

وفى الشهور الاولى للحرب العالمية ظلت الامبراطورية العثمانية محايدة من الناحيـــة الرسمية ، بالرغـــم من ان كلا الائتلافين المتخاصمين خاضا لامد طويل قبل الحرب صراعا دبلوماسيا شديدا فى القسطنطينية . وكان هذا الصراع فريدا من نوعه . ففى الوقت الذى سعت فيه الاوساط الحاكمة الالمانية الى جر تركيا الى الحرب فى صف الحلف الثلاثى وتوصلت فى ٢ آب (اغسطس) ١٩١٤ الى توقيع اتفاقية عسكرية سرية مع تركيا ، مارست الدبلوماسيـة البريطانية نشاطا اكثر تعقدا وتنوعا بكثير . فلو اصبحت تركيــا حليفة لدول الوفاق لكان من الصعب جدا نهبهـــا والاستيلاء على الاراضى العربية الداخلة ضمن الامبراطورية العثمانية . ومع ذلك كان رفض تركيا رفضا سافــرا وزيادة عدد الاعداء بالتالى امرا خطرا ، لا سيما وانه يثير سخطا شديدا لدى الرأى العام .

ولذا عملت لندن بكل رهافة ودقة . ففى غضون عدة سنوات بنيت للاسطول التركى بارجتان فى احواض شركة «ارمسترونغ» فى بريطانيا . ودفعت تركيا مبلغا هائلا ــ ٧ ملايين جنيه ــ مقدما . وكان قسم من هذا المبلغ قد جمع من الجماهير الشعبية الواسعة نتيجة لدعاية الجامعة الاسلامية تحت شعار «الدفاع عن الخلافة» . وفى اواخر تموز (يوليو) ١٩١٤ كان مقررا ان يتسلم طاقم تركى البارجة الاولى ويبحر بها الى القسطنطينية . الا ان وزير البحرية البريطانى ونستون شرشل صادر كلتا البارجتين على حين غرة بحجة

خطر الحرب . واثار ذلك سخطا شديدا لدى الاوساط الحاكمة والرأى العام فى الامبراطورية العثمانية . ولا يسعنا الا ان نوافق على رأى المؤرخ الانجليزى المعروف غوتليب الذى يقول : « لو ان بريطانيا كانت تريد ان تثير غيظ الاتراك وتدفعهم الى معسكر الامبراطور الالمانى لما كان باستطاعتها ان تجد طريقا اكثر فاعلية من هذا » (٥٤) ، يعنى مصادرة البارجتين .

وكانت للخطوة الثانية التى اتخذتها الاوساط الحاكمة البريطانية عواقب اكثر وخامة . ففى آب (اغسطس) ١٩١٤ ـ فى الايام الاولى للحرب ـ كانت ترابط فى البحر الابيض المتوسط سفينتان حربيتان المانيتان كبيرتان هما « غيبين » و « بريسلاو » . وبالرغم من التفوق فى القوات بعشر مرات ، وبالرغم من احتجاجات الحكومة الروسية القاطعة ، « فوت » الاسطول البريطانى فى البحر الابيض المتوسط السفينتين وجعلهما تشقان طريقهما الى القسطنطينية . وبما ان تركيا كانت محايدة ، وان وجود سفن الدول المتحاربة فى المضيقين ممنوع حسب الاتفاقيات الدولية ، فقد بيعت « غيبين » و « بريسلاو » شكليا الى تركيا واطلق عليهما اسما « ياوز » و « ميديلى » ، وارتدى البحارة الالمان الطرابيش ، واصبح قائد العمارة الالمانية الاميرال سوشون قائدا عاما للاسطول التركى وصار يدعى سوشون باشا . وادى ذلك كله الى تعزيز مواقع صنيعة الامبرياليين الالمان وزير الحربية انور باشا والى تقوية الاسطول التركى لدرجة كبيرة ، وعجل ، دون شك ، فى دخول تركيا الحرب الى جانب الحلف الثلاثى . وقد اضطر وزير الخارجية البريطانى غراى الى الاعتراف فى مذكراته قائلا : « لو لم يصل كلا الطرادين الالمانيين ... الى القسطنطينية ... لتباطأ الاتراك فى تنفيذ معاهدة التحالف مع المانيا (معاهدة ٢ آب ـ اغسطس ١٩١٤) او لما نفذوها على العموم ابدا » (٥٥) .

ولقد استخدم الكاتب السوفييتى المعروف بوريس لافرينيف مذكرات الدبلوماسيين وبعض الوثائق التى نشرت فى بداية الثلاثينات فألف قصته المثيرة «خطأ ستراتيجى» . ويلقى الكاتب الاضواء على سياسة شرشل الذى امر اسطوله بالسماح للسفينتين الالمانيتين بالمرور الى القسطنطينية بغية تقوية تركيا ودفعها لدخول الحرب ضد دول الوفاق ، مما خلق الصعوبات فى الوقت ذاته امام انزال القوات الروسية على سواحل البوسفور .

وفى الاسابيع الاولى للحرب لم تكن للدبلوماسية القيصرية الروسية ابدا مصلحة فى دخول تركيا الحرب وظهور جبهة جديدة نتيجة لذلك ، هى جبهة القفقاس . وفى آب (اغسطس) ١٩١٤ اقترح وزير خارجية روسيا سازونوف على بريطانيا وفرنسا منح تركيا ضمانة الحصانة الاقليمية واعلان التخلى ، حسب جدول زمنى ، عن نظام الامتيازات وطرح مسألة اعادة جزيرة ليمنوس التى استولى عليها اليونانيون فى عام ١٩١٣ الى تركيا . الا ان هذه الاقتراحات رفضت من قبل باريس وخصوصا من قبل لندن (٥٦) .

وفى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ اقترب الاسطول التركى بقيادة سوشون باشا من السواحل الروسية واطلق الطرادان «ياوز» و«ميديلى» النار على اوديسا وسيباستوبول . وادى ذلك الى بدء العمليات الحربية بين روسيا وتركيا . وفى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) اعلنت بريطانيا بحجة «مشروعة» الحرب على الامبراطورية العثمانية بعد ان استعد لها المستعمرون البريطانيون خير استعداد .

الا ان مجلس الوزراء البريطانى كان قد امر قبل هذه الاحداث — فى ٢ تشرين الاول ١٩١٤ — ببدء التحضير لانزال قوات كبيرة للحملة فى جنوب العراق . وغادرت بومباى على الفور عمارة كبيرة

من السفن الحربية وسفن النقل . وفى غضون اسبوعين القت العمارة مراسيهـــا فى موانئ جـــزر البحرين . وبعد ان تسلمت السفن البريطانيـــة اخيرا الامر الذى طال انتظاره دخلت مصب شط العــرب . وفى ٢٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ احتلت وحدات المقدمة للفرقة الانكلوهندية السادسة اكبر مركز فى جنوب العراق ، نعنى مدينـــة البصرة . وقبل ذلك ــ فى ٣ تشرين الثانى ــ اعلنت الحكومة البريطانية من جانب واحد عن فصل مشيخة الكويت عن تركيا وتحويلها الى محمية بريطانية . وعلى اثر ذلك نشر بيـــان مماثل بخصوص قطر .

بديهى ان هذه الاجراءات كلها امكن تحقيقها على جناح السرعة وبدون اراقة اية دماء تقريبا ، لان الدبلوماسية البريطانية والسلطات الاستعماريـــة المحلية فى الخليج العربى تهيأت لذلك خلال فترة طويلة من الزمن . ولقد ذكرنا سابقا مراحل هذا الطريق ــ تحويل مسقط وجـــزر البحرين الى محميتين بريطانيتين والاستيلاء على ساحل الصلح وتعزيز المواقع البريطانية فى العراق . واعتبارا من عام ١٩٠٣ اخذ المستعمرون البريطانيون يعملون عن طريق طالب باشا ــ ابن نقيب البصرة الاقطاعى المتنفذ ــ والذى سعى المستعمرون البريطانيون لدى الباب العالى فعينه حاكمـــا للاحساء ، وعززوا نفوذهم فى الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية . وفى عام ١٩١٢ وضع المستعمرون البريطانيون خطط بتر البصرة من العراق وتحويل ولاية البصرة كلها الى سلطنة تحت الحماية البريطانية وتحت رئاسة طالب باشا نفسه . ولم تتحقق هذه الخطة آنذاك . الا ان طالب باشا عمل طوال ١٩١٣ بتوجيه القنصل البريطانى العام فى بغداد فمهد التربة لاحتلال جنوب العراق ، بل وسافر الى القاهرة للتشاور سرا مع السلطات البريطانية .

وفى تشرين الثانى ١٩١٤ ، بعد اسبوعين من دخول تركيا الحرب العالمية ، حقق المستعمرون البريطانيون واحدا من اهم اهدافهم ، حيث حولوا الخليج العربى الى « بحيرة بريطانية » .

واعد المستعمرون البريطانيون ضربة ليست اقل شدة الى مواقع تركيا وحماتها الالمان فى منطقة قناة السويس . فلامد طويل قبل بداية الحرب العالمية قررت لندن ان من الضرورى اتخاذ اجراءات عاجلة لتعزيز رأس الجسر المصرى . وفى عام ١٩٠٧ ، بعد «حادث دنشواى» ، حيث نكل المستعمرون البريطانيون بلا رحمة بفلاحى دنشواى الذين تجرأوا على ضرب الضباط البريطانيين ، بدأت فى مصر نضالات شديدة ضد البريطانيين . واحست مصر بتأثير ثورة ١٩٠٥ الروسية وانخرطت بنشاط فى الحركة الجبارة المعادية للامبريالية ، تلك الحركة التى نعتها لينين « باستيقاظ آسيا » . وفى هذه الظروف اضطر المستعمرون البريطانيون الذين استخدموا سياسة اللين والشدة على السواء الى استدعاء خانق الشعب المصرى كرومر القاسى من القاهرة . وعين بدلا منه المستعرب ألدون غورست الذى كانت له صلات وثيقة مع الكثير من الشخصيات القومية فى البلاد . الا ان ذلك لم يحل دون تطور الحركة المناوئة للامبريالية . فقد انتقل عدد من زعماء هذه الحركة الى العمل السرى ، واصبح مطلب جلاء القوات البريطانية مطلبا شاملا للجميع . واستنتجت لندن انه ينبغى ان يحكم القاهرة عسكرى غير متعلم بدلا من المستعرب . وفى حزيران (يونيو) ١٩١١ عين قنصلا بريطانيا عاما فى مصر خانق شعب السودان وشعوب جنوب افريقيا الفيلدمارشال كيتشنر الخرطومى الذى كان يشغل قبل ذلك منصب القائد العام للقوات المسلحة البريطانية فى الهند . ومما تجدر الاشارة اليه ان مسألة تعيين

كيتشنر لمنصب نـائب الملك فى الهند قد نوقشت بنشاط قبل ذلك ، ولكن وزيـر شؤون الهند مورلى اثبت بان تعيينه لهذا المنصب يسيئ الى سمعة «اللبرالية» والى الاصلاحات الادارية التى اجريت فى الهند مؤخرا .

ومنذ الايام الاولى لتسلم كيتشنر منصبه الجديد انهمك فى تحويل مصر الى رأس جسر للتغلغل الى شبه الجزيرة العربيـة وفلسطين وسوريا . والى جانب مد السكك الحديدية وشق الطرق وزيادة تعداد القوات البريطانية المرابطة فى البلاد وتعزيز منطقة قناة السويس بدأ كيتشنر باجراءات التعبئة العسكرية فى مصر ذاتها . وتطلب ذلك اجراء جملة اصلاحات ادارية . وظهرت خطة تأسيس جمعية تشريعية ذات مجلس واحد . وفى تموز (يوليو) ١٩١٢ طلب كيتشنر النصح من كرومر الساكن فى بريطانيا بشأن المسائل المتعلقة بهذه الخطـة . وجاء فى جواب كرومر : «ان التمثيل القومى فى مصر سخف واضح للعيان . . . فالمصريون ليسوا امة . . . انهم مجرد خليط بالصدفـة لمختلف العناصر المركبة» (٥٧) . ان هذا الوصف المشبع بالاهانة والاحتقار صدر فى وثيقة رسمية عن شخص مثل طوال ربع قرن على شواطئ النيل بريطانيا «اللبرالية» التى تفاخرت بان مجلسها التشريعى هو «اصل البرلمانات فى العالم بأسره» . وكان رفض كرومر القاطع اعتبار المصريين امة قد دوى بعد ٣٥ عاما من اعلان الخديوى اسماعيل فى بيان اقالة «الوزارة الاوربية» عـن ان سكان مصر يشكلون الامة المصرية ! ولقد انتشر قول كرومر الوقح بصدد الامة المصرية على نطاق واسع فى الاوساط الحاكمة البريطانية ، وذلك لان كرومر الذى حصل على لقب دوق بعد ان استدعتـه لندن من القاهرة ، ظل يتمتع بنفوذ كبير نظرا لصلاته الماليـة

والسياسية والعائلية . وكان البحث الذى نشره كرومر عام ١٩٠٨ بمجلدين «مصر الحديثة» يستهدف تخليد اعمال بريطانيا وممثلها المعمر فى القاهرة . ومما له دلالته ان كرومر استهل كتابه بقول نابليون : «مصر هى اهم بلد فى العالم» .

وقد ادرك هذا القول خير ادراك ليس كرومر وحده ، بل وكيتشنر ايضا . واعتبارا من عام ١٩١٢ عمل كيتشنر بنشاط فى مشروع الحاق مصر نهائيا وتحويل السودان ومصر الى مستعمرة شاسعة للامبراطورية البريطانية يحكمها نائب للملك البريطانى على طراز الهند (٥٨) . وهكذا وضعت عشية الحرب العالمية الاولى على قدم وساق اسس «الهند العربية» .

لقد اطلق دخول تركيا الحرب العالمية الاولى ايدى السلطات الاستعمارية فى القاهرة . ففى ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ نشر قائد القوات البريطانية فى مصر الجنرال ماكسويل فى صحيفة «الوقائع المصرية» الرسمية بيانا بشأن بدء العمليات الحربية بين بريطانيا وتركيا . وجاء فى البيان : «ان بريطانيا تبتغى من وراء الحرب التى تخوضها الآن تحقيق هدفين : ١) الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى احرزها محمد على فى سوح القتال و٢) تأمين الامكانية لمصر كى تتمتع كالسابق بالسلم والنعيم اللذين تمتعت بهما هذه البلاد طوال ٣٠ عاما من الوجود البريطانى» (٥٩) .

ويستنتج من هذا البيان ان دخول الامبريالية البريطانية الحرب العالمية الاولى لم يكن مبعثه الصراع مع منافستها الاولى — الامبريالية الالمانية — فى سبيل السيطرة على العالم والسعى الى اعادة اقتسام العالم الذى تم اقتسامه سابقا ، بما فى ذلك الاستيلاء على المزيد من الاراضى العربية ، بل مجرد الرغبة فى

تأمين «النعيم» لمصر والدفاع عن «حرية مصر التى احرزها محمد على فى سوح القتال» ، نفس محمد على الذى كرست الاوساط الحاكمة البريطانية قواها وطاقتها الهائلة لتدمير دولته . حقا ان بيان الجنرال ماكسويل يستحق ان يضم الى رواية غولسورثى الشهيرة «جزيرة المنافقين» التى يسخر فيها هذا الكاتب الانجليزى المبدع اشد السخرية من الرياء والنفاق اللذين يميزان الطبقة الحاكمة فى بريطانيا .

وفى ١٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ نشر الجنرال ماكسويل بيانا جديدا جاء فيه «ان مصر تضم الى قائمة البلدان الواقعة تحت الحماية البريطانية» (٦٠) بسبب الحرب الانكلوتركية . وفى اليوم التالى اعلن عن خلع الخديوى عباس حلمى وتنصيب عمه حسين كامل الذى منح لقبا جديدا هو السلطان . واوضح كذلك ان مصر حرمت نهائيا من حق العلاقات الخارجية وان الاتصال بالممثليات القنصلية للدول الاجنبية فى القاهرة يجب ان يجرى عن طريق القائم بالاعمال البريطانى الذى منح رتبة المندوب السامى . وهكذا انجزت من الناحية الحقوقية عملية استعباد مصر ، تلك العملية التى بدات بتدمير دولة محمد على وبالقروض الجائرة من البنوك البريطانية واستمرت بالتدخل البريطانى والاحتلال عام ١٨٨٢ .

وبعد ان عززت الامبريالية البريطانية مواقعها فى كلا جناحى العالم العربى ــ فى الخليج العربى وشبه جزيرة سيناء ــ انتقلت الى الاعمال النشيطة الرامية الى تنفيذ خططها القديمة فى استعباد المناطق العربية الاخرى ــ شبه الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا والعراق . الا ان طرق تنفيذ هذه الخطط الاغتصابية اثارت لدى الاوساط الحاكمة فى بريطانيا خلافات جديدة . فان كتلة روتشيلد ــ

كرومر والاحتكارات البريطانية المرتبطة بها ، والتى لها مصلحة فى الاستغلال الاستعمارى لمصر والسودان وفى «الاستثمـــــــار» الاقتصادى لسوريا وفى اخضاع الحجاز ، كانت تعلق آمالها على تاسيس عدة امارات عربية تابعة لبريطانيا فى هذه المنطقة من العالم العربى ، واقترحت فكرة تأسيس الخلافة العربية ومركزها فى مكة بدلا من الخلافة العثمانية . وحظيت هذه الكتلة بتأييــد نشيط من الفيلدمارشال كيتشنر الذى شغـل فى اذار (مارس) ١٩١٤ منصب وزير الحربية فى بريطانيا . ولم تكن فكرة بعــث الخلافة العربية جديدة ابدا اذ كانت قد طرحت فى لندن فى اواخر خمسينات القرن التاسع عشر بغية مكافحة النفوذ الفرنسى فى مصر والنفوذ الروسى فى القسطنطينية . ولقد اشرنا سابقـــا الى ان الدبلوماسية البريطانية عادت الى هذه المسألة مجددا فى مستهل التسعينات . الا ان تغير الوضع حيث ترسخت المواقع البريطانية لدرجة كبيرة فى مصر ادى الى مناقشة مسألة تنصيب خديوى مصر خليفة .

وعشية الحرب العالمية الاولى قررت الاوساط الاستعمارية فى لندن اقامة اتصال مع شريف مكة حسين الهاشمى المتذمر من الميول المركزية لدى زعماء تركيا الفتاة . وفى ١٩١٢ـ١٩١٤ اجرى كيتشنر الذى كان يشغل انذاك منصب القنصل العام فى القاهرة ومستشاره فى الشؤون العربية ستورروس عدة لقاءات مع الامير عبد الله بن الشريف حسين . ونوقش خلال هذه اللقاءات الوضع فى الحجاز وتزايد الاستياء من الادارة التركية ومن مــد سكة حديد الحجاز التى كانت تتعارض لاسباب سياسية واقتصادية مع مصالح الكتل المتنفذة بين السكان العرب فى الحجـــاز ، والتى كانت من الناحية الستراتيجية تشكل خطرا على مواقع بريطانيا فى

منطقة قناة السويس . وطرح عبد الله مسألة الحصول على السلاح من بريطانيا لمحاربة تركيا . وبما ان المباحثات جرت قبل الحرب العالمية الاولى (كان اخر لقاء قد تم فى نيسان ـ ابريل ١٩١٤) فان كيتشنر الذى كان يحرض الهاشميين على تأزيم العلاقات مع تركيا قد ابدى فى الوقت ذاته شيئا من التحفظ وتحاشى اخذ التزامات محددة على عاتقه (٦١) .

الا ان الوضع تغير تغيرا جذريا على اثر بداية الحرب . ففى ٢٤ ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ ، اى قبل دخول تركيا الحرب العالمية ، وجه كيتشنر الذى اصبح وزيرا للحربية رسالة الى عبد الله عن طريق القاهرة حرض فيها بنشاط الهاشميين على الانتفاضة ضد تركيا ووعد بدعم من بريطانيا (٦٢) . وفيما بعد استمرت الاتصالات مع الهاشميين بمشاركة نشيطة من قبل قائد القوات البريطانية فى مصر الجنرال وينغهايت .

كانت السلطات الاستعمارية البريطانية فى مصر تعلق امالها ليس على الهاشميين وحدهم . ففى ١٩١٣ اقيمت اتصالات خفية مع زعماء الجمعية العربية السرية «العهد» . وفى شباط (فبراير) ١٩١٤ عندما اعتقلت السلطات التركية زعيم الجمعية عزيز على المصرى وحكمت عليه بالاعدام بذل كيتشنر واركانه وكذلك السفير البريطانى فى القسطنطينية ماليت (بالحاح من كيتشنر وبموافقة وزارة الخارجية البريطانية) كل ما فى الامكان لاطلاق سراحه . ودافعت عن عزيز على المصرى صحيفة «التايمس» التى اتهمت انور باشا فى مقالة شديدة اللهجة بمحاولة التخلص من هذا الضابط . وفى نيسان (ابريل) ١٩١٤ اطلق سراح المصرى الذى وصل الى القاهرة . واعتبارا من آب (اغسطس) ١٩١٤ اجرى المصرى وانصاره لقاءات عديدة مع البريطانيين نوقشت فيها

امكانية الانتفاضة فى المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٤ طرح المصرى خطة انتفاضة ضد الاتراك فى العراق . واقترح كذلك استخدام اثنين من الاعضاء النشطاء فى جمعية «العهد» لهذا الغرض ، وهما الحاكم السابق للاحساء طالب باشا المار ذكره والضابط الشاب نورى سعيد (الذى اصبح فيما بعد من انشط مروجى النفوذ البريطانى فى العراق ، وشغل منصب رئيس الوزراء فى ثمانى وزارات عراقية ، وقتل على يد سكان بغداد الثائرين ابان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨) . وأيد وزير خارجية بريطانيا ادوارد غراى اقتراح عزيز على المصرى وامر بتسليمه الفى جنيه لاعداد نقل الضابطين المذكورين الى العراق (٦٣).

وبالاضافة الى كتلة روتشيلد ـ كرومر «المصرية» والاوساط المصرفية والعسكرية والسياسية المرتبطة بها والساعية الى استخدام مصر كرأس جسر للتغلغل الى المناطق العربية التابعة للامبراطورية العثمانية واستعبادها عن طريق انشاء عدد من المحميات ، بل واحتمال تأسيس الخلافة العربية ، كانت توجد فى الاوساط الحاكمة البريطانية كتلة اخرى لا تقل نفوذا عن تلك ، الا وهى الكتلة «الهندية» المرتبطة بأسياد شركة النفط البريطانية الفارسية واصحاب الاسهم فى شركات النقل والشركات التجارية العاملة فى جنوب بلاد فارس وجنوب العراق وجنرالات الجيش الانكلوهندى وكيرزون وانصاره . كانت هذه الكتلة تعارض معارضة شديدة تأسيس الخلافة العربية وتسعى ليس الى تأسيس امارات عربية تابعة لبريطانيا فى الشرق الاوسط ، بل الى الحاق جنوب ووسط العراق وضمهما الى الهند البريطانية . وكانت مواقع هذه الكتلة قوية للغاية لان الممتلكات الاستعمارية البريطانية فى عدن كانت تعتبر من الناحية الادارية جزءا من الهند وان الجهاز العسكرى

والدبلوماسى البريطانى فى الخليج العربى كان خاضعا للسلطات الانكلوهندية ، وان البصرة كانت محتلة من قبل القوات الانكلوهندية .

وقد اثارت خطة عزيز على المصرى معارضة شديدة لدى غرانت مدير القسم الاجنبى فى الادارة الاستعمارية البريطانية ولدى غيرتسيل مدير القسم السياسى فى وزارة شؤون الهند . فقد كان هذان يعتقدان بان الانتفاضة اما ستمنى بالاخفاق واما ستخلق لبريطانيا فى حالة نجاحها «مصدرا لا ينضب للمتاعب» . وعارض غرانت فكرة الخلافة العربية فكتب يقول انها تتعارض ومصالح بريطانيا . واكد قائلا : «نحن بحاجة ليس الى جزيرة العرب الموحدة ، بل الى جزيرة العرب الضعيفة المشتتة المجزأة الى عدد عديد من الامارات الصغيرة الواقعة تحت سيطرتنا التامة والمحرومة من امكانيات الاتحاد ضدنا» (٦٤) . وفى الوقت ذاته ظل زعماء الكتلة «الهندية» مصرين على ضم القسمين الجنوبى والاوسط من العراق .

كانت التناقضات بين الكتلتين المتنفذتين فى المعسكر الحاكم فى بريطانيا والموقف العسكرى المعقد الذى وجدت دول الوفاق نفسها فيه على الجبهة الغربية واخفاقات القوات البريطانية على الجبهة العراقية قد عقدت تنفيذ خطط الاستيلاء على المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية وجعلت تنفيذها بطيئا . وفى عام ١٩١٥ شكلت الوزارة البريطانية لجنة سرية خاصة برئاسة موريس دى بونزين . وكان على هذه اللجنة ان تنسق اقتراحات مختلف الكتل بشان طرق واشكال الاستيلاء على الاراضى العربية وان تضع خطة حكومية لحل قضايا الجزء الآسيوى من الامبراطورية العثمانية بعد الحرب المظفرة .

وفى عام ١٩١٥ تاسس فى القاهرة «المكتب العربى» السيئ الصيت الذى ضم المستشرقين-رجال المخابرات البريطانيين الكبار الجنرال كلايتون والبروفسور هوغـارت والكولونيل لورنس . وتحول المكتب الى اركان عامة رئيسية لمجمل النشاط الجاسوسى التخريبى والسياسى الدعائى فى العـالم العربى . وتأسس مركز مماثل آخر فى البصرة المحتلة من قبل القوات البريطانية . وترأس هذا المركز المقيم البريطانى لامد طويل فى الخليج العربى بيرسى كوكس الذى اصبح مديرا للمصلحة السياسية البريطانية فى العراق، والجاسوسة المعروفة هرترودا بيل والمستعرب ورجل المخابرات هارى فيلبى الذى اصبح فيما بعد شهيرا لدرجة لا تقل عن شهرة زميليه . وكانت مهمة هذين المركزين الدعائيين التخريبيين تتلخص فى اقامة الاتصالات مع شيوخ القبائل العربية وزعماء الاحزاب السياسية العربية بغية تنظيم الانتفاضـات فى مؤخرة القوات الالمانية التركية فى العراق والحجاز وسوريا وفلسطين ، وكذلك فى اعداد تمرد القوات العربية الداخلـة ضمن الفرق والفيالق التركية .

وبقدر تعقد الموقف العسكرى على جبهات الحرب العالميـة الاولى فى اوروبا وخصوصا فى الشرق الاوسط اصبحت هذه المهمة اكثر الحاحا . وفى عام ١٩١٥ انتهت بهزيمة ماحقة محاولة وزير البحرية البريطانى ونستون شرشل لاختراق الدردنيل ودخـول الاسطول البريطانى الى بحر مرمرة وتهديد استامبـول مباشرة (ومن الامور الاقل ذيوعا ان خطة شرشل كانت تنص على انزال قوات فى الاسكندرونة واحتلال قسم من السواحل السوريـة من قبل القوات البريطانيـة) . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ طوقت القوات التركية قرب كوت الامارة جنوب شرقى بغداد قوات

الجنرال الانجليزى تاونسيند البالغ تعدادها عشرة آلاف شخص . ولم تنجح محاولة فك الحصار . وعند ذاك ارسل الى مواقع القوات التركية الكولونيل لورنس الذى كان عليه ان يقدم رشوة هائلة قدرها مليونا جنيه استرلينى لشراء ذمم الجنرالات الاتراك وشيوخ القبائل العربية بغية اطلاق سراح القوات المحاصرة . ولكن هذا العرض قد رفض. فوقع الجنرال تاونسيند وجيشه فى الاسر . وفى الوقت ذاته تقريبا بدأ الجيش التركى الرابع الذى يضم ست فرق هجوما على جبهة سيناء بغية شق الطريق الى قناة السويس .

وفى هذا الجو المعقد الخطر قررت الاوساط الحاكمة البريطانية ان من اللازم لها ان تتواطأ مهما كلف الثمن مع بعض الزعماء العرب وتعجل فى بدء الانتفاضة العربية فى الممتلكات والقوات المسلحة التركية . وعلق المستعمرون البريطانيون املهم الرئيسى على شريف مكة وحاكم الحجاز الحسين الهاشمى الذى جرت مع ابنه عبد الله ، كما ذكرنا ، مباحثات سرية منذ عام ١٩١٢ . ودخل الحسين ، مدفوعا من قبل القاهرة ، فى مفاوضات سرية مع زعماء المنظمات القومية السورية . وفى ٢٣ آيار (مايو) ١٩١٥ تم بين فيصل بن الحسين وزعماء المنظمات القومية السورية توقيع ما سمى ببروتوكول دمشق الذى نص على ان الزعماء العرب يؤمنون الانتفاضة الفورية لجميع الوحدات العربية الداخلة ضمن الفرق والفيالق التركية وانتفاضة القبائل العربية فى مؤخرة القوات التركية لقاء اعتراف بريطانيا بالدولة العربية المستقلة التى ينبغى ان تضم العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز وشبه الجزيرة العربية .

وفى ١٤ حزيران (يونيو) ١٩١٥ وجه الشريف حسين المعتمد على بروتوكول دمشق رسالة ضافية الى المندوب السامى البريطانى

فى مصر مكماهون اقترح فيها على بريطانيا بالاستناد الى بروتوكول دمشق تحالفا مع العرب (بما فى ذلك انتفاضـــة الجنود العرب والقبائل العربية ضد الاتراك) مقابل مساعدة عسكرية واقتصادية، والامر الرئيسى هو مقابل اعتراف بريطانيا بتأسيس دولة عربية حرة مستقلة فى الاطر التى اشار اليها بروتوكول دمشق . ووعد مكماهون فى رسالته الجوابية المؤرخـــة فى ٣٠ آب (اغسطس) ١٩١٥ بالتأييد التام لنضال العرب التحررى ، ولكنـــه تحاشى أخذ التزامات ملموسة على عاتقه . وعنـــد ذاك حذر الحسين فى رسالة جديدة الى مكماهون بتاريخ ٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ من ان العرب سوف يرفضون دعم دول الوفاق فيما اذا رفضت بريطانيا ضمان حدود واستقلال الدولة العربية المرتقبة . ولقد اسفر هذا التهديد عن ثمرة ، لاسيما وان وضع بريطانيا انذاك قد تعقد كثيرا فى جبهات الشرق الاوسط الاساسية الثلاث : جبهة الدردنيل وجبهة سيناء والجبهة العراقية . ولذلك بعث مكماهون ، بموافقة الحكومة البريطانية ، رسالة ثانيـــة الى الشريف حسين بتاريخ ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ اعرب فيها عن قبوله بالمطالب الاساسية للزعماء العرب على شرط ان لا تشمل الدولة العربية المرتقبة بيروت وحلب ، وولايتى البصرة وبغداد مؤقتا ، فسوف تحتلهما القوات البريطانية . وفى رســـائل مكماهون الى الحسين بتاريخ ٥ تشرين الثـــانى (نوفمبر) ١٩١٥ و١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ و٣٠ كانون الثانى (يناير) ١٩١٦ وفى آخر رسالة وجهها الحسين الى مكماهون بتاريخ ١٨ شبـــاط (فبراير) ١٩١٦ جرى تدقيق التزامات الطرفين فى النضال المشترك ضد الاتراك وفى تأسيس الدولة العربية المستقلة فى آسيا (٦٥) . واصبحت هذه المراسلات بين مكماهون والحسين والتى نشرتهـــا

الحكومة البريطانية رسميا فيما بعد اساسا حقوقيا لجميع مطالب العرب بتأسيس دولة مستقلة موحدة .

الا ان المستعمرين البريطانيين لم يكونوا ينوون ابدا تنفيذ التزاماتهم . وكان من اوضح امثلة الرياء والنفاق الملازمين للطبقة الحاكمة فى بريطانيا اجراء المفاوضات السرية حول اقتسام البلدان العربية بين بريطانيا وفرنسا طوال ١٩١٥-١٩١٦ حيث انجز بنتيجة المراسلات بين مكماهون والحسين التحضير لانتفاضة العرب الشاملة ضد الاتراك وحيث صاغت الحكومة البريطانية خطيا التزاماتها ازاء تأسيس دولة عربية مستقلة موحدة فى آسيا . وبعد مساومة طويلة الامد وقع ممثل بريطانيا سايكس وممثل فرنسا بيكو فى ١٥ ايار (مايو) ١٩١٦ اتفاقية سرية نصت على ان تستولى فرنسا على غربى سوريا ولبنان وقيليقيا (ما يسمى «بالمنطقة الزرقاء») وان تستولى بريطانيا على جنوب ووسط العراق والمناطق الفلسطينية المتاخمة لمينائى حيفا وعكا («المنطقة الحمراء») . والقسم الباقى من فلسطين («المنطقة البنية») يصبح فى الواقع تحت السيطرة الانكلوفرنسية . واعلنت الاتفاقية ان القسم الشرقى من سوريا وولاية الموصل العراقية هى منطقة النفوذ الفرنسى («المنطقة أ») ، وان شرق الاردن والقسم الشمالى من ولاية بغداد هما من منطقة النفوذ البريطانى («المنطقة ب») (٦٦) .

وهكذا خرق الامبرياليون البريطانيون جميع الالتزامات التى اتخذوها ازاء العرب وتواطاوا مع المستعمرين الفرنسيين بشان تجزئة تلك الدولة المستقلة التى ضمنت الحكومة البريطانية للشريف حسين تأسيسها الى خمس مناطق : مستعمرة فرنسية («المنطقة الزرقاء») ومستعمرة بريطانية («المنطقة الحمراء») وحكم ثنائى انكلوفرنسى فى فلسطين («المنطقة البنية») وشبه مستعمرة

فرنسية فى شرقى سوريا («المنطقة أ») وشبه مستعمرة بريطانية فى شرقى الاردن ووسط العراق («المنطقة ب»).

لقد اضطر وضع عام ١٩١٦ الحربى والسياسى المعقد الاوساط الحاكمة البريطانية الى تصديق اتفاقية المساومة، نعنى اتفاقية سايكس ـ بيكو. الا ان هذه الاتفاقية اثارت فى لندن سخطا شديدا. فقد وصفها احد اكثر زعماء المستعمرين البريطانيين عدوانية، نعنى اللورد كيرزون، بانها «رحى الطاحون فى رقابنا». ونعتها رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج بانها «اكثر الوثائق حماقة» (٦٧).

الصهاينة يشتركون فى اللعبة

تدل وثائق ارشيف الدولة فى بريطانيا على انه نوقشت فى لندن خلال نيسان ـ ايار (ابريل ـ مايو) ١٩١٦، اى عندما انجز سايكس مفاوضاته مع بيكو بصدد اقتسام البلدان العربية، الاجراءات الحربية والسياسية التى استهدفت سد الطريق امام الفرنسيين الى ولاية الموصل (فهناك تسود «شركة النفط التركية»!) والى فلسطين المتاخمة لقناة السويس. زد على ذلك ان المكتب العربى فى القاهرة اعد خطط نسف الالتزامات الخاصة بوضع سوريا ـ امل فرنسا المنشود ـ تحت السيطرة الفرنسية. وكان المستعمرون البريطانيون يأملون باحتلال ولاية الموصل عن طريق القوات الانكلوهندية وبضمها فيما بعد مع ولايتى بغداد والبصرة الى الهند البريطانية. وبغية نسف المواقع الفرنسية فى سوريا وفلسطين والحيلولة دون تأسيس دولة عربية كبيرة فى الشرق الاوسط بعد الحرب قرر المستعمرون البريطانيون الاستفادة من خدمات الصهاينة.

ولذلك ففى نفس وقت المفاوضات بين مكماهون وآلحسين بصدد تأسيس دولة عربية موحدة (تشمل فلسطين) ، وفى نفس وقت المفاوضات بين سايكس وبيكو بشأن شطر فلسطين وتحويل قسم من اراضيها الى منطقة حكم ثنائى انكلوفرنسى ، جرى فى لندن الاتفاق مع الصهاينة بشأن تأسيس «وطن قومى لليهود» فى فلسطين تحت الحماية البريطانية طبعا .

ولقد ذكرنا ان الضجة حول المسألة الفلسطينية بدأت فى النصف الثانى من تسعينات القرن التاسع عشر ، عندما انخرطت بنشاط فى الصراع من اجل الشرق الاوسط الامبريالية الالمانية التى سعت الى اخضاع اهم مناطق الامبراطورية العثمانية من الناحية الستراتيجية ، بما فيها فلسطين . وقد وافقت هذه الضجة ليس من الناحية الزمنية فقط نهوض الحركة الصهيونية ــ الايديولوجية القومية للبرجوازية اليهودية . ففى عام ١٨٩٦ نشر الصحفى النمساوى اليهودى ثيودور هرتزل كتاب «الدولة اليهودية» الذى حاول فيه ان يثبت ان اليهود القاطنين فى مختلف البلدان هم امة واحدة وان يعلل ضرورة تأسيس دولة يهودية فى فلسطين . وعلى اثر نشر كتاب الصهيونية المقدس هذا اتصل هرتزل باحد عملاء عبد الحميد الثانى السريين وهو فيليب نيفلينسكى الذى بعثه السلطان المتعطش للدماء الى اوربا بغية اقامة الاتصالات مع زعماء المنظمات القومية الارمنية والتوصل الى وقف الحملة الشديدة التى شنتها هذه المنظمات فى الصحف الاوربية على مذابح الارمن فى الامبراطورية العثمانية . واقترح هرتزل على نيفلينسكى استخدام انصاره بمثابة وسطاء بين الباب العالى والزعماء الارمن . والامر الاهم هو ان هرتزل طرح مسألة امكانية اسهام الراسماليين اليهود فى تسوية الشؤون المالية التركية المشوشة لقاء منح اليهود

حقوقا واسعة للهجرة الى فلسطين والحكم الذاتى فيها . وقد قدم هرتزل قرضا كبيرا للغاية بمبلغ ١٨ مليون ليرة تركية (اكثر من ١٥٠ مليون روبل ذهبى) ومليونى ليرة تركية بشكل مكافاة خاصة فى حالة الحصول على الحقوق المذكورة فى فلسطين (٦٨) .

وفى حزيران (يونيو) ١٨٩٦ دعى هرتزل الى القسطنطينيـــة حيث اجرى مفاوضات طويلة مع الوزير الاعظم الذى ابدى اهتماما خاصا بالعروض المالية من قبل زعيم الصهاينـــة ، ولكنه لمح بوضوح الى ان من المستحيل فى الظروف المعقدة القائمـــة انذاك (اشتداد ازمة الشرق الاوسط) منح الصهاينة فلسطين التى تتميز باهمية دينية وسياسية بالغة للعالم الاسلامى . ومع ذلك لم يكن عبد الحميد راغبا فى قطع الطريق نهائيا امام المفاوضات اللاحقة مع الصهاينة ، ولذلك منح هرتزل وسام المجيدية (٦٩) .

كانت زيارة هرتزل الى القسطنطينية والمفاوضات مع الوزير الاعظم وتسلم الوسام التركى ــ كل ذلك خلق انطباعا وكان افاق الهجرة اليهودية الى فلسطين قد تفتحت . وساعد ذلك كله على تقوية سمعة هرتزل والحركة الصهيونية فى اوساط البرجوازيـــة اليهودية . وفى آب (اغسطس) ١٨٩٧ عقد فى بازل اول مؤتمر عالمى للصهاينة ، وتاسست فيه المنظمة الصهيونية العالميـــة برئاسة هرتزل الذى شرع على الفور بانشاء رصيد مالى كبير من شانه ان يصلح لتمويل الهجرة اليهودية الى فلسطين ، الامر الذى اعتبره مؤتمر بازل اكبر مهمة للمنظمة الصهيونية العالمية .

وفى عام ١٨٩٨ اتخذت الاوساط الحاكمة فى المانيا الساعية الى التعجيل بالحصول على ماسمى بالامتياز النهائى لتمديد سكة حديد الاناضول الى بغداد والخليج العربى قرارا بسفـــر غليوم الثانى الى تركيا . وكان برنامج رحلة الامبراطور الالمانى يتضمن زيارة القسطنطينية وفلسطين .

وعشية سفر غليوم الثانى الى تركيا اجرى هرتزل لقائين مع الشخصيات الحكومية فى الامبراطورية الالمانية ، احدهما فى فيينا مع وزير الخارجية الالمانى بيولوف والاخر فى برلين مع بيولوف والمستشار هوهنلويه . ونوقش مشروع هرتزل بشأن تأسيس شركة صهيونية خاصة لاستيطان فلسطين . ومما له دلالته ان هوهنلويه اهتم بمسألة الحدود التى يتوخاها الصهاينة : «حتى بيروت فقط ام الى شمالها ؟» (٧٠) . ولقد كانت التقسيمات الادارية انذاك فى المناطق العربية التابعة للامبراطورية العثمانية قد هيأت امكانيات واسعة للاحابيل السياسية للامبرياليين والصهاينة . فاراضى سوريا ولبنان وفلسطين كانت مقسمة الى ولايتى دمشق وحلب وسنجقى القدس وبيروت . وكان طرح مسألة الحدود الشمالية لفلسطين من قبل المستشار الالمانى بحد ذاته قد هيأ للصهاينة امكانية ابداء مطامعهم فيما بعد فى اراضى لبنان الجنوبى . ففى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ ، حظى هرتزل بمقابلة غليوم الثانى خلال زيارته الى القسطنطينية . وردا على سؤال الامبراطور عما يبتغى الصهاينة حصوله من عبد الحميد بوساطة غليوم الثانى اجاب هرتزل : «نريد ميثاقا خاصا بتأسيس شركة صهيونية ذات امتيازات لاستيطان فلسطين تحت الحماية الالمانية» (٧١) . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٩٨ حظى هرتزل على رأس وفد صهيونى رسمى بمقابلة غليوم الثانى من جديد خلال زيارة هذا الاخير الى القدس . الا ان مشروع الشركة ذات الامتيازات منى بالفشل ، لان عبد الحميد رد برفض قاطع . ففى عام ١٨٩٨ بالذات عقد المؤتمر الاول للجامعة الاسلامية فى مكة بفضل جهود السلطان نفسه . وكان ذلك الوقت طبعا غير ملائم لوضع فلسطين ومراكزها الاسلامية تحت اشراف شركة صهيونية ذات امتيازات .

الا ان هرتزل لم يستسلم . فبعد عامين قرر الصهاينة ممارسة حملة جديدة على عبد الحميد . وفى هذه المرة اختاروا لمهمة الوساطة اليهودى المجرى والمستشرق الشهير فامبيرى المقرب الى السلطان . وفى ايار (مايو) ١٩٠١ جرى لقاء بين هرتزل وعبد الحميد . وطرح الصهاينة من جديد مسألة تأسيس الشركة ذات الامتيازات لاستيطان فلسطين . كما طرح السلطان مسألة مساهمة الرأسمال اليهودى مساهمة نشيطة فى تسديد الديون الخارجية المتراكمة على الامبراطورية العثمانية . وفيما بعد استمرت المفاوضات مع امينى سر السلطان المقربين اليه ـ ابراهيم بيك وعزت بيك . وفى هذه المرة حدد الاتراك ثمن الصفقة بـ٣٠ مليون ليرة تركية . ولكنه اتضح ان السلطان لم يكن يوافق حتى فى حالة استلام مثل هذا المبلغ على تسليم الميثاق الخاص بتأسيس الشركة ذات الامتيازات . فقد اكتفى بالموافقة على تقاطر اليهود بشكل جماعات غير كبيرة على مختلف ولايات الامبراطورية العثمانية بشرط تجنسهم بالجنسية العثمانية وموافقتهم على تأدية الخدمة العسكرية الالزامية . وحاول الجانب التركى ان يضيف شيئا من السكر الى الجرعة المرة فاقترح منح هرتزل وساما آخر . وكان المقصود هذه المرة وسام المجيدية من الدرجة الثانية . (كان وسام عام ١٨٩٦ من الدرجة الثالثة) . وقد رفض هرتزل «المهان» تسلم الوسام فى البداية ، ولكنه استلم وسام المجيدية من الدرجة الاولى بعد مساومة طويلة .

وفى شباط (فبراير) ١٩٠٢ وصل هرتزل من جديد الى القسطنطينية لانجاز المفاوضات مع ابراهيم بيك . واهتم الاتراك بما اذا كان هرتزل قد استطاع ان يؤمن القرض المنشود ام لا ؟ بينما اهتم الصهاينة بالقضية الفلسطينية . واتضح ان السلطان

مستعد لقبول عدد كبير من اليهود فى امبراطوريتـــــه ، ولكن فى العراق وليس فى فلسطين ، وبدون اية مواثيق طبعا . وانقطعت المفاوضات (٧٢) .

وعند ذاك حاول الزعماء الصهاينة بذل الجهود فى لندن . ففى ١٨٩٦ـ١٩٠٢ ، عندما كان هرتزل واصحابه يجرون المفاوضات فى تركيا والمانيا ، التزمت الاوساط الحاكمة البريطانية بسياسة عدم التدخل . وكان ذلك يعزى الى الوضع المعقد الذى تورط فيه المستعمرون البريطانيون فى الشرق الاوسط . فان ازمة ١٨٩٤ـ ١٨٩٦ عقدت العلاقات مع روسيا القيصرية ، ومع المانيا جزئيا . كما ازم الصراع من اجل السودان العلاقات مع فرنســـا . ثم ان الحرب الانكلوبويرية (الحرب بين بريطانيا وجمهوريتى ترانسفال واورانج) فى ١٨٩٩ـ١٩٠١ قد عقدت وضع بريطانيا عسكريا ودوليا لدرجة كبيرة . زد على ذلك ان مباحثات سرية جرت فى ١٨٩٨ـ١٩٠١ مع المانيا بصدد التحالف ، ولذلك فلم يكن تعزيز النفوذ الالمانى فى فلسطين بواسطة الصهاينة يشكل خطرا كبيرا .

فى عام ١٩٠٢ تغير الوضـــع تغيرا جذريـــا . فقد سويت التناقضات الانكلوفرنسية مؤقتـــا ، وادت معاهـــدة التحالف الانكلويابانية التى وقعت فى ٣٠ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٢ الى تعزيز مواقع بريطانيا عسكريا وسياسيا فى آسيا وعقدت وضع روسيا القيصرية فى الوقت ذاته . وأدى اخفاق المفاوضـــات الانكلوالمانية بصدد التحالف الى جعل لندن تنظر بمزيد من الحذر الى تقوية النفوذ الالمانى فى الشرق الاوسط .

على هذا النحو كان الوضع الدولى والموقف فى الشرق الاوسط عندما تسلم هرتزل فى تموز (يوليو) ١٩٠٢ دعوة لزيارة لندن ، حيث تم لقاؤه مع ناثانييل روتشيلد واقترح عليه هذا اوغنده... بدلا من فلسطين (٧٣) .

ويسود فى الكتب الصهيونيـــة الزعم القائل بان هذه الفكرة ظهرت اثناء لقاء متاخر بين هرتزل ووزير المستعمرات جوزيف شمبرلين . ويتميز بأهمية كبيرة واقع ان فكرة استيطان المناطق الهامة من الناحية الستراتيجية فى شرق افريقيا تعود الى بنوك روتشيلد . فهذه البنوك الّتى كانت تمتلك فى الواقع حصة الاسهم الاساسية من مؤسسات استخراج المعادن فى جنوب افريقيا قد مارست ضغطا غاية فى الشدة على الحكومة البريطانية فى الاستيلاء على الجمهوريتين البويريتين (ترانسفال واورانج) بقوة الســلاح وابتزت ارباحا طائلة من الاستغلال الاستعمارى لمصر والسودان وكانت من المساهمين الرئيسيين فى الشركة الافريقية الشرقيـــة البريطانية . وكان آل روتشيلد «الاخيار» مهتمين ليس بمصير مئات الآلاف من النازحين اليهود الذين انهالوا من اوربا الشرقية على بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية فى اواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، وليس بفكرة تأسيس دولة يهودية «فى الوطن القديم» فى فلسطين ، بل بامكانية الحصول على عشرات الآلاف من العمال الاجراء لاستيطان اوغنده وكينيا ومد السكك الحديدية الستراتيجية وتعزيز مواقع الامبريالية البريطانيـــة فى افريقيا الشرقية عند مشارف اثيوبيا والصومال الايطالى وتنجانيقا الالمانية . فعبر اوغنده بالذات كان آل روتشيلد يخططون لمد سكة الحديد الهائلة بين كيبتون والقاهرة (وتمديدها فيما بعد الى كلكتا) والتى كان عليها ان تربط ، كما ذكرنا سابقا ، بين «مناطق مصالحهم» الرئيسية ـ مناجم الذهب والماس فى جنوب افريقيـا وبين حقول القطن فى مصر والسودان ، بين قاعدة سايمونستاون البحرية فى جنوب افريقيا والاسكندرية وقنـــاة السويس ، او باختصار كان عليهـــا ان تساعد على تأسيس «هند» اخرى هى

«الهند الافريقية» مع تنصيب كرومر او كيتشنر نائب ملك لها ، على ان تكون خاضعة فى الواقع للاسياد فى لندن .

الا ان هرتزل لم يقبل باقتراح روتشيلد بشأن اوغنده . فقدم مشروعا جوابيا يتلخص فى تسليم شبه جزيرة سيناء مع منطقة مدينة العريش (٧٤) وجزيرة قبرص الى المنظمة الصهيونية العالمية بغية استيطانها . اذن ، فان اهتمام الصهاينة بشبه جزيرة سيناء ومنطقة العريش التى اخترقتها الدبابات الاسرائيلية ابان العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ واحتلتها اسرائيل فى عام ١٩٦٧ قد ظهر فى مستهل القرن العشرين . وحظى مشروع هرتزل هذا باهتمام بنوك روتشيلد ، ولذلك فلا عجب فى ان يتقابل هرتزل فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٢ مع جوزيف شمبرلين الذى تعاون بنشاط مع آل روتشيلد فى فترة التحضير للحرب الانكلوبويرية وفى الاجراءات الاستعمارية الاخرى . وكرر زعيم الصهاينة اقتراحاته . فاشار شمبرلين الى ان قبرص يقطنها اليونانيون والاتراك . وكان هرتزل يعتقد بان ذلك لا يشكل عائقا . وفى حالة موافقة الحكومة البريطانية على تقديم قبرص لاسكانها باليهود على نطاق واسع فان الشركة اليهودية الشرقية ستتأسس على الفور برأسمال قدره ٥ ملايين جنيه استرلينى وستبدأ بشراء الاراضى من القبارصة ، وبعد ذلك يغادر سكان قبرص ديارهم بسلام الى اليونان وتركيا بعد ان يتسلموا تعويضات التنازل عن اراضيهم . الا ان شمبرلين كان يرى فى مشروع قبرص مجازفة ، وعند ذاك توقف الطرفان عند مشروع استطان شبه جزيرة سيناء . وفى ذلك الحين كان قد تأسس التروست الاستعمارى اليهودى (الذى صوره هرتزل اثناء المفاوضات مع شمبرلين بانه الشركة الشرقية القوية) والذى اوكلت اليه اعمال التنقيب التمهيدية فى منطقة العريش . وفى تلك الاثناء

استمرت المفاوضات السرية بين زعماء الصهاينة ووزير خارجية بريطانيا لينسداون وكبار موظفى وزارته ووزارة المستعمرات . وحذر شمبرلين من ان تنفيذ مشروع سيناء لن يتم الا بموافقة كرومر القنصل العام البريطانى فى القاهرة . فتوجه زعيم الصهاينة الى مصر . وكانت نتائج المباحثات فى العاصمة المصرية غير مرضية . فمنطقة العريش ، كما اتضح ، تعانى من نقص المياه . وقد عارض كرومر فكرة شق قناة لاستخدام مياه النيل ، وذلك خشية حدوث اضطرابات فى مصر .

وفى بداية عام ١٩٠٣ جرى لقاء بين هرتزل المخيب الآمال وبين شمبرلين ، حيث اقترح وزير المستعمرات اوغنده من جديد . وفى آب (اغسطس) ١٩٠٣ وجه كليمنت هيل ، نائب وزير خارجية بريطانيا ، الى هرتزل رسالة رسمية اشعره فيها بان الحكومة البريطانية اقرت اتفاقية تسليم منطقة شاسعة فى اوغنده الى التروست الاستعمارى اليهودى بغية استيطانها . ونصت الاتفاقية على اقامة حكم ذاتى فى هذه المنطقة . وتجدر الاشارة الى ان هذه الوثيقة ــ وهى اول اتفاقية بين الحكومة البريطانية والصهاينة ــ قد اعدت فى مكتب الحقوقى والعضو اللبرالى الشاب فى البرلمان انذاك دافيد لويد جورج (٧٥) .

الا ان المؤتمر الصهيونى السادس المنعقد فى بازل فى اواخر آب (اغسطس) ١٩٠٣ رفض المشروع الاوغندى . فقد ارتأت اغلبية المندوبين بانها لن توفق فى اقتياد عشرات الالاف من اليهود الى احراش افريقيا . زد على ذلك ان التناقضات بين الدول الامبريالية كان لها اثر ايضا . فقد كان مقر المنظمة الصهيونية العالمية موجودا فى برلين ، بينما لم تكن الاوساط الحاكمة فى المانيا تميل الى المساعدة على تأسيس مستعمرة يهودية تحت الحماية البريطانية عند حدود افريقيا الشرقية الالمانية .

وطوال الفترة التى سبقت الحرب العالميـــة الاولى ساهمت المنظمة الصهيونية العالمية بنشاط فى مختلف المفاوضات والتدابير الدبلوماسية التى اجرتها الدول الامبريالية بصدد قضايا الشرق الاوسط . وقد ازداد نشاط هذه المنظمة خصوصا فى الاشهر الاولى للحرب . فقد انتهز الزعماء الصهاينة فرصة وجود مقر المنظمة الصهيونية العالمية فى برلين فبدأوا مفاوضات مع وزارة الخارجية الالمانية والاركان العامة الالمانية . ولقاء الوعود بتقديم دعم مالى وسياسى ودعائى للحلف الثلاثى حصل الصهاينة على موافقـــة الاوساط المتنفذة فى برلين على تأسيس وطن قومى يهودى بعد الحرب فى مكان ما فى اوربا الشرقية ، او «فى فلسطين فيمـــا اذا وافقت تركيا» .

غير ان ذلك لم يكن امرا محددا ابـــدا . زد على ذلك ان الصهاينة لم يكونوا واثقين من ان المانيا ستستطيع فى نهايـــة الحرب ان تنفذ التزاماتهـــا . ولذلك بالذات نقلوا مقرهم الى كوبنهاجن المحايدة ، وبدأوا فى الوقت ذاته يمارسون نشـــاطا واسعا فى بريطانيا . ففى اواخر عام ١٩١٤ طرح الزعيم الصهيونى حايم وايزمان (رئيس اسرائيل فيما بعد) فى محادثاته مع عضوى الحكومة البريطانية المتنفذين اللورد صموئيل ولويد جورج ــ طرح بصراحة مسألة تأسيس دولة يهودية ذات حكم ذاتى فى فلسطين تحت الحماية البريطانية ، دولـــة تلتزم بالدفاع عن المصالح البريطانية على مشارف قناة السويس .

وبقدر تدهور الوضع الحربى لدول الوفاق وتزايد مصلحـــة الاوساط الحاكمة البريطانية فى اجتذاب الولايات المتحدة الاميركية الى الحرب فى صفها اخذ يتزايد عدد اعضاء الحكومة المتنفذين الميالين الى تأييد عقد الصفقة مع الصهاينـــة . فقد بذل مارك

سايكس الذى اجرى المفاوضات السرية مع الفرنسيين بشـــأن اقتسام البلدان العربيـــة ، كما اشرنا اعلاه ، جهودا كبيرة لكى يثبت لزملائه الفرنسيين ان الاتفاق مع الصهاينة سيؤدى الى جعل الاوساط المتنفذة من البرجوازية اليهوديـــة فى الولايات المتحدة الاميركية ترغم الرئيس ودرو ولسن على دخول الحرب .

تتضمن البحوث التاريخية الغربية زعما بان الاوساط الحاكمة فى بريطانيا لم تتخذ قرارا حول الاتفاق مع الصهاينة حتى خريف ١٩١٧ . ان هذا الزعم كاذب . فبالرغم من التناقضات التى كانت قائمة فعلا ، والتى سنتحدث عنهـــا ادناه ، اتخذ قرار من حيث المبدأ فى اذار (مارس) ١٩١٦ ، اى عندما كانت السلطة فى يد حكومة اسكويت الليبرالية . ففى ١٣ اذار (مارس) ١٩١٦ سلمت السفارة البريطانية فى بتروغراد وزير خارجية روسيا سازونوف رسالة من وزير الخارجية البريطانى ادوارد غراى جاء فيهـــا : «من الواضح انه يمكن تحقيق نتائج سياسية هامـــة عن طريق استخدام الفكرة الصهيونية . وسيكون من هذه النتائج استمالة العناصر اليهودية فى الشرق والولايات المتحدة الاميركية والمناطق الاخرى الى صف الحلفاء ، بالرغم من ان قسمـــا كبيرا من هذه العناصر يحمل حاليا ميولا معادية لقضية الحلفاء ... ان الهدف الوحيد لحكومة صاحب الجلالة هو العثور على اتفاق ما يستهوى اغلبية اليهود لدرجة كافية ومن شأنه ان يسهل عقد صفقة تؤمن ضمان التأييد اليهودى . ونظرا لذلك تعتقد حكومة صاحب الجلالة انه لو نص المشروع على السماح لليهود ، عندما يتقوى النازحون فى فلسطين لدرجة منافسة السكان العرب ، بان يمسكوا بزمام ادارة الشؤون الداخلية فى هذه المنطقة (ما عدا القدس والعتبات المقدسة) فان الاتفاقية ستكون اكثر جذبا لاغلبية اليهود» (٧٦).

وتدحض هذه الوثيقة بكل اقناع كثيرا من المزاعم الدعائية التى حاولت الدبلوماسية البريطانية التستر بها على نشاطها الاستفزازى المعادى للعرب فى المسألة الفلسطينية . فقد اتضح ان لندن ، حتى فى عام ١٩١٦ حيث كان عدد اليهود فى فلسطين اقل بعشر مرات من عدد السكان العرب ، قد خططت لزيادة كبيرة للنازحين اليهود بحيث يستطيعون «منافسة السكان العرب» . واتضح كذلك ان المستعمرين البريطانيين حتى قبل ان ينتزعوا فلسطين من ايدى زعماء تركيا الفتاة صاروا يأملون بتسليم «زمام ادارة الشؤون الداخلية فى هذه المنطقة» الى الصهاينة . واخيرا تبين رسالة غراى بكل وضوح ان سياسة الامبريالية البريطانية ازاء فلسطين لم يحددها الطموح الى تأمين «وطن قومى للشعب اليهودى» ، بل الاعتبارات السياسية المعينة ، وبالدرجة الاولى الرغبة فى استخدام «الذراع اليهودية» لجر الولايات المتحدة الامريكية الى الحرب العالمية الاولى .

ومما له دلالته ان رسالة غراى المؤرخة فى ١٣ اذار (مارس) ١٩١٦ لم تنشر ابدا فى مجموعات الوثائق الدبلوماسية البريطانية ولم يستخدمها الباحثون الغربيون الذين درسوا ارشيفات وزارة الخارجية البريطانية .

ولقد ذكرنا اعلاه انه كان هناك فى الاوساط الحاكمة البريطانية خلال ١٩١٦–١٩١٧ من عارض التواطؤ مع الصهاينة . ومن بين هؤلاء المعارضين شخصيات بارزة فى الكتلة «الهندية» بزعامة اللورد كيرزون الذى شغل فى حكومة لويد جورج الائتلافية منصبا كبيرا كعضو فى اللجنة العسكرية التى ادارت شؤون البلاد فى الواقع حتى عام ١٩١٨ . وكانت هذه الكتلة الساعية الى تجزئة الامبراطورية العثمانية وضم العراق وجزء كبير من شبه الجزيرة

العربية الى المملكات الانكلوهندية قد عارضت التواطؤ مع الصهاينة لاسباب سياسية وستراتيجية . الا ان كيرزون الذى عارض هذا التواطؤ رأى فى مذكرة سرية خاصة بعنوان «مستقبل فلسطين» ان من الضرورى تمويه هذه الاسبـاب باعتبارات اقتصاديـة واجتماعية وحتى انسانية بحتة . وكتب كيرزون فى ديباجة هذه الوثيقة يقول : «لا انوى مناقشة مسألة هى موضع جدل بين اليهود الصهاينة واليهود المناوئين للصهيونية ، ولا انوى التوفيق بين فكرة انشاء وطن قومى للشعب اليهـودى فى فلسطين وبين الاندماج الطوعى لملايين عديدة من اليهود فى مختلف البلدان التى اكتسبوا فيها وطنا وصاروا يتمتعون بحقوق المواطنين» . وعندما وصل كيرزون الى المسائل العملية اكد بان فلسطين لن تستوعب ، بل ـ وهذا هو الشىء الاهم ـ لن تستطيع اطعـام ١٢ مليون يهودى موزعين فى جميع انحاء العالم . وبالتالى فان تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين لن يحل المشكلة اليهودية . وفى معرض تناول المسائل المتعلقة بسكان فلسطين العرب اشار كيرزون الى «ان العرب واسلافهم عاشوا هنا طوال حوالى الف وخمسمائـة عام . وهم يمتلكون الاراضى العائدة جزئيـا الى مالكين فرديين وجزئيا الى المشاعات الريفية . ودينهم هو الاسلام . فلن يوافقوا على تسليم اراضيهم الى النازحين اليهود والعمل حطابين وسقائين فى خدمتهم» .

وفى معرض الكلام عن الاهمية الدينية لفلسطين قال كيرزون : «لقد تحدثت عن اولئك الذين يحلمون بتاسيس دولة يهوديـة وعاصمة يهودية فى القدس . ان هذه الاحلام مستحيلة التحقيق كليا بسبب وضع القدس نفسها . فان عددا كبيرا جدا من الامم والاديان له مصلحة كبيرة فى هذه المدينة لا تجعل حل المسألة على هذا النحو امرا ممكنا ولو لدرجة ما» .

وكتب كيرزون فى خاتمة وثيقته الضافيـــة يقول : «افليس واضحا انه لا يجوز اطلاق نعت الوطن القومى للشعب اليهودى على بلد لن يستطيع اطعـــام عدد اكبر من السكان طوال فترة كبيرة لدرجة ما ، بلد يقطنه سكانه الاصليون المنتمون الى عرق آخر ودين آخر ، بلد لا يمكن ان تكون له اية عاصمة او اية مدينـــة كبيرة (لان القدس اهم مركز لاديان عديدة) ، بلد لا يصلح الا لتطوير اشكال معينة لتربية الماشية والزراعة ؟» (٧٧) .

وبغض النظر عن الاسباب الكامنة وراء موقف كيرزون وانصاره السلبى ، ليس هناك اى شك فى ان الحجج الواردة فى مذكرته كانت مقنعة للغاية ، وان البعض من الاراء التى ذكرها لا يزال يتســم بأهمية حتى اليوم .

ولقد تناول كيرزون فى مذكرته كذلك الخلاف بين انصـــار الصهيونية ومناوئيها فى اوساط البرجوازية اليهودية فى بريطانيا . وكان من نشطاء المناوئين لفكرة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين وزير شؤون الهند فى حكومة لويد جورج ادفين مونتغيو اليهودى الاصل . وكان من ابرز اعضاء الكتلة «الهندية» فى الطبقة الحاكمة البريطانية ، مما حدد لدرجة غير ضئيلة الموقف السلبى ازاء الصفقة مع الصهيونية . وقد عارض فكرة تحويل فلسطين الى «وطن قومى للشعب اليهودى» كذلك لاسباب سياسية داخليـــة مؤكدا ان تاسيس الدولة اليهودية او المنطقة ذات الحكم الذاتى فى فلسطين سيضعف مواقع اليهود فى البلدان التى لا يتمتعون فيهـــا بحقوق متكافئة ، كما فى البلدان التى يتمتعون فيها بجميع حقوق المواطنة. واكد مونتغيو ان هذا المشروع يعرض للشكوك وطنية البريطانيين المنحدرين من اصل يهودى وهلمجرا (٧٨) .

الا ان مصالح الطبقة الحاكمة البريطانيـــة التى كانت تسعى باكملها الى كسب الحرب مهما كلف الثمن والتى حاولت من اجل ذلك ان تجعل الولايات المتحدة الاميركية تساهم فيها بنشـــاط متزايد قد دفعت الامبريالية البريطانية الى دعم الخطط الصهيونية فى فلسطين . ففى ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ اطلع وزير خارجيـــة بريطانيا بلفور مجلس الوزراء على ان الرئيس الاميركى ولسن المطلع على المشاريع الفلسطينية «نظر الى الحركة الصهيونية نظرة فى غاية الرضاء» . وافـــاد بلفور فى الوقت ذاته «ان الحكومـــة الالمانية تسعى بكل الوسائل الى كسب عطف الصهاينة» (٧٩) .

وهكذا اتضحت خاصيتان اخريان من خصـــائص الحركـــة الصهيونية ، الا وهما الارتباط الوثيق مع الاوساط الحاكمة فى الولايات المتحدة الاميركية وسعى الزعماء الصهاينة الى استخدام عدة اوراق رابحة مرة واحدة فى اللعبة السياسيـــة ، او ، على الاقل ، ممارسة الشانتاج ضد خصومهم بالاعلان عن وجود مثل هذه الاوراق الرابحة .

وادى ذلك كله الى جعل كيرزون ومونتغيو وغيرهما من مناوئى الخطط الصهيونية يكفون عن الاعتراض . وقد اكد لويد جـورج «ان الاعتبارات الدبلوماسية والعسكرية الملحة ارغمت الجميع فى اخر المطاف على اتخاذ قرار اجماعى» (٨٠) .

وفى ٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٧ وجه بلفور رسالـــة رسمية الى لايونيل روتشيلد جاء فيها : «ان حكومة صاحـــب الجلالة تنظر بعين العطف الى تاسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وهى مستعدة لاتخاذ جميع التدابير لتسهيل بلوغ هذا الهدف علما بانه لن يتخذ طبعا اى اجراء من شانه ان يلحـــق ضررا بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة

فى فلسطين ...» (٨١) . وكان هذا هو بيان بلفور الذى اصبح اساسا حقوقيا لتاسيس اسرائيل بعد ٣٠ عاما . وعندما قدمت الحكومة البريطانية هذا البيان الكثير الوعود الى الصهاينة خرقت التزامين من التزاماتها السابقة : للفرنسيين بشان اقامة حكم ثنائى فى فلسطين ، وللعرب بشأن ضم فلسطين الى الدولة العربية المستقلة المنتظرة . ولدينا كل الحق فى القول بان احدى القوى المحركة الرئيسية (المموهة للغاية) التى ادت الى اقرار بيان بلفور هى سعى الاوساط الحاكمة فى بريطانيا الى الحصول على حجة ملائمة للتنصل عن تنفيذ هذين الالتزامين .

وتدل الوثائق المذكورة على ان الاوساط الحاكمة البريطانية قررت لامد طويل قبل نشر بيان بلفور ان لا تنفذ التزاماتها التى نصت على عدم اتخاذ «اى اجراء من شانه ان يلحق ضررا بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين» . فقد وردت فى رسالة ادوارد غراى الى وزير خارجية روسيا القيصرية بتاريخ ١٣ اذار (مارس) ١٩١٦ اشارة الى ان السلطات البريطانية تنوى اتخاذ كل الاجراءات لتعادل تعداد السكان اليهود مع العرب ، اى لزيادة عدد السكان اليهود بعشر مرات وتسليم ادارة الشؤون الداخلية فى البلاد الى الصهاينة . ويعنى ذلك ان لندن قد قررت فى الواقع قبل عام ونصف من نشر بيان بلفور تحويل السكان العرب الاصليين وعددهم تسعة اعشار سكان فلسطين الى اقلية محرومة من الحقوق ! ونحن نعرف ان هذه الخطط كانت قد اخجلت حتى كيرزون الذى هو من غلاة المستعمرين .

ان خطة تأسيس الوطن القومى اليهودى ، ثم الدولة اليهودية فيما بعد فى فلسطين (كما اعترف بلفور فى جلسات مجلس الوزراء

البريطانى فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٨) قد خرقت التزام بريطانيا بتأسيس الدولة العربية الموحدة المستقلة من قناة السويس حتى بغداد ومن البحر الابيض المتوسط حتى الخليج العربى ، وهو الالتزام الذى ورد فى المراسلات بين مكماهون والشريف حسين . اما ان الالتزامات البريطانية كانت تنص بكل وضوح على ادراج فلسطين ضمن الدولة العربية الموحدة فهو امر اكده رسميا اللورد كيرزون فى جلسة اللجنة الشرقية التابعة للحكومة البريطانية فى ٢٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٨ . فقد اعلن كيرزون قائلا : «ان وضع فلسطين هو كالاتى : اذا انطلقنا من التزاماتنا فان اولها هو الالتزام الذى قدمناه الى الحسين فى تشرين الاول ١٩١٥ والذى نص على ادراج فلسطين ضمن المنطقة التى اعطت بريطانيا ضمانات بانها ستكون عربية كليا ومستقلة تماما» (٨٢) . ومما له دلالة كبيرة ان هذا التصريح الهام جدا والصادر عن رئيس اللجنة الشرقية كيرزون ظل سريا للغاية طوال ٥٠ عاما . وهيأ هذا الامر للمدافعين عن الامبريالية البريطانية امكانية الزعم بان فلسطين كانت مستثناة من الاتفاقية مع العرب ، وبالتالى فان بيان بلفور لم يكن يتعارض مع الاتفاق بين مكماهون والحسين ولم يكن خيانة اقترفتها بريطانيا بحق العرب .

ولقد استثنت خطة تأسيس الوطن القومى اليهودى فى فلسطين امكانية قيام دولة عربية مستقلة حتى بدون فلسطين ، وذلك لانها دقت اسفينا صهيونيا فى قلب الاراضى العربية فجزأت هذه الاراضى التى كان ينبغى ان تدخل فيما بعد ضمن هذه الدولة ، فقد فصلت الحجاز مثلا عن سوريا والعراق . وسنستعرض ادناه الطرق التى حاولت الدبلوماسية البريطانية بواسطتها التستر على سلوكها المشين فى هذه المسألة وتضليل العرب مرة اخرى .

ذكرنا ان احد اهداف المستعمرين البريطانيين من نشر بيان بلفور هو نسف اتفاقية سايكس ـ بيكو . علما بان لندن كانت تستهدف ليس فقط حرمان الفرنسيين من المساهمة فى الحكم الثنائى فى فلسطين . وكانت مطالب المستعمرين الفرنسيين الملحة فى تحويل سوريا الى مستعمرة لهم قد اثارت قلق لورنس وغيره من الانصار النشطاء لتحويل العالم العربى الى «هند عربية» (وقد وصف لورنس ذلك «بدومنيوننا البنى الجديد») . وتقرر ان يستخدم فى مكافحة المطامع الفرنسية غموض مفهوم «فلسطين» من الناحية الجغرافية وعدم تحديده . ولقد ذكرنا ان الاراضى العربية فى هذه المنطقة هى ولاية دمشق وسنجق بيروت وسنجق القدس . وكان المستعمرون الفرنسيون الذين وافقوا ، بعد تردد طويل ، على بيان بلفور (لقاء تعويضات استعمارية اخرى) يميلون الى حصر فلسطين فى اراضى سنجق القدس . الا انه ليس عبثا ان يعتبر لويد جورج مطلعا على التوراة . فقد كان يضمن خطبه العديدة فى البرلمان مقتطفات من التوراة . وقد اعلن مخاطبا كليمنصو على الفور ان بيان بلفور نص على اراضى فلسطين حسبما تشير التوراة من بانياس الى بئر السبع . وادرجت هذه الموضوعة فى جميع الاراء البريطانية اللاحقة بشأن فلسطين . وتحدث كيرزون فى جلسة اللجنة الشرقية التابعة لمجلس الوزراء البريطانى فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ فاعلن وهو ينفذ توجيهات رئيس الوزراء : «اعتقد باننا نوافق جميعا على ضرورة بعث فلسطين فى حدودها القديمة . فالصيغة القديمة : من بانياس الى بئر السبع لا تزال هى السائدة . وبغض النظر عن التقسيم الادارى اللاحق لفلسطين ، بغض النظر عما اذا ستكون يهودية او عربية او يهودية عربية ، يجب ان تعاد اليها حدودها حتى الليطانى على الساحل وحتى

بانياس على البر» (٨٣) . ان توسيع حدود فلسطين فى الشمال حتى مصب نهر الليطانى يعنى ضم لبنان الجنوبى بأسره اليها ، اى ضم القسم الاكبر من سنجق بيروت، بما فيه ميناء صور الهام. كما تعنى الحدود حتى بانياس ضم مرتفعات الجولان الهامة جدا من الناحية الستراتيجية الى فلسطين . ان سخاء كيرزون ، عدو الصهاينة اللدود حتى فترة متاخرة ، يعزى الى ان اى توسيع للاراضى الفلسطينية باتجاه الشمال يعنى تقليص اراضى سوريا ـ هدف الفرنسيين المنشود واضعاف مواقع المنافسين الفرنسيين فى العالم العربى . وقد التزم كيرزون بموقف مغاير ازاء الحدود الشرقية والجنوبية لفلسطين : «الصهاينة يوجهون انظارهم نحو الشرق الى اراضى شرقى الاردن حيث التربة اكثر خصبا وحيث تتفتح امكانيات واسعة فى المستقبل ... وسوف نضطر ، دون شك ، الى مواجهة تزايد الحركة بين الصهاينة من اجل ان تضم الى فلسطين اراض لم تدخل ضمن حدودها منذ قرون عديدة ، بل ومن المحتمل انها لم تكن قد دخلت ضمن حدودها ابدا ، اراض يعتبرها العرب جزءا من ممتلكاتهم . واخيرا يبقى ان تحل مسألة الحدود الجنوبية . فهناك اراء مختلفة بصدد هذه المسألة . فمن جهة يقال ان الاراضى الصالحة للزراعة جنوبى غزة ينبغى ان تشكل جزءا من فلسطين ، لان تلك مسألة حياة او موت لسكانها . ويمكن ان يقال على النقيض من ذلك : لا تعقدوا المشكلة الفلسطينية ولا تدرجوا ضمنها بدو الصحراء الذين يتطلعون الى سيناء ولا يمتون باية صلة الى فلسطين» (٨٤) .

اننا نسهب فى الاستشهاد بخطاب كيرزون لانه يكشف عن النوايا العدوانية للزعماء الصهاينة الذين خططوا للاستيلاء على شبه جزيرة سيناء وكلتا ضفتى الاردن قبل اربعين عاما من العدوان

الثلاثى على مصر وقبل خمسين عاما من الهجوم على الاردن . ويفسر موقف كيرزون الانتقادى فى هذه الحالة بان الصهاينة الذين طمعوا فى توسيع حدود فلسطين فى الجنوب والشرق اقتحموا منطقـــة النفوذ البريطانى وليس النفوذ الفرنسى كما هو الحال بشأن الحدود الشمالية .

وخلال جلسة اللجنة الشرقية التابعة لمجلس الوزراء البريطانى فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ حاول انصار الصهاينة تأييـــد مطامعهم فى توسيع الحدود باتجاهى الجنوب والشرق مستشهدين باقوال بعض الزعماء الصهاينة من ان الامتناع عن تحقيق مطالبهم سيدفعهم «الى تأييد البلشفية فى جميع البلدان» . فعلق نائب وزير الخارجية اللورد سيسيل ساخرا : «بودى ان ارى كيف يسير روتشيلد على رأس مظاهرة بلشفية» (٨٥) .

ولقد ادت مشكلة الحدود الشمالية لفلسطين الى زيادة حـدة التناقضات الانكلوفرنسية لدرجة كبيرة فى الشرق الاوسط . فقد أيد لويد جورج تأييدا كبيرا فى خطبه العديدة فى جلسات المجلس الاعلى لدول الوفاق عام ١٩٢٠ توسيع اراضى فلسطين بالاتجاه الشمالى مستشهدا هذه المرة ليس بالتوراة وحدها، بل وبضرورة تامين المياه لفلسطين . فقد اعلن قائلا : «ستتحول فلسطين بدون ماء الى صحراء . واليهود مجمعون على الاعتقاد ان منابع المياه فى جبل الشيخ ومياه اعالى الاردن ضرورية لحياة هذه البلاد . ومن ناحية اخرى لا تشكل هذه المياه اية اهمية لاولئك الذين يسيطرون على سوريا» (٨٦) . ان هذا التصريح يتميز باهمية لانه، اولا، يدل على خطط الصهاينة وحماتهم البريطانيين البعيدة المدى . فان منابع نهر الاردن وجبل الشيخ واقعة فى اعماق الاراضى السورية على المشارف البعيدة لدمشق . وثانيا ـ لان طريقة لويد جورج فى

التستر على خطط الغزو الاقليمى بالاهتمام المرائى بتامين المياه لفلسطين قد استخدمها زعماء اسرائيل الصهاينة خير استعمال قبيل العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ .

ومما يدل على تفتح شهية الزعماء الصهاينة فى فترة مؤتمر باريس السلمى ، اى قبيل استلام بريطانيا وثيقة الانتداب فى فلسطين مباحثات زعيمى الصهاينة الاميركان براندايس وفرانكفورتر (سنتحدث عنهما بالتفصيل فى الفصل الخاص بالتوسع الاميركى فى العالم العربى) مع بلفور فى حزيران (يونيو) ١٩١٩ . فقد استفاد براندايس من صلاته الودية مع ولسن الذى كان موجودا فى باريس ايضا انذاك فطلب من بلفور ان يدرج ضمن حدود فلسطين المناطق الواقعة على الضفة الشرقية للاردن . وردا على اعتراض وزير خارجية بريطانيا الذى اكد استحالة تنفيذ هذا الطلب ، لان فى تلك المنطقة تمر سكة حديد الحجاز العزيزة على افئدة المسلمين والتى بنيت بنقودهم خصيصا لاغراض الحج الى مكة ، وافق براندايس مقتنعا بالاراضى الواقعة غربى السكة الحديدية . ووافق وزير الخارجية البريطانى بدوره على هذا الاقتراح بكل سرور (٨٧) . غير ان ذلك فى الواقع كان يعنى المصادقة على ضم كامل القسم الغربى من شرق الاردن الاكثر خصبا الى فلسطين .ومما له دلالته ان المستعربين والمتخصصين بالصهيونية الغربيين لم يستخدموا ولا مرة واحدة تسجيل حديث براندايس وفرانكفورتر مع بلفور مع ان هذا التسجيل نشر قبل اكثر من ٢٠ عاما .

فى عام ١٩٢٠ وقعت الاوساط الحاكمة البريطانية اتفاقية مساومة مع فرنسا . وقد وافقت هذه الاوساط على تسليم سوريا

لفرنسا وتنازلت لها بشان مسالة الحدود الشمالية لفلسطين واستطاعت لقاء ذلك ان تحصل على تخلى المستعمرين الفرنسيين عن اتفاقية سايكس ـ بيكو وموافقة باريس على تسليم فلسطين الى بريطانيا . وفى ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ صادق مؤتمر سان ـ ريمو رسميا على وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى . وصادق مجلس عصبة الامم على نص اتفاقية الانتداب فى ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ . وادرج فى نص الاتفاقية بمثابة جزء لا يتجزأ منه بيان بلفور الذى تحول على هذا الاساس من التزام بريطانى الى وثيقة رسمية لعصبة الامم . واحرز الصهاينة بذلك نصرا آخر .

الامبريالية البريطانية والصراع
من اجل العالم العربى
بعد الحرب العالمية الاولى .
اسطورة لورنس «العربى»

ادى ذلك كله الى تزايد تذمر الرأى العام لدرجة كبيرة جدا فى البلدان العربية . وكان الرأى العام العربى على حق عندما اعتبر الحكومة البريطانية خائنة بحنثها بالالتزامات المسطرة فى الاتفاقية بين مكماهون والشريف حسين . وكانت هذه الاتفاقية قد عقدت فى عام ١٩١٦ ، فى اكثر فترات الحرب العالمية الاولى تعقدا وخطرا على دول الوفاق وعلى بريطانيا خصوصا . واستنادا الى هذه الاتفاقية دعا شريف مكة الحسين الهاشمى العرب الى الانتفاضة ضد الاتراك ، وبدأت هذه الانتفاضة فى ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٦ . وسرعان ما استولت فصائل الانتفاضة بقيادة

ابناء الحسين الامراء على وعبد الله وفيصل وزيد على جدة وينبع والطائف وحاصرت الاتراك فى المدينة المنورة . وانقطعت القوات التركية المرابطة فى عسير واليمن عن سوريا والحجاز .

ارتعب حكام تركيا من انتصارات العرب غير المتوقعة فوجهوا امدادات كبيرة الى الحجاز وفلسطين . وطلب الحسين معونة من بريطانيا . الا ان المستعمرين البريطانيين فى لندن والقاهرة لم يكونوا فى عجلة من امرهم . فالمستعمرون البريطانيون كانوا يريدون القتال بالحراب العربية ، هذا اولا . وثانيا لم تكن لهم وهم مشغولون بمفاوضاتهم السرية مع فرنسا حول اقتسام البلدان العربية ومع الصهاينة حول تاسيس وطن لليهود فى فلسطين اية مصلحة فى الانتصارات العربية السريعة جدا والتى يمكن ان تؤدى الى المطالبة بتنفيذ اتفاقية مكماهون-الحسين . ورفض البريطانيون تقديم الطائرات والمدفعية للعرب ، ولم يبعثوا الى الحجاز الا كميات غير كبيرة من الاسلحة الخفيفة العتيقة الطراز . وبالنتيجة صارت قوات فيصل وزيد فى اواخر عام ١٩١٦ تحارب ببندقية واحدة لكل خمسة من مقاتليها .

وبعد ان عرقلت القيادة البريطانية زحف الفصائل العربية عجلت فى احتلال فلسطين بقواتها النظامية التى هجمت من مصر على شبه جزيرة سيناء . الا ان القيادة التركية استطاعت بمساعدة الضباط الالمان ان توقف هذا الهجوم وتنشئ خطا دفاعيا قويا بين غزة وبئر السبع . وانتهت بالاخفاق كلتا محاولتى القوات البريطانية لاختراق هذا الخط . وعند ذاك بالذات اقترح هوغارت وكلايتون المشرفان على المكتب العربى فى القاهرة على القيادة

البريطانية العليا نقل حرب الانصار العربية من الحجاز الى الشمال ، الى فلسطين وما وراء الاردن . وكان على المفارز العربية المغيرة ان توجه الضربة الى جناح الجيش التركى وتقطع سكة حديـــد الحجاز وتخلق الذعر والبلبلة فى مؤخرة العدو فتسهل على القوات البريطانية اختراق خط دفاع غزة-بئر السبع واحتلال فلسطين . وهنا قـــد جاء دور لورنس . فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٦ حل لورنس فى ينبع ، فكسب ثقة فيصل واصبح فى الواقع قائدا للمجموعة الشماليـة للقوات الحجازيـــة . وفى ايار ـ حزيران (مايو ـ يونيو) ١٩١٧ قام لورنس على رأس مفرزة غير كبيرة بحملة بعيدة عبر الصحراء فاحتل العقبة من المؤخرة فى ٥ تموز (يوليو) ١٩١٧ . وبالنتيجة طهر العرب ساحل البحر الاحمــر من الاتراك كليا وانضموا الى الجيش البريطانى المرابط انــذاك فى شبه جزيرة سيناء ووضعوا ميناء العقبة الملائم للغاية تحت تصرف القيادة البريطانية .

وكان الاستيلاء على العقبة فاتحة اختلاق اسطورة لورنس التى ابتدعها حماة الاستعمار البريطانى وزينوها بكل الوسائل طــوال زهاء خمسين عاما . وتكونت فى بريطانيا عبادة حقة لشخصيــة لورنس ، عبادة لشخصية الفارس المغوار المتيم بحب العـــرب والذى لا يعرف هدفا من حياته غير تأسيس دولة عربية جبـــارة مزدهرة . ولقد لعب دورا كبيرا فى اختلاق اسطورة لورنس ونشر عبادة شخصيته الى اقصى حد ونستون شرشل والنظرى العسكرى الانجليزى الكبير الكولونيل ليدل هارت والصحفى الاميركى المعروف لوفيل توماس والقائد العام للقوات البريطانية فى مصر الفيلدمارشال أللنبى وزعيم الفاشيين البريطانيين موسلى وكبار صحفيى بريطانيا ومخرجو فيلم المغامرات الانجليزى الشهير « لورنس العربى » .

الا ان اكثر المتحمسين لهذه الاسطورة واشدهم ابتكارا هـو ، بالطبع ، لورنس نفسه الذى كتب مؤلفا كبيرا يحمل عنوانا من التوراة «اعمدة الحكمة السبعة» واصبح هذا الكتاب بمثابة تمثال نحته لنفسه فى حياته . كانت اسطورة لورنس جزءا من البناء الايديولوجى لكيان الامبراطورية البريطانية الشاسعة ، وتمجيدا لهذه الامبراطورية عندما بلغت اوج توسعها الاقليمى واخذت فى الوقت ذاته تتزعزع تحت الضربات التى وجهتها الى الاستعمار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى .

ولم تفتضح اسطورة لورنس الخرافية الا فى السنوات الاخيرة حيث ظهر مؤلف الكاتب الانجليزى الشهير ريتشارد اولدينغتون «لورنس العربى» ومؤلف الكاتب العربى المعروف سليمان موسى «لورنس : وجهة النظر العربية» وكتاب الصحفيين الانجليزيين فيليب نايتلى وكولن سيمبسون «حياة لورنس العربى السرية» ، وهو كتاب اعتمد على الوثائق السرية للورنس نفسه . ان فضح اسطورة اخر فارس للامبراطورية البريطانية لم يكن قد جاء من قبيل الصدفة فى نفس فترة انهيار هذه الامبراطورية وفقدان المستعمرين البريطانيين اخر مرتكزاتهم فى العالم العربى . واتضح ان استيلاء لورنس على العقبة لم يكن عملية ستراتيجية عبقرية قامت بها مفرزة من ٣٠ شخصا ، بل صفقة مالية كبيرة للغاية .

فقد سلم لورنس الى الضباط الاتراك المرتشين مبلغا هائلا بمقدار ٢٠ الف جنيه استرلينى ذهبى . وكان يسود الاعتقاد خلال فترة طويلة ان احدى صيغ التحية التى كان يواجه بها الاعراب والبدو لورنس وهى «اهلا وسهلا يا ابا الخيال» تعبر عن الاحترام العميق والتقدير لفروسية لورنس . ولكن الواقع

الذى اتضح مؤخرا يدل على ان الامر ليس كذلك ابدا . فان الجنيهات الاسترلينية الذهبية التى وزعها لورنس بسخاء قرب العقبة وفى المناطق الاخرى التى قام فيها «بمآثره» العسكرية عليها نقش «خيّال» هو حامى بريطانيا القديس جورجيوس على ظهر حصانه .

ويصف لورنس فى كتابه «اعمدة الحكمة السبعة» المآثر التى حققها خلال غارة مفرزته عبر الصحراء على العقبة . ويحصى لورنس مختلف اعمال التخريب مثل تدمير عدد من اقسام سكة حديد الحجاز ونسف عدة جسور هامة . وفى التقرير السرى الرسمى الذى وجهه لورنس الى المكتب العربى فى القاهرة بتاريخ ١٠ تموز (يوليو) ١٩١٨ يبالغ لدرجة اكبر فى تزيين مآثره . ومنها مثلا ان لورنس ارتدى بدلة نسائية ، عندما كانت مفرزته الصغيرة تستعد للاستيلاء على العقبة ، وقام بجولة طوال اسبوعين تقريبا فى مؤخرة الاتراك فى فلسطين وسوريا وزار تدمر وبعلبك ، حيث تقابل سرا مع الركابى العربى الاصل والضابط فى الجيش التركى . وبالاضافة الى ذلك اجرى مفاوضات مع بعض الشيوخ العرب بغية الحصول على موافقتهم ، وموافقة الركابى ، على ممارسة العمل التخريبى والتجسسى ضد الاتراك (٨٨) . وتقديرا لهذه «المآثر» بالذات منح لورنس احد الاوسمة السامية البريطانية نعنى وسام باثى . الا ان لورنس ، (وهذا امر اكده المؤرخ العربى سليمان موسى بصورة لا تدحض) ، لم يغادر مفرزته خلال فترة الحملة على العقبة اكثر من يوم واحد ابدا . واكد العرب الذين عرفوه جيدا انه لم يكن يستطيع البقاء متنكرا لامد طويل ، فهو قليل المعرفة بمنطقة ما وراء الاردن ـ جنوب سوريا ، ثم ان لكنته الاجنبية تفضحه دوما . ولذلك فما

كان يبتعد لامد طويل عن مفرزته عادة بدون مرافقيه العرب (٨٩) . اذن فان ملحمة غارة الاسبوعين المزركشة والتخريبات والمفاوضات ما هى الا شيء من ابتداعات لورنس . ويجد المرء الكثير جدا من هذه الافتراءات والمبالغات فى الاسطورة عن لورنس ، وقد سطر لورنس نفسه اكثر فصول هذه الاسطورة اثارة .

فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ اخترق جيش اللنبى المتفوق بمرات عديدة من حيث القوات البشرية والآليات الحربية على العدو خط الدفاع التركى بين غزة وبئر السبع . وفى ٩ تشرين الاول دخلت القوات البريطانية القدس . وفى تلك الاثناء اندلعت فى مؤخرة الاتراك ــ فى سوريا وما وراء الاردن انتفاضة العرب الشاملة (وبالمناسبة فقد اندلعت بدون اية مشاركة من لورنس) . وساهم فيها الحضر والبدو الرحل وكذلك العرب المجندون فى الجيش التركى . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ طوقت القوات النظامية البريطانية الجيوش التركية الثلاثة فبدأت الهجوم على دمشق . وفى ٣٠ ايلول ــ ليوم واحد قبل دخول قوات اللنبى المدينة ــ دخلتها الوحدات العربية التابعة لفيصل ــ لورنس . ويتميز هذا الامر باهمية خاصة . فقد اقترح زعماء الحركة التحررية السورية على لورنس وفيصل البدء بالهجوم على دمشق فور احتلال العقبة فى تموز (يوليو) ١٩١٧ . الا ان ذلك اثار السخط فى لندن . فان تحرير سوريا على يد الفصائل العربية من شانه ان يطرح مسألة تنفيذ اتفاقية مكماهون ــ الحسين بشأن تاسيس الدولة العربية الموحدة . ولذلك اوضح لورنس للسوريين بانه لا يستطيع الموافقة على اقتراح يؤدى تنفيذه الى وقوع ضحايا كبيرة من بين «اخوانه العرب» . ولكن ما الذى دفع

الجنرال اللنبى للسماح بدخول وحدات فيصل ـ لورنس الى دمشق فى ايلول ١٩١٨ قبل ان تدخلها القوات البريطانية ؟ وفى هذه الحالة ايضا لم يتغير السبب وهو اضعاف مواقع الفرنسيين فى سوريا ونسف تطبيق اتفاقية سايكس ـ بيكو مهما كلف الثمن. وتدل وثائق المكتب العربى فى القاهرة ووثائق اللجنة الشرقية التابعة لمجلس الوزراء البريطانى على ان ذلك كان هو الهدف المنشود للورنس نفسه . فان ميوله المعادية للفرنسيين تنضح بها كل تقاريره الرسمية . كان لورنس يسعى الى تنصيب فيصل الواقع تحت تأثيره على عرش سوريا ، وبذلك يحرم منافسيه الفرنسيين من الغنيمة الرئيسية ، حيث يحول سوريا الى محمية بريطانية . ولذلك بالذات دخلت وحدات فيصل دمشق قبل يوم واحد من دخول القوات البريطانية اليها وذلك حسب خطة اعدت مسبقا فى هيئة اركان اللنبى . فقد كان مقررا لفيصل ـ المحرر ان يصبح بمساعدة لورنس ملكا لسوريا باسم القديس جورجيوس ولصالح بريطانيا التى يحميها هذا القديس . ولكى لا تظهر لدى القوميين السوريين الذين لم يكونوا يحبون فيصل اية مشاريع اخرى او اى مرشحين آخرين لهذا المنصب دخلت قوات اللنبى دمشق فى اليوم التالى .

واحرز الامبرياليون البريطانيون انتصارات ليست اقل من تلك فى العراق ايضا . ففى ١١ اذار (مارس) ١٩١٧ دخلت الوحدات الانكلوهندية بغداد . وحتى نهاية العام المذكور احتلت هذه القوات شمال العراق . وفى النصف الاول من عام ١٩١٨ اصبح العراق بأسره تحت سيطرة الادارة الاستعمارية الانكلوهندية .

وفى ٣٠ تشريـــن الاول (اكتوبر) ١٩١٨ وقع ممثلـــو الامبراطورية العثمانية على متن الدارعة البريطانية «اغاممنون» فى ميناء مودروس (جزيرة ليمنوس) شروط الهدنة التى املاها عليهم اميرال بريطانى . ونصت المادة السادسة عشرة من هـــذه الوثيقة على تسليم جميع القوات التركيـــة الموجودة فى البلدان العربية الى الحلفاء وتصفية الادارة التركية فورا فى لبنان وسوريا وفلسطين والعراق والحجاز وعسير واليمن . كما نصت اتفاقية الهدنة على تخلى تركيا عن اية مطامع فى الكويت وامارات الخليج العربى الاخرى . وتمت تصفية السيطرة العثمانيـــة على العالم العربى بعد ان استمرت اربعة قرون . وواجهت الامبرياليـــة البريطانية مهمة معقدة متعددة الجوانب ، الا وهى ضـــم العالم العربى الى الامبراطورية البريطانية مهما كلف الامر ، وتقليص حصة فرنسا من الغنيمة العربية الى الحد الادنى وشطب اتفاقيـــــة سايكس ـ بيكو البغيضة وتمزيق اتفاقيـــــة مكماهون ـ الحسين والحيلولة دون تنامى الميـــــول التحررية والوحدوية فى العالم العربى .

اوضحنـــا اعلاه كيف عمـــــل الدبلوماسيون والجواسيس والجنرالات البريطانيون بتفنن ونشاط فى تحقيق هذه الاهداف ، وكيف سعـــــوا الى الاستفادة من الصهاينة ومن شعار «الوطن القومى اليهودى فى فلسطين» لمكافحة منافسيهـــــم الفرنسيين و«الاصدقاء» العرب .

وتدل وثائق ارشيف الدولة فى بريطانيا ومحتويات كتاب نايتلى وسيمبسون «حياة لورنس العربى السريـــــة» على ان «صديق» العرب لورنس قد ابدى اعجابه صراحة بزعيم الصهاينة وايزمان واحتقاره للعرب . فعندما وصل الى لندن عام ١٩١٩

اعلن على المكشوف : «تعبت حتى الموت مـــــن هؤلاء العرب» (٩٠) . ويتجلى فى رسائل لورنس الشخصية موقفه المتقزز والمشوب بالاحتقار والكبرياء ازاء الامة العربية التى اسهمـــت مساهمة كبيرة فى الحضارة العالمية والتى يقارن لورنس ابناءها مع «الحيوانات الطيبة» من رواية سويفت «اسفار كلفر» . ولا يرى لورنس نفسه ملزما بالوعود والعهود التى قطعها للعرب فهو يعترف قائلا : «اعتقد ان المساعدة العربية ضرورية لانتصارنـــا الرخيص السريع فى الشرق . واعتقد ان الحنث بالوعد وتحقيق النصر افضل من التمسك بالوعد وتكبد الاخفاق» (٩١) .

كان لورنس يدرك ان التقارب بين الصهاينة والهاشميين اكثر نفعا للامبريالية البريطانية لانه كان يضعف المواقع الفرنسية فى العالم العربى ويعزل كبار الاقطاعيين العرب عن الجماهير الشعبية الواسعة ويعقد تطور الحركة المناوئـــة للامبريالية فى الشرق الاوسط ويساعد على تحويـــل فلسطين الى رأس جسر بريطانى . ولذلك عمل لورنس بنشاط كبير فى تنفيذ هذه الخطة . ففى ٢١ شباط (فبراير) ١٩١٨ كتب الى رئيســـه فى المكتب العربى كلايتون يقول : «انني استخدم تأثيرى على فيصل لكى تكون معاملة اليهود فى فلسطين من قبل العرب افضل معاملة . وبعـــد وصول فيصل الى القدس سننظم اللقاء اللازم من جانب اليهود . وهذا ، على ما يبدو ، هو ما يلزمك فى الوقت الحاضر» (٩٢) .

وفى النصف الثانى من عام ١٩١٨ اضطر لورنس ، بسبـــب تنامى الحركة المناهضـــة للامبرياليـــة فى العالم العربى وسعى الاوساط الحاكمة فى فرنسا الى الحفاظ على مواقعهـــا فى هذه المنطقة ، الى الاعتراف بان حلمه فى تحويـــل العالم العربى الى «دمنيون بنى» للامبراطورية البريطانية غير قابل للتحقيـــق فى

المرحلة الراهنة . ولذلك فقد اقترح حلا آخر . ففى خطاب القاه فى جلسة اللجنة الشرقية لمجلس الوزراء البريطانى فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٨ اوصى بتجزئة العالم العربى الى عدة ممالك تحت سلطة الهاشميين اسميا . ونص اقتراح لورنس على ان تكون ولاية بغداد وولاية البصرة مملكة عراقية بزعامة عبد الله ، وان تشكل ولاية الموصل امارة منفصلة بزعامة زيد الابن الاصغر للشريف حسين ، وان يكون فيصل طبعا ملكا لسوريا . وفى ختـــــام الخطاب اعلن لورنس بصورة غير متوقعة : «وان فيصل يرى ان تكون له الحرية التامة فى اختيار مستشاريه ، ولذا قرر ان يدعو يهودا صهاينة بريطانيين او اميركيين ليكونوا مستشارين له» (٩٣) . وتـدل الرسالة التى وجهها لورنس الى زميله الان دوانى الذى يشاطره اراءه فى الشؤون العربية بتاريخ ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ على ان لورنس يأمل باستخدام الصهاينة لتعزيز النفوذ البريطانى ليس فى فلسطين وحدها . ففى هذه الرسالة كتـــب لورنس فى معرض تطويره لموضوعة «التقارب بين العرب والصهاينة» عن الصهاينة يقول : «انهم ، كما آمل ، سيمولون الشرق كله ، بما فيه سوريا والعراق . فالماليون اليهود المتنفذون لا يريـــدون توظيف رساميل كبيرة فى فلسطين وحدها ، لان هذه البلاد لن تعطيهم الكثير لقاء ذلك ، ما عدا الذكريات العاطفية . ولكنهم يريدون فائدة ٦٪» (٩٤) .

وبغية تامين الاتصال اللازم بين الصهاينـــــة والهاشميين ، وبالدرجة الاولى مع فيصل ، وتحرير الدبلوماسية البريطانية من تهمة الخيانة المتجسدة فى بيان بلفور ازاء العرب ، استخدمت الاوساط الحاكمة البريطانية لورنس نفسه ، وليس بدون توفيق ، ففى ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ و٣ كانون الثانى (يناير)

١٩١٩ جرى لقاءان فى كارلتون هوتيل فى لندن بين الامير فيصل الذى ترأس الوفد العربى الى مؤتمر باريس السلمى وبين رئيس المنظمة الصهيونية العالمية وايزمـــــان . وكان اللقاءان سريين للغاية . وكان الشاهد الوحيد فى اللقائين هو لورنس الذى قام بدور المترجم فى الوقت ذاته . ونتيجة للمباحثات وقع فيصل ووايزمان فى ٣ كانون الثانى ١٩١٩ اتفاقية بصـــــدد النظام المرتقب فى فلسطين . ولم تنشر هذه الاتفاقية الا بعد سنين عديدة . وطوال حوالى نصف قرن كان الدعـــــاة والمؤرخـــون والدبلوماسيون البريطانيون يستشهدون بهذه الاتفاقية كدليل على موافقة زعماء العرب على بيان بلفور ،وبالتالى كدليل على براءة ذمة الدبلوماسية البريطانية . ولم يتضح الا فى عام ١٩٦٩ كيف استطاعت وزارة الخارجية البريطانية ان تحصل على موافقة فيصل . فلقد تبين ان لورنس حرف عمدا اهم مواد الاتفاقية لدى ترجمـــــة نصها الى اللغة العربية (اذ ان فيصل لم يكن يجيد اللغـــــة الانجليزية) . ولذلك ففى نص الاتفاقية العربى الذى وقعه فيصل ورد ان العرب واليهود القاطنين فى فلسطين سيتمتعون بحقـــوق متكافئة وان فلسطين ستكون لها علاقات خاصة مع الدولة العربية الشاسعة فى آسيا . اما النص الانجليزى الذى اصبح هو الصيغة الرسمية ففيه استبدل اسم «فلسطين» بمصطلح «الدولة اليهودية» ، واسم السلطات الفلسطينية بمصطلح «الحكومة اليهودية» . اذن ، فقد حرف لورنس نص الاتفاقية العربى عمدا وبذلك حصل على موافقة فيصل على تأسيس وطن يهودى من الناحية الشكلية ، ودولـــة يهودية من الناحية الفعلية فى فلسطين .

الا ان النشاط التزويرى الذى مارسه لورنس والمسؤولون فى وزارة الخارجية البريطانية لم يتوقف عند هذا الحد . فلدى توقيع

الاتفاقية مع وايزمان ذيلها فيصل باللغة العربية مؤكدا ان الاتفاقية لن تكون سارية المفعول الا اذا نفذت الحكومة البريطانية كليا التزاماتها بشأن تأسيس الدولة العربية المستقلة الموحدة فى آسيا . وعند ترجمة هذا التذييل الى اللغة الانجليزية حرف لورنس نصه وجعله بصيغة اقل حدة لدرجة كبيرة (٩٥) .

وهكذا اقترف الامبرياليون البريطانيون فى فترة الحرب العالمية الاولى خيانة ذات ثلاثة جوانب . وبغية ستر هذه الخيانة لجأوا الى الخداع ، والتزوير . فالوثائق التى نشرها نايتلى وسيمبسون فى ١٩٦٩ تفضح كليا جميع احابيل الدبلوماسيين البريطانيين . ولقد تم حاليا التأكد بصورة نهائية من ان فيصل عندما وقع اتفاقية عام ١٩١٩ سجل بكل دقة ، وبالرغم من تلاعب لورنس ، ان الاتفاقية لن تكون سارية المفعول الا بعد تنفيذ بريطانيا التزاماتها بشأن تأسيس الدولة العربية الموحدة . وبما ان بريطانيا خرقت التزاماتها فان اتفاقية فيصل ـ وايزمان المؤرخة فى ٣ كانون الثانى (يناير) ١٩١٩ باطلة . وان العرب لم يصادقوا على بيان بلفور .

اعتقد المستعمرون البريطانيون فى عام ١٩١٩ انهم لم يكسبوا الحرب العالمية فحسب ، بل وبلغوا اهدافهم المنشودة . فقد اندحرت منافستهم الرئيسية المانيا ، وتجزأت الامبراطورية العثمانية ، واستولت القوات البريطانية على اهم البلدان والمناطق العربية من الناحيتين الاقتصادية والستراتيجية ـ مصر والسودان والحجاز وفلسطين والاردن والعراق وجنوب الجزيرة العربية وجنوبها الشرقى . وتحول الخليج العربى والبحر الاحمر نهائيا الى «بحيرة بريطانية» . وصار بترول الموصل وخوزستان يضخ الى الناقلات البريطانية . وابتزت «شركة نفط العراق» و«شركة

النفط البريطانية الفارسية » و« رويال داتش شيل » ارباحا تقدر بالملايين . ورابطت الطرادات والمدمرات وقاذفات القنابل والمقاتلات البريطانية فى موانىء ومطارات قبرص والاسكندرية وبورسعيد وبورسويس والقاهرة والخرطوم وعدن وجزر البحرين والكويت والفاو والحبانية والشعيبة . وساعد المستعمرين البريطانيين مساعدة نشيطة فى تعزيز مواقعهم عند مشارف قناة السويس وحقول البترول العراقى الصهاينة والنازحون اليهود والوحدات التى شكلوها على عجل فى فلسطين . وبدت الامور وكأن حلم كيرزون وروتشيلد ولورنس وفيلبى بشأن تأسيس « الهند العربية » ، جوهرة التاج البريطانى الجديدة ـ التى لا تقل قيمة عن الجوهرة القديمة ، الهند ـ فى الشرق الاوسط قد تحقق .

الا ان هذه الامال والحسابات لم تكن ترتكز على اساس متين . فلقد اعدت ونفذت بدون السيد الحقيقى ، بدون شعوب البلدان العربية . وعندما اندلعت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، وتزعزع كيان السيطرة الاستعمارية البريطانية فى العالم العربى ادرك المستعمرون انهم اقترفوا خطأ فادحا فى بناء هذا الكيان الذى تطلب جهودا هائلة . ففى مستهل عام ١٩١٨ وصلت الى البلدان العربية ، وبالدرجة الاولى سوريا ومصر والعراق ، انباء ثورة اكتوبر والمراسيم الاولى للسلطة السوفييتية . وصار النداء اللينينى الشهير « نداء الى جميع المسلمين الكادحين فى روسيا والشرق » يتنقل فى ترجمته العربية من يد الى يد بمثابة رسالة من لينين الى زعماء الحركة الوطنية العربية ، ويحفظ كتحفة نادرة . وترك اثرا هائلا على العالم العربى بأسره نشر اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية والخاصة باقتسام البلدان العربية . وقد

نشرت هذه الاتفاقية بأمر من لينين . وبالرغم من كل عراقيل الرقابة الامبريالية اصبحت الاتفاقية معروفة فى دمشق وبيروت والقدس والقاهرة ، واثارت استنكارا هائلا لغدر الامبرياليين وريائهم . كما اثار استياءا شديدا للغاية التقارب بين المستعمرين البريطانيين والصهاينة وسعيهم الى تخليد سيطرتهم على البلدان العربية وعلى مصر خصوصا . فقد قامت فى القاهرة والاسكندرية ، مثلا ، مظاهرات جبارة مناوئة للبريطانيين عندما اتضح ان الحكومة البريطانية استطاعت ادراج مادة خاصة فى معاهدة صلح فرساى (المادة ١٤٧) حول اعتراف جميع البلدان الموقعة على هذه المعاهدة بالحماية البريطانية فى مصر (٩٦) .

وفى ١٩١٩ بدأت انتفاضة الشعب المصرى التى يصفها عبد الرحمن الرافعى اسطع وصف فى كتابه المعروف «ثورة ١٩١٩» . وفى نفس الوقت تقريبا اجتاحت سوريا موجة الانتفاضات . وفى ربيع ١٩١٨ قامت الانتفاضة ضد الانجليز فى النجف ، وفى ربيع ١٩١٩ قامت انتفاضة السليمانية ، واخيرا قامت ثورة الشعب العراقى فى حزيران ــ تشرين الثانى (يونيو ــ نوفمبر) ١٩٢٠ . وفى عام ١٩١٨ شهدت البحرين نضالات كبرى ، وشهدت عدن مثلها عام ١٩١٩ . وفى عام ١٩٢٠ دحر شعب عمان قوات المرتزقة التابعة لسلطان مسقط .

واصبح واضحا للامبرياليين البريطانيين ان من الضرورى اجراء تغيير فى التاكتيك . واضطروا الى التخلى عن الحلم بانشاء الامبراطورية الهائلة من المستعمرات البريطانية فى العالم العربى . كما انهارت خطط ضم وسط العراق وجنوبه الى الممتلكات الانكلوهندية . غير ان المستعمرين البريطانيين استطاعوا فى جلسة المجلس الاعلى لدول الوفاق فى سان ريمو فى نيسان (ابريل)

١٩٢٠ ان ينتزعوا من فرنسا موافقتهـــا على بسط السيطرة البريطانية على فلسطين والعراق كله . ولكن المقصود هذه المرة ليس تكوين مستعمرتين ، بل هو ما سمى بالانتداب على هذين البلدين . وحتى بهذا الشكل المموه بعض الشىء لم تكن الهيمنة على العرب امرا بالسهولة التى كان ساســـة لندن يأملون فيها خلال سنوات الحرب حيث فصلــوا خارطة الشرق الاوسط مرارا فى صالات وايت هول المريحة .

واصبحت مسألة اشكال وطرائق ادارة العالم العربى وخصائص السياسة الاستعمارية فى هذه المنطقة الهامة للغاية موضع صراع حاد فى الاوساط الحاكمة البريطانية فى عام ١٩٢٠ . ويحاول الباحثون البرجوازيون تصوير هذا الصراع كتنافس بين مختلف الوزارات والدوائـــر على الفـــوز بحـــق الاشراف على السياســـة البريطانية فى الشرق الاوسط . وهم يؤكـــدون ان هذا التنافس تعقد بسبب التناقضات بين الشخصيات الكبيرة فى الائتلاف الحكومى الذى تسلم زمام السلطة فى تلك الاعوام ، اى بين لويد جورج وكيرزون وشرشل وميلنر وغيرهم . وبالفعل فقد انخرطت بنشاط فى الصراع من اجل توجيه الاحداث الحربية والسياسية الجارية فى العالم العربى وزارات الخارجية والحربية وشؤون الهند والمستعمرات وسلاح الجو وهيئتا اركان القوات المسلحة البريطانية فى القاهرة وبغداد وهلمجرا .

الا ان الصراع فى الواقع جرى بالدرجة الاولى بين اكبر الكتل الاحتكارية فى الطبقة الحاكمة البريطانية حول مسائل الستراتيجية والتاكتيك وتوزيع موارد هذه الكتل وطـــرق استغلال البلدان العربية . فالكتلة «الهندية» ذات الارتباط الوثيق مع شركات البترول العاملة فى ايران والعراق كانت لا تزال تسعى الى الحاق

العراق بالممتلكات البريطانية ، بالرغم من ان ذلك لم يعد امرا واقعيا بعد ثورة العشرين فى العراق . اما كتلـــة روتشيلد ــ بيرينغ فكانت تطالب بتعزيز المواقع البريطانية فى مصر والسودان وتكبيل فلسطين وشرق الاردن نهائيا . وظهر خلاف شديد كذلك بشأن طرق اخضاع شبه الجزيرة العربية . فالكتلة «المصرية» المعتمدة على هيئة اركان قيادة القوات المسلحة البريطانيـــة فى القاهرة والمكتب العربى الذى يشرف عليه كلايتـــون وهوغارت ولورنس ظلت ترى فى الاتفاق مع الهاشميين ملاذا من جميـــع الشرور . واستخدم لورنس سمعته وعلاقاته الشخصية على نطاق واسع فى لندن وبذل جهدا كبيرا لكى يثبت بان بريطانيا ستستطيع بواسطة ابناء الحسين الهاشمي الاربعة ان تحكم ليس سوريـــا والعراق والاردن فحسب ، بل وشبه الجزيرة العربية كلها التى ستكون خاضعة لشريف مكة وملك الحجاز الكهل الحسين .

اما الكتلة «الهندية» المعتمدة على هيئة اركان قيادة القوات الانكلوهندية فى بغداد والجهاز العسكـــرى السياسى المتشعب فى الخليج العربى وفرع المكتب العربى فى البصرة باشراف كوكس وهيرترودا بيل وفيلبى فقد كانت تعلق امالها على امير نجد ابن سعود . ولعب فيلبى ازاء ابن سعود نفس الدور الذى لعبـــه لورنس ازاء فيصل . ونتيجة للرحلات الطويلة الامد فى ربوع نجد والبلدان المتاخمة لها توصل فيلبى الى استنتاج ثابت هو ان موارد نجد اكبر بكثير من موارد الحجـــاز وان سياســـة ابن سعود التوحيدية اكثر شعبية ومستقبلا بالنسبة لقبائل وشعوب شبه الجزيرة العربية من شعارات الحسين الخاصة بالجامعـــــة الاسلامية ، تلك الشعارات التى ساءت سمعتهـــا بسبب التعاون السافر الطويل الامد مع بريطانيا . وحاول فيلبى ان يثبت بان

النصر فى الصراع من اجل السلطة فى شبه الجزيرة العربية سيكون دون شك حليفا لابن سعود ، وستعود اليه بالتالى السيطرة على مكة والمدينة . وهذا الامر يتسم باهمية كبيرة بالنسبة للحكام البريطانيين فى الهند حيث يعيش عشرات الملايين من المسلمين ، وبالنسبة لكامل السياسة البريطانية الشرقية . وبالاضافة الى ذلك كانت رائحة البترول تفوح بصورة متزايدة فى شبه الجزيرة العربية فى مستهل العشرينات ، مما اضفى اهمية خاصة على الصراع من اجل السيطرة على هذه المنطقة .

كانت السياسة الاستعمارية للامبريالية البريطانية فى الشرقين الادنى والاوسط بحروبها وتدخلاتها المسلحة التى لا نهاية لها ضد افغانستان وايران وتركيا والحملات التنكيلية العديدة فى العراق وشبه الجزيرة العربية والسودان ومصر قد اثارت تذمرا شديدا لدى الجماهير الشعبية الواسعة فى بريطانيا بعد ان ارهقتها خمس سنوات من الحرب العالمية الاولى وثلاث سنوات اخرى من الحملات الاستعمارية المستمرة . وقد الحقت الحرب العالمية خسارة مادية هائلة بالموارد المالية لبريطانيا ، واخذت تتعالى فى الاوساط المتنفذة البريطانية احتجاجات متزايدة الشدة على السياسة الاستعمارية فى العالم العربى ، حيث بلغت نفقات القوات المسلحة خلال عام ١٩٢٠ وحده ٤٠ مليون جنيه استرلينى .

ولقد دشنت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عصرا جديدا فى تاريخ البشرية ، بما فيها شعوب الشرق . ووجهت هذه الثورة اشد ضربة الى الامبريالية فسببت ازمة نظامها الاستعمارى . وليس من قبيل الصدفة ان الامبريالية الاستعمارية البريطانية بالذات هى التى تزعمت التدخل المسلح ضد روسيا السوفييتية الفتية . وليس من قبيل الصدفة ان الملهم الرئيسى لهذا التدخل هو

احد اساطين الاستعمار البريطانى ، تعنى وزير الحربيـــة انذاك ونستون شرشل الذى وصفه لينين « بالـــد عدو لروسيـــا السوفييتية » (٩٧) . وقد انتهى التدخل ضد بلاد السوفييت بالفشل التام . واخفقت كذلك محاولات المستعمرين البريطانيين للاحتفاظ بمواقعهم فى تركيا وايران وافغانستان وللحيلولة دون اقامة العلاقات الودية بين هذه الدول وبين روسيا السوفييتيـــة وجمهوريات الشرق السوفييتى . وكل ذلك جعل من المستحيل تحويل بلدان الشرق الاوسط هذه الى حاجز يحول بين روسيا السوفييتية وبين العالم العربى ، كما كان يحلم شرشل وكيرزون . زد على ذلك ان المعاهدات التى وقعت فى شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩٢١ بين روسيا السوفييتية وايـــران وافغانستان وتركيا ، وهى اولى المعاهدات المتكافئة فى تاريخ هذه البلدان ، قد وجهت اشد ضربة لمواقع الامبريالية البريطانيـــة فى الشرق الاوسط وساعدت على ترسيخ استقلال هذه البلدان ، بل وحولت الشرق الاوسط الى ما يشبه الجسر بين روسيـــا الثورية وبين العالم العربى . وليس من قبيل الصدفـــة ان يكون اول سفير سوفييتى فى طهران هـــو روتشتين الخبير السوفييتى الكبير فى السياسة البريطانية فى المستعمرات ومؤلف الكتاب الشهير « غزو مصر واستعبادها » الذى نشر باللغة الانجليزية فى عام ١٩١١ .

وادى ذلك كله الى جعل الاوساط الحاكمة البريطانية تقرر تصفية التنافر فى طرق تنفيذ السياسة فى العالم العربى ووضع حد للتنافس بين مختلف الوزارات والدوائر وتركيز ادارة كامـــل السياسة البريطانيـــة فى العالم العربى فى ايدى وزارة شؤون المستعمرات ، حيث تأسس لهذا الغرض قســـم كبير خاص بالشرقين الادنى والاوسط . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٢١ عين

ونستون شرشل وزيرا للمستعمرات . ويصادف المرء فى عدد من الكتب المكرسة لتاريخ بريطانيا تأكيدا بان شرشل اعفى من منصب وزير الحربية بسبب فشل التدخل المسلح فى روسيا السوفييتية . ومما لاشك فيه ان ذلك كان احد اسباب اعفائه من هذا المنصب . ولكن السبب الآخر الذى لا يقل عن ذلك اهمية فى ان لويد جورج قرر ان ينقل شرشل الى وزارة شؤون المستعمرات هو الرغبة فى استخدام قبضته وحزمه وطاقته فى مكافحة حركة التحرر الوطنى فى الامبراطورية البريطانية ، وبالدرجة الاولى لترسيخ مواقع بريطانيا فى العالم العربى .

وكان من اول الاجراءات التى اتخذها شرشل فى منصبه الجديد هو دعوة لورنس الى وزارة المستعمرات بصفة المستشار الرئيسى ومدير قسم الشرقين الادنى والاوسط فى الواقع . ووافق لورنس على ذلك فورا مما اثار دهشة اصدقائه المقربين اليه الذين يعرفون خير معرفة طبعه المشاكس وتقززه من الاعمال الادارية . وكرس شرشل فى كتابه «معاصرونا البارزون» فصلا للورنس مفعما بالاعجاب به ، واشاد فى هذا الفصل بعملهما المشترك الناجح فى وزارة المستعمرات (٩٨) .

وبغية تنفيذ القرار الخاص بوضع سياسة استعمارية موحدة فى العالم العربى واعداد الطرق الجديدة لادارة المناطق العربية بعد فشل خطط انشاء «الهند العربية» عقد فى القاهرة مؤتمر برئاسة ونستون شرشل فى اذار (مارس) ١٩٢١ وحضره اربعون دبلوماسيا بريطانيا من الموظفين الاستعماريين والاداريين والجواسيس وقادة القوات المسلحة البريطانية فى مختلف ارجاء العالم العربى . وساهم فى هذا المؤتمر لورنس وكوكس وهيرترودا بيل والمستشرق يونغ ومارشال الجو ترينشارد والجنرالان

رادكليف وايرونسايد والمقيمون والممثلون السياسيون البريطانيون فى الخليج العربى . وحتى الحال الحاضر لم تنشر مواد هذا المؤتمر الذى هو اهم مؤتمر فى تاريخ السياسة الاستعمارية البريطانية . وحتى اواخر الستينات كان الباحثون محرومين كليا من الاطلاع على هذه الوثائق .

وتدل وثائق ارشيف الدولة فى بريطانيا والارشيف الوطنى الهندى التى اطلع عليها كاتب هذه السطور مؤخرا على انه عملت فى المؤتمر المذكور ثلاث لجان هى اللجنة السياسية واللجنة العسكرية واللجنة المالية . وكانت اهمها اللجنة السياسية التى ترأس شرشل جلساتها ، ولعب لورنس الدور الرئيسى فيها . واضطر المشاركون فى المؤتمر الى الاعتراف بضرورة اعادة النظر جذريا بكامل السياسة البريطانية فى العالم العربى وذلك بسبب النهوض العارم للحركة المناوئة للامبريالية وضعف بريطانيا واشتداد التناقضات بين الدول الكبرى . ومن اهم القرارات التى اتخذها مؤتمر القاهرة ١) التخلى نهائيا عن المطامع بسوريا والعمل على ابقاء صنيعة بريطانيا فيصل ملكا لسوريا . ٢) التخلى عن اية محاولة لضم جنوب ووسط العراق الى الهند البريطانية . ٣) تأسيس دولة عراقية تابعة تضم الموصل ايضا وعقد معاهدة مع هذه الدولة تؤمن سيطرة بريطانيا عليها عسكريا وسياسيا . واتخاذ الاجراءات العسكرية والسياسية التى ينبغى ان تؤدى الى «مبايعة» فيصل ملكا للعراق . ٤) تشكيل جهاز استعمارى برئاسة المندوب السامى البريطانى لادارة فلسطين الواقعة تحت الانتداب . ٥) تأسيس دولة جديدة فى الاراضى الواقعة بين الضفة الشرقية لنهر الاردن وبين حدود الحجاز وسوريا هى شرق الاردن برئاسة عبد الله (شقيق فيصل) (٩٩) .

هكذا فُصّلت مرة اخرى اراضى العالم العربى . وقد نعت شرشل نفسه المشاركين فى المؤتمر «بالاربعين حراميا» مشيرا الى الحكاية العربية المعروفة «على بابا والاربعون حراميا» وكان فى هذه النكتة نصيب كبير من الحقيقة . فان اربعين ضاريا استعماريا تجمعوا فى القاهرة لكى يقرروا كيفية نهب شعوب البلدان العربية على نحو اكثر مردودا وباقل النفقات . وكان المستعمرون البريطانيون ينوون ممارسة هذا النهب بالاشتراك مع الصهاينة . الا ان هؤلاء الحلفاء لم يكونوا يبعثون على الثقة لدرجة كافية . ولذلك بالذات تقرر فصل ما وراء الاردن عن فلسطين وتأسيس شرق الاردن بزعامة صنيعة بريطانيا عبد الله ، وذلك بمبادرة من شرشل الجيد الاطلاع على مطامع الصهاينة باراضى شرقى الاردن .

وقد حددت مقررات مؤتمر القاهرة لعشرات السنين القادمة الخط العام للسياسة الاستعمارية للامبريالية البريطانية فى العالم العربى . واخذ فيصل الذى نصبه البريطانيون بعد مؤتمر القاهرة على عرش العراق ومن خلفه من سلالة الهاشميين ينفذون فى بغداد توجيهات المعتمدين البريطانيين حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . ولا يزال الملك حسين ، حفيد عبد الله ، يحكم الاردن حتى اليوم . ولم تصف القواعد الجوية البريطانية فى الشرق الاوسط التى اصبحت حسب مقررات مؤتمر القاهرة ، كما سنبين ادناه ، السند الرئيسى للجبروت الاستعمارى البريطانى فى البلدان العربية الا تحت ضغط الحركة التحررية . الا ان ذلك تطلب وقتا طويلا . فقد اجليت القواعد الجوية البريطانية من منطقة قناة السويس فى عام ١٩٥٦ ، وغادر البريطانيون الحبانية والشعيبة (العراق) فى عام ١٩٥٨ ، كما غادروا عدن فى عام ١٩٦٧ ، وغادروا جزر البحرين والشارقة فى ١٩٧١ . ولا تزال آخر آثار الاستعمار البريطانى هذه فى العالم العربى موجودة فى سلالة (ظفار) وفى جزيرة مصيرة (عمان) .

ومن اهم المسائل التى نوقشت تحت ستار كثيف من الكتمان فى مؤتمر القاهرة الاقتراح باجراء تقليص كبير لتعداد القوات البرية البريطانية فى البلدان العربية وتحويل الوظائف العسكرية البوليسية الى صنف جديد من القوات هو القوات الجوية . ولهذا الغرض ساهم مساهمة نشيطة فى اعمال المؤتمر مارشال الجو ترينشارد . ونسبت ضرورة تقليص تعداد القوات البريطانية فى الشرق الاوسط ليس فقط الى الاعتبارات المالية والسياسية ، بل والى الميول المناوئة للحرب والتى اجتاحت بريطانيا بعد الحرب العالمية الاولى . وادى وجود قوات الاحتلال الى اشتداد الميول المناوئة للامبريالية فى البلدان العربية وعقد على المستعمرين البريطانيين مهمة تمويه سياستهم . ونتيجة للقرارات التى اتخذت بالحاح من شرشل تم تقليص تعداد قوات الاحتلال البريطانية فى العراق والاردن ومصر بعدة مرات . واحيلت وظائفها الى ١٨ سربا فى القوات الجوية . وفى غضون عامين تقلصت نفقات القوات البريطانية فى الشرق الاوسط من ٤٠ مليون جنيه الى ٥ ملايين جنيه سنويا (١٠٠) . وبغية تكوين «السمعة» اللازمة للوسيلة الجديدة التى بدأت السياسة الاستعمارية باستخدامها اقامت قيادة القوات الجوية البريطانية فى العراق والاردن وعدن استعراضات جرى فيها قصف نماذج مصغرة للقرى العربية ودعت لمشاهدتها عددا كبيرا من المتفرجين . ووصفت الجاسوسة الانجليزية هيرترودا بيل فى رسائلها من العراق صيف ١٩٢٤ على نحو مسهب ذلك الاثر العميق الذى تركه هذا القصف فى نفوس سكان وسط العراق وجنوبه (١٠١) .

واستطاع مؤلف هذا الكتاب ان يطلع فى ارشيف الدولة فى بريطانيا على البروتوكول المفصل لجلسة مجلس الوزراء البريطانى

فى حزيران (يونيو) ١٩٢٨ المكرسة للمناقشة الشاملة لتقرير مارشال سلاح الجو ترينشارد حول دور القوات الجوية باعتبارها الاداة الرئيسية بيد السياسة الاستعمارية البريطانية فى العالم العربى . وقد ابدى كبار وزراء بريطانيا انذاك ، بمن فيهم اوستن شمبرلين وصموئيل هور واللورد بركينهيد ، اعجابهم الشديد بهذا التقرير وقدروا بوقاحة فاعلية وفائدة استخدام القوات الجوية فى العالم العربى (١٠٢) .

ويؤكد مؤلفو سيرة حياة شرشل على ان فكرة استبدال القوات البرية فى العالم العربى بالقوات الجوية ، تلك الفكرة التى اقرها مؤتمر القاهرة ، تعود الى شرشل (١٠٣) . اما فى الواقع فهذه الفكرة تعود الى لورنس . فقد اكد صديق لورنس الحميم وكاتب سيرة حياته ليدل هارت : «ان لورنس الذى كان متعطشا الى رؤية شرشل على رأس وزارة شؤون المستعمرات حذر شرشل صراحة من ان النجاح سيعتمد على الاستعداد لتقبل قدر من المخاطرة ، بما فى ذلك تنصيب ملك عربى فى العراق واجلاء القوات البريطانية واحالة الدفاع عنه الى سلاح الجو باعتباره نوعا من الحاميات الاجنبية اقل ازعاجا واكثر توفيرا من الجيش . وفى مثل هذه الظروف باستطاعة شرشل ، كما كان يرى لورنس ، ان يأمل بالنجاح الذى يخفف من اعباء بريطانيا ، بل ويؤمن المستقبل لها » (١٠٤) .

وبعد عام من العمل المشترك الناجح مع شرشل فى وزارة المستعمرات بغية تطبيق مقررات مؤتمر القاهرة اقنع لورنس شرشل فى حزيران (يونيو) ١٩٢٢ بقبول احالته على التقاعد واعلن قائلا : «اعتقد ان مصاعب جدية لن تنجم فى العالم العربى طوال سبع سنوات على الاقل» . والشىء الوحيد الذى اخفق فيه

لورنس كليا آنذاك هو السياسة فى شبه الجزيرة العربية . فقد انتصر هناك ابن سعود وممثل «الكتلة الهندية» هارى فيلبى . ودحرت فصائل ابن سعود الشريف حسين وابنه على واقتحمت مكة والمدينة وجدة . وضم الحجاز الى نجد وتحول فيما بعد الى جزء من العربية السعودية تحت ظل الملك ابن سعود ومستشاره الرئيسى فيلبى الذى انتقل الى الرياض واعتنق الاسلام واصبح يدعى عبد الله فيلبى . وفى آب (اغسطس) ١٩٢٢ انخرط لورنس باسم مستعار هو «روس» جنديا عاديا فى صفوف القوات الجوية البريطانية . وكان ذلك مفاجأة للجميع . لقد حبر المؤرخون البريطانيون ، بمن فيهم المستشرقون ، والصحفيون وحتى علماء النفس مئات عديدة من الصفحات فى محاولة لتفسير اسباب هذا التصرف . ومما اثار الحيرة خصوصا رفض لورنس رفضا باتا تسلم رتبة ضابط . وقد ازاح شرشل الستار حيث كتب يقول فى مذكراته المشار اليها اعلاه عن لورنس : «كان لورنس قد رأى بوضوح اكثر من اى شخص آخر امكانيات القوة الجوية فى الشؤون الحربية . وكان يعتقد انه بانخراطه جنديا فى القوات الجوية يضفى طابعا من النبل على هذا النوع من القوات فى انظار الشباب ويجعله مرغوبا فيه بخاصة . وكان ذلك امرا ضروريا لنا ضرورة الحياة» . واستشهد شرشل فى الختام بعبارة جورج الخامس بعد مقتل لورنس : «سيظل اسمه خالدا فى التاريخ» ، فكتب يقول : «ذلك حق . سيظل اسمه خالدا فى تاريخ الادب الانجليزى ، وسيعيش فى تقاليد القوات الجوية الملكية ، وسيعيش فى سجل الحروب وفى اساطير بلاد العرب» (١٠٥) .

ويفسر الكولونيل ليدل هارت قرار لورنس برفض المنصب القيادى والقبول برتبة جندى بسيط فى القوات الجوية فيقول :

«كان هناك منصب آخر ، الا وهو المستشار السرى . وانا اعتقد ان اشغال هذا المنصب كان يستجيب لرغبة لورنس كليـــا» (١٠٦) .

وهكذا يتضح ان «الفارس المغرم» بحرية العرب واستقلالهم ، الكولونيل لورنس ، كان هو المبادر الى ادخال شكل جديد من اشكال القمع الاستعمارى لشعوب البلدان العربية بواسطة القوات الجوية ، وهو الذى بذل قصارى جهده لجعل مؤتمر القاهـــــرة يتخذ قرارا بهذا الشأن ، قرارا ولد معارضة شديدة لـــدى الاوساط الاستعمارية والعسكرية المحافظة . وبغية الترويج لهذا السلاح الاستعمارى الجديد بين الشباب البريطانيين الذين اشتدت لديهم الميول المناوئة للحرب (وكانت القوات الجوية بحاجة الى آلاف المتطوعين ، فالخدمة العسكرية الالزامية قد الغيـــت فى بريطانيا بعد الحرب العالمية الاولى) ، انخرط لورنس فى عـــام ١٩٢٢ جنديا بسيطا فى صفوف القوات الجوية لكى يساعد اسمه وشهرته على تامين زيادة كبيرة لعدد المتطوعين المستعدين للخدمة الشاقة الخطرة فى الاسراب التى تؤدى عملها البوليسى فى العالم العربى . وبسبب ذلك بالذات افرط شرشل فى مديح لورنس ، ولذلك بالذات فقد وضع فى مديحه الختامى للورنس العربـــى خدماته للقوات الجوية فى مكان الصدارة وافرد لنشاطه فى بـــلاد العرب مكانا ثانيا . بديهى ان لورنس كان يأمل ان لا يكون مجرد جندى عادى فى القوات الجوية . ويشهد صديقه الحميم ليـــدل هارت على انه كان يحلم بان يشغل منصب «المستشار السرى» ، اى الاخصائى الرئيسى فى استخدام النوع الجديد من الســـلاح فى الشرق . ويدل على ذلك ايضا بقاء لورنس طوال عامين فى سرب القوات الجوية البريطانية المرابط فى الهند . ولا يبخل ايديولوجيو

الاستعمار البريطانى وصانعو عبادة شخصية لورنس فى تمجيد «مآثره» فى العالم العربى حتى اليوم . ولذلك فتحت قبة كاتدرائية القديس بولص فى لندن ينتصب وسط صمت معتم الى جانب التمثالين النصفيين لمنقذى بريطانيا الاميرال نلسن والفيلدمارشال ولنغتون تمثال نصفى للكولونيل لورنس صاحب فكرة خنق العالم العربى على يد القوات الجوية البريطانية .

نتائج السياسة الاستعمارية البريطانية
عشية الحرب العالمية الثانية

ان سياسة الامبريالية البريطانية ازاء فلسطين هى من اقسى مخلفات السيطرة الاستعمارية البريطانية فى الشرق الاوسط ، حيث يتحسس قساوتها حتى اليوم ليس العرب وحدهم ، بل وملايين الناس الاخرين فى جميع ارجاء العالم . ففى اواخر اذار (مارس) ١٩٢١ طار شرشل الذى لم ترضه مناقشة القضية الفلسطينية فى مؤتمر القاهرة الى القدس حيث اتخذت قرارات نهائية بصدد حكم فلسطين والاردن والتعجيل بالهجرة اليهودية الى فلسطين بكل الوسائل . وعين هربرت صموئيل اول مندوب سام بريطانى فى فلسطين . ولان هذا كان فى السنوات الاولى للحرب عضوا فى المكتب العسكرى البريطانى لدى الحكومة فقد ساعد على اقامة الاتصالات بين المنظمة الصهيونية العالمية وبين الحكومة وساهم بقسط كبير فى اعداد «بيان بلفور» . وفتحت ابواب فلسطين على مصاريعها امام النازحين اليهود . ففى الفترة من ١٩١٩ حتى ١٩٣٢ وصل الى فلسطين ١٢٠ الف يهودى . واشتدت الهجرة اليهودية الى فلسطين خصوصا فى الثلاثينات ، بعد استلام النازيين السلطة فى المانيا . فلئن كان يقطن فلسطين فى عام ١٩٢٢ ٥٩٠ الف عربى

و٨٤ الف يهودى لا غير ، فان هذه النسبة تغيرت فى عام ١٩٣٩ لدرجة كبيرة ـ ٩٨٥ الف عربى و٤٤٥ الف يهودى . وباموال المنظمات الصهيونية البريطانية والاميركية بدأ على نطاق واسع شراء الاراضى من شيوخ القبائل العربية ، الامر الذى ادى الى حرمان الفلاحين العرب من الارض . وتجاوزت المساحة الاجمالية للاراضى التى اقتناها الصهاينة بمختلف الوسائل فى اواسط الثلاثينات مليون دونم (الدونم الواحد=٠,١ من الهكتار) . وبمساهمة نشيطة من السلطات الاستعمارية البريطانية تاسست فى فلسطين اكثر من ٢٠٠ مستعمرة يهودية موزعة فى اهم مناطق البلاد من الناحية الستراتيجية . ونتيجة للتدابير المعدة والمدروسة تحققت لليهود اغلبية عددية فى القدس .

وكانت سياسة الامبريالية البريطانية فى فلسطين ، والتى استهدفت من وراء انشاء دولة صهيونية عند مشارف قناة السويس ليس فقط تعزيز مواقعها فى الشرق الاوسط ، بل ودق اسفين فى هيكل الاراضى العربية الموحد ، قد اثارت استنكارا هائلا لدى الشعب العربى الفلسطينى والرأى العام العربى فى الشرق بأسره . ففى آب (اغسطس) ١٩٢٩ اندلعت الانتفاضة العربية الشاملة فى فلسطين . وسرعان ما اخمد الامبرياليون البريطانيون الانتفاضة مستخدمين القوات المسلحة ومسعرين النزاعات بين العرب واليهود بكل الوسائل . الا ان الحركة التحررية فى البلاد شهدت نهوضا جديدا فى ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣ بدأت فى فلسطين انتفاضة سرعان ما شملت شرقى الاردن والعراق . وفى نيسان (ابريل) ١٩٣٦ اعلنت اللجنة العربية العليا التى اصبحت مركزا للحركة لعرب فلسطين عن اضراب شامل للسكان العرب فى فلسطين . واندلعت حرب المقاومة فى فلسطين بقوة جديدة .

الا ان اللجنة العربية العليا دعت الجماهير الشعبية الى وقف الكفاح فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ وذلك بالحاح من الزعماء العرب الاربعة ، ملك العراق وملك العربية السعودية وامام اليمن وامير شرقى الاردن ، الذين ضمنوا «حسن نوايا» بريطانيا . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٦ وصلت الى فلسطين لجنة ملكية بريطانية برئاسة اللورد بيل ، واكدت هذه اللجنة افلاس نظام الانتداب . الا ان الاقتراحات الملموسة التى طرحتها اللجنة اثارت الغضب والاستنكار فى جميع البلدان العربية . وفى شباط (فبراير) ١٩٣٩ عقد فى لندن «مؤتمر المائدة المستديرة» الذى شارك فيه ممثلو بريطانيا وزعماء الاحزاب السياسية العربية الفلسطينية ومندوبون عن جميع الدول العربية المستقلة شكليا آنذاك ـ مصر والعربية السعودية والعراق واليمن وشرقى الاردن . وحضر كذلك ممثلون رسميون عن «الوكالة اليهودية» الصهيونية المكلفة ، حسب المادة الرابعة من وثيقة الانتداب على فلسطين ، بتنفيذ الاجراءات الرامية الى انشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين . وقد رفض المندوبون العرب بالاجماع الاعتراف بصلاحيات «الوكالة اليهودية» واجراء المفاوضات مع ممثليها . ولذلك اضطر الوزراء البريطانيون الى اجراء المفاوضات مع العرب ومع اليهود على حدة .

وهكذا اضطرت الحكومة البريطانية قبل اكثر من ٣٠ عاما الى الاعتراف بمبدأين هامين للغاية ، اولهما ان مصير الشعب العربى فى فلسطين يتسم بأهمية حياتية لشعوب جميع البلدان العربية (ولذلك دعى الى مؤتمر «المائدة المستديرة» مندوبو جميع الدول العربية المستقلة) ، وثانيهما ان ممثلى الحكومة البريطانية باجرائهم المفاوضات المنفصلة مع العرب ومع اليهود اثناء المؤتمر

قد وافقوا فى الواقع على رفض مندوبى البلدان العربية اجراء مفاوضات مباشرة مع الصهاينة .

وقدمت الى المساهمين فى المؤتمر الخطة البريطانية الجديدة التى نصت على انشاء دولة عربية يهودية موحدة فى فلسطين بعد مرحلة انتقالية امدها عشر سنوات ، وعلى بقاء القواعد والقوات البريطانية فى هذا البلد . ونصت الخطة على تحديد كبير للهجرة اليهودية الى فلسطين وعلى منعها اعتبارا من عام ١٩٤٤ . كما نصت على تحديد كبير لشراء الصهاينة للاراضى .

وقد عارض كلا الطرفين هذا المشروع بصورة قطعية . فقد طالب العرب بالغاء الانتداب وتأسيس دولة عربية فلسطينية مستقلة ، وطالب الصهاينة بالهجرة غير المحدودة وبتأسيس دولة يهودية فى فلسطين . ومع ذلك طبقت الحكومة البريطانية من جانبها هذه الخطة فى ايار (مايو) ١٩٣٩ . وبديهى ان هذه الخطة كانت تعنى تنازل بريطانيا عن اتجاهها الوحيد الجانب والمعتمد على الصهاينة وحدهم فى المسالة الفلسطينية ، وتعنى محاولة من الامبريالية البريطانية لحل المشكلة الفلسطينية عن طريق التواطؤ مع الاوساط الملكية فى البلدان العربية . وكان ذلك يرتبط ارتباطا مباشرا بتفاقم خطر الحرب وخطر نشوب صدام حربى واسع ضد الحلف الالمانى الايطالى الفاشى ، وكذلك بتعاظم نضال شعوب البلدان العربية ضد الامبريالية لدرجة كبيرة . الا ان ذلك كان بعد فوات الاوان ! فان الامبرياليين البريطانيين الذين حنثوا بالتزامات ١٩١٦ وخانوا حركة العرب التحررية واحتلوا فلسطين وفتحوا ابوابها للهجرة الصهيونية وساعدوا بكل الوسائل على حرمان الفلاحين الفلسطينيين من الارض وازموا العلاقات بين اليهود

والعرب الى اقصى حد قد زرعوا بذلك «انياب التنين» التى تكشفت عن تلك النبتات الدموية الفظيعة التى نشهدها فى ايامنا هذه .

وكانت على هذه الدرجة من العار والشنـــار نتائج السيطرة البريطانية المقرفة فى بلدان الشرق الاخرى . فالقمــــع الوحشى اللاانسانى للحركة التحررية لشعبى مصر والعراق وفرض المعاهدات والاتفاقيات الجائرة الجديدة دوما على حكام هذه البلدان والاعتماد السافر على الشيوخ الرجعيين والاوساط الاقطاعية والملكية وتطبيق مبدأ «فرق تسد» يوميا ــ كل ذلك كان اهم اشكال السياســة الاستعمارية البريطانية فى العالم العربى خلال الفترة بين الحربين العالميتين . ومارس المستعمرون البريطانيون وعملاؤهم المحليون تأليب مصر على السودان وتأليـــب ليبيـــا على مصر ، ودبروا الصدامات الحربية بين العربية السعودية واليمن ، بين اليمن وشيوخ محمية عدن ، بين العربية السعودية وامراء ساحل الصلح ، بين الكويت والعربية السعودية ، بين العراق والعربية السعوديـــة . وألبوا الاكراد على العرب فى العراق ، واثاروا النزاعات بين تركيا والعراق ، بين العراق وايران . وبذل الامبرياليون البريطانيـــون جهودا ونفقات كبيرة خصوصا بغية تخويف الاوساط الحاكمـــة فى البلدان العربية «بخطر البلشفية» واثارة عدم الثقة ببـــلاد السوفييت العظيمة . وانشغل بذلك بلا كلل السفراء البريطانيون والمندوبون السامون وموظفو الانتلجينس سيرفيس (المخابرات البريطانية) ووزارة المستعمرات ومراسلــو كبريـــات الصحف البريطانية وهيئة الاذاعة البريطانية . ومارس ذلك العمل موظفو «مكتب مكافحة البلشفية» الذى اسسه البريطانيـــون فى الشرق خصيصا .

الا ان نتائج هذه الجهود جميعا كانت مزرية . فحتى بداية الحرب العالمية الثانية لم يتسن للامبرياليين البريطانيين ان يبلغوا اهدافهم المنشودة . وكانت الحركة التحررية الوطنية للشعـــوب العربية تتقوى ويشتد عودها من عام لآخر ، بينما كانت المواقع العسكرية والسياسية والاقتصادية للامبرياليـــة البريطانية تضعف وتخور . ووصلت الى فئات متزايدة من العرب حقيقة الاتحـــاد السوفييتى ومنجزاته وسياسته اللينينية الخارجية والقوميـــة . واخفقت الدعاية البريطانية فى الوقت ذاته فى تبييض صفحـــة السياسة البريطانيـــــة فى الشرق بالرغم من كل انواع التفنن والتحايل . وظل المستعمرون البريطانيون الد الاعداء للعرب .

مراجع الفصل الاول

١ ـ ماركس وانجلس ، المؤلفات ، المجلد ٩ ، ص ٢٠٢ .

٢ ـ المصدر ذاته ، ص ٢١٠ .

٣ ـ لوتسكى ، تاريخ الاقطار العربية الحديث . الطبعة الروسية ، موسكو ، ١٩٦٥ ، ص ٩٥ .

٤ ـ المصدر ذاته .

٥ ـ Public Record Office, Foreign Office (PRO, F. O.). ٣٤٣/٧٨ من بالمرستون الى كيمبل ، ٧ تموز (يوليو) ، ١٨٣٨ ، رقم ٢١ .

٦ ـ A. Nutting, The Arabs, London, 1965, p. 230.

٧ ـ M. S. Anderson, The Eastern Question, London, 1970, p. 89.

٨ ـ PRO, F. O. ١٥٥/١٩٥ ، من بالمرستون الى بونسونبى ، ١٥ اذار (مارس) ، ١٨٣٩ ، رقم ٣٨ .

٩ ـ PRO, F O. ١٥٨/١٩٥ ، من بالمرستون الى بونسونبى ، ٢ كانون الاول (ديسمبر) ، ١٨٣٩ ، رقم ١٨٠ .

١٠ ـ J. C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, v. 1, New York, 1956, pp. 116-117.

١١ ـ ماركس وانجلس ، المؤلفات ، المجلد ٩ ، ص ٥ .

١٢ ـ "The British Consulate in Jerusalem," Ed. by A. M. Haymson, London, 1941, Doc. N 2.

١٣ ـ Ibid., N 23a.

١٤ ـ N. Sokolow, The History of Zionism, London, 1919, v. II, p. 230.

١٥ ـ "The British Consulate..." N 24.

١٦ ـ Ibid., N 25.

١٧ ـ Ibid., N 26.

١٨ ـ "Cambridge Modern History", London, 1956, v. VIII, p. 597.

١٩ ـ Ch. Hallberg, The Suez Canal, New York, 1931, pp. 131-133.

٢٠ ـ Ibid.

٢١ ـ ارشيف السياسة الخارجية الروسية (اسخر) ، موجودات «الديوان» ، ١٨٥٩ ، الملف ٤٥ ، ص ٨٦ ، من لوبانوف الى وزارة الخارجية ٨ (٢٠)/٨/١٨٥٩ ، رقم ١٠٥ .

المصدر ذاته ، ص ٣٨٥ ، من لوبانوف الى وزارة الخارجية ١١/٢٨ (١٠/١٢) ١٨٥٩ ، رقم ١٧٠ .

٢٢ ـ المصدر ذاته .

٢٣ ـ ماركس وانجلس ، المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٢٦ .

٢٤ ـ N. Sokolow, The History of Zionism, v. I, p. 138.

٢٥ ـ "Max Nordau to his People", New York, 1941, p. 57.

٢٦ ـ C. I. Lowe, The Reluctant Imperialists, v. II, London, 1967, pp. 12-13.

٢٧ ـ PRO, Cab. ٤١/١٢/٧ ، من دزرائيلى الى الملكة فكتوريا ، ٢١ شباط (فبراير) ١٨٧٩ .

٢٨ ـ PRO, F.O. ٧٨/٢٧٥٣ ، قرار غلادستون فى ١٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٣.

٢٩ ـ "The Times", 27. XI. 1875.

٣٠ ـ The Parliamentary Debates, Ser. III, v. 272, p. 1778.

٣١ ـ W. S. Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, London, 1907, p. 334.

٣٢ ـ لوتسكى ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ص ٢٠٠ .

٣٣ ـ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، ص ٦٦٨ .

٣٤ ـ فريدمان ، تصدير الرأسمال والاستغلال الاستعمارى لمصر فى ١٨٨٢ ـ ١٩١٣ ، فى مجموعة «الامبريالية ونضال الطبقة العاملة» ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص‌ص ١٨٨ ـ ١٩٠ .

٣٥ ـ Cecil, Lady Gwendolin, Life of Robert Marquis of Salisbury, v. IV, London, 1932, p. 388.

٣٦ ـ اسخر ، موجودات «الارشيف السياسى» ، الملف رقم ٨٣٠ ، ص ٣١ ، من كوياندير الى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٣ كانون الثانى (يناير) (٥/١١) ١٨٩٢ ، رقم ٩ .

٣٧ ـ Documents diplomatiques français, Ser. I, v. IX, Paris, 1935 N 279.

٣٨ ـ اسخر ، موجودات «الديوان» ، ١٨٩٥ ، الملف رقم ٢٦ ، المجلد الاول ، ص‌ص ٤٦ ـ ٤٨ ، نيليدوف الى وزارة الخارجية ، ١٨٩٥ ، رقم ٥٦ .

٣٩ ـ اسخر ، موجودات «الارشيف السياسى» ، الملف رقم ٨٣٠ ، ص ٥٥ـ٥٦ ، من كوياندير الى وزارة الخارجية ٢/٢٦ (٣/١٠) ١٨٩٢ ، رقم ١٨ .

٤٠ ـ Afaf Lutfi al Sayyid, Egypt and Cromer, London, 1968, p. p. 103.

٤١ ـ I. A. Grenville, Lord Salisbury and Foreign Policy, London, 1964, pp. 293-294.

٤٢ ـ بونداريفسكى وسيلين ، الخطة البريطانية لاقتسام تركيا فى ١٨٩٥ . منشورات معهد بلاغوفيشينسكى للتربية ، المجلد ٦ ، مدينة بلاغوفيشينسك ، ١٩٥٥ ، ص‌ص ١٤٧ـ١٥٢ .

٤٣ ـ W. L. Langer, The Diplomacy of Imperialism, New York, 1956, pp. 466-467.

٤٤ ــ بونداريفسكى ، العلاقات الروسية المصرية فى اواخر القرن التاسع عشر ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص ١ .

٤٥ ــ اسخر ، موجودات «الارشيف السرى» ، الملف رقم ١٦٣/١٦٥ ، ص‌ص ٤ــ٧ .

British Documents on the Origins of the War, 1898—1914, London, 1929, N 5-19.

٤٦ ــ بونداريفسكى ، الصراع من اجل طرابلس الغرب وبرقة على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين . فى مجموعـــة «الاستعمار بالامس واليوم» ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص‌ص ٤٦ــ٤٨ ، ٧٨ــ٨٠ .

٤٧ ــ المصدر ذاته ، ص‌ص ٧٥ــ٧٦ ، ٩٥ــ٩٦ .

٤٨ ــ National Archives of India. Foreign Department (Nai. فيما بعد F.D.), Political Proceedings of the Foreign Department, 27. X. 1873, N 420.

٤٩ ــ NAI. F.D., Secret External, 22. V. 1879, N 127.

٥٠ ــ "Pensées et souvenirs de L'ex-sultan Abdul-Hamid, Paris (S.A.), pp. 132-133.

٥١ ــ «الكارتل البترولى العالمى» ، موسكو ، ١٩٥٤ ، ص ١٦١ .

٥٢ ــ بونداريفسكى ، السياسة البريطانية والعلاقات الدوليـــة فى حوض الخليج العربى ، موسكو ، ١٩٦٨ ، ص‌ص ٢٥٧ــ٢٦٠ .

٥٣ ــ J. G. Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf, Calcutta, 1915, v. I, pp. 590-597.

٥٤ ــ غوتليب ، الدبلوماسيـــة السريـــة ابان الحرب العالميـــــة الاولى ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص ٦٠ــ٦١ .

٥٥ ــ E. G. Grey. Twenty Five Years, v. I, New York, 1925, p. 164.

٥٦ ــ «العلاقات الدولية فى عصر الامبريالية» ، الحلقة الثالثـــة ، المجلد ٦ (١) ، موسكو ، ١٩٣٤ ، الاعداد ١٠٠ ، ١١٨ ، ٢٢٦ .

٥٧ ــ Ph. Magnus, Kitchener, Portrait of an Imperialist, London, 1968, pp. 28-29.

٥٨ ــ Ibid, p. 29.

٥٩ ـ عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، موسكو ، ١٩٥٤ ، ص ٢٨ـ٢٩ .

٦٠ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٩ .

٦١ ـ British Documents... v. X (II) pp. 827, 830-834; G. Antonius, The Arab Awakening, Beirut, 1969, pp. 126-128.

٦٢ ـ PRO, F.O.
٢١٣٩/٣٧١ ، من غراى الى شيتهايم (القائم باعمال القنصل العام فى القاهرة) ١٩١٤/٩/٢٤ .

٦٣ ـ PRO, F.O.
٢١٤٠/٣٧١ ، من شيتهايم الى غراى ، ١٩١٤/١١/١٣ ، من غراى الى شيتهايم ، ١٩١٤/١١/١٤ .

٦٤ ـ NAI, F.D. India Sec. War, May 1915, p. 433-452.

٦٥ ـ J. C. Hurewitz, op. cit, v. II. pp. 13-17.

٦٦ ـ Ibid, pp. 18-21.

٦٧ ـ لويد جورج ، حقيقة معاهدات الصلح ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٢١٦ .

٦٨ ـ D. Stewart, The Middle East, Temple of Janus, London, 1972, pp. 132-133.

٦٩ ـ B. Litvinoff, Road to Jerusalem, London, 1965, pp. 75-76.

٧٠ ـ D. Stewart, The Middle East... p. 163.

٧١ ـ B. Litvinoff, Road to Jerusalem, p. 89.

٧٢ ـ Ibid, pp. 97-100.

٧٣ ـ Ibid, p. 103.

٧٤ ـ Ibid

٧٥ ـ Ibid, pp. 104-105, 110; D. Stewart, op. cit., pp. 168-169.

٧٦ ـ «اقتسام تركيا الاسيوية» (حسب الوثائق السرية السابقة لوزارة الخارجية) موسكو ، ١٩٢٤ ، ص ١٢١ـ١٢٦ .

٧٧ــ لويد جورج ، حقيقة معاهدات الصلح ، المجلد ٢ ، صص ٢٩٠ ــ ٢٩٥ .

٧٨ــ المصدر ذاته ، ص ٢٩٧ــ٢٩٨ .

٧٩ــ المصدر ذاته ، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ .

٨٠ــ المصدر ذاته ، ص ٢٩٨ .

٨١ــ المصدر ذاته ، ص ٢٩٩ــ٣٠٠ .

٨٢ــ PRO. Cab. 27/24.

٨٣ــ لويد جورج ، حقيقة معاهدات الصلح ، المجلد ٢ ، ص ــ ٣٠٥ ــ ٣٠٦ .

٨٤ــ المصدر ذاته ، ص ٣٠٦ .

٨٥ــ المصدر ذاته ، ص ٣١٠ .

٨٦ــ المصدر ذاته ، ص ٣٢٠ــ٣٢١ .

٨٧ــ Documents of British Foreign Policy 1919-1939, First Ser., v. IV, London, 1952, p. 1277.

٨٨ــ Suleiman Mousa, T. E. Lawrence, An Arab View, London, 1966, p. 74.

٨٩ــ Ibid, pp. 74-75.

٩٠ــ T. E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, London, 1935, p. 586.

٩١ــ Phillip Knightly, Collin Simpson, "The Secret Lives of Lawrence of Arabia", London, 1969, pp. 4, 155.

٩٢ــ PRO, F.O. 882/7.

٩٣ــ PRO, Cab, 27/36.

٩٤ــ P. Knightly, C. Simpson, "The Secret Lives of Lawrence of Arabia", p. 120.

٩٥ــ Ibid, pp. 117-119.

٩٦ــ «معاهدة صلح فرساى» ، موسكو ، ١٩٢٥ ، ص ٦١ .

٩٧ــ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، ص ٣٥٠ .

٩٨ــ Winston C. Churchill, Great Contemporaries, Glasgow, 1962, pp. 127-128.

٩٩ — PRO, Cab. 24/126, Report, Cairo Conference.

١٠٠ — L. Broad, "Winston Churchill", v. I, New York, 1963, p. 299.

١٠١ — D. Stewart, The Middle East..., p. 279.

١٠٢ — PRO, F.O. 371/13070. "Use of Air Power in Arabia".

١٠٣ ـ تروخانوفسكي ، ونستون شرشل ، موسكو ، ١٩٦٨ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

١٠٤ ـ ليدل هارت ، الكولونيل لورنس ، موسكو ، ١٩٣٩ ، ص ٢٧١ .

١٠٥ — W. Churchill, Great Contemporaries, pp. 137-138.

١٠٦ . ليدل هارت ، الكولونيل لورنس ، ص ٢٧٥ .

الفصل الثانى

الامبريالية الالمانية والعالم العربى

الامبريالية الالمانية فى الصراع
من اجل العالم العربى
عشية الحرب العالمية الاولى

انخرطت الامبريالية الالمانية بنشاط ، بعد ان تخلفت عن اقتسام العالم ، فى الصراع من اجل اعادة اقتسامه فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وابدت اهتماما خاصا بالعالم العربى ذى الثروات الخيالية .

وحتى الحال الحاضر يحاول العلماء البرجوازيون والدبلوماسيون والدعاة والكتاب الاجتماعيون فى جمهورية المانيا الاتحادية ان يثبتوا بكل الوسائل ان المانيا ، خلافا لبريطانيا ، لم تكن ابدا تطمع بثروات البلدان العربية ولم تستعد للاستيلاء عليها . اما فى الواقع ، فان الامبريالية الالمانية قد اختارت تاكتيكا آخر . فبدلا من الاستيلاء على البلدان والاراضى العربية عن طريق سلخها من الامبراطورية العثمانية ، كما فعل الانجليز ، كانت الامبريالية الالمانية تأمل باخضاع هذه البلدان والمناطق عن طريق ترسيخ النفوذ الالمانى فى تركيا وتعزيز مواقع الاوساط الحاكمة التركية فى المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية . ولهذا الغرض عززت هيئة الاركان العامة الالمانية الى اقصى حد نفوذها فى القوات المسلحة التركية ، كما حصلت الاحتكارات الالمانية ، بدعم نشيط من الحكومة ، على امتياز مد سكة حديد الاناضول فى عام ١٨٨٨ وعلى امتياز مد سكة حديد بغداد الشهيرة فى عام ١٨٩٨ .

وبغية التعجيل بالحصول على هذا الامتياز الهام جدا قام غليوم الثانى فى خريف ١٨٩٨ برحلته الثانية الى الامبراطورية العثمانية ، بعد ان طبلت الدعاية وزمرت لهذه الرحلة . وخلافا للرحلة الاولى (١٨٨٩) حيث كان الامبراطور الالمانى يسعى فقط الى التعجيل فى بدء مد سكة حديد الاناضول وتقوية الاتصالات الشخصية مع السلطان عبد الحميد ، وحيث اكتفى بزيارة القسطنطينية وحدها ، تقرر فى هذه المرة ان يقوم غليوم الثانى بزيارة لسوريا وفلسطين ، وجرى التحضير لهذه الزيارة بكل دقة . فقد قررت برلين استخدام الديانات الثلاث ــ اليهودية والمسيحية والاسلامية ــ التى لها عتباتها المقدسة فى هذين البلدين بغية تعزيز النفوذ الالمانى الى اقصى حد فى العالم العربى على مقربة مباشرة من قناة السويس .

ففى اواخر القرن التاسع عشر ازداد كثيرا عدد البعثات والارساليات الكاثوليكية ومختلف المراكز الدينية والثقافية الالمانية فى سوريا وفلسطين . فقد مارس نشاطا واسعا هناك «الاتحاد الالمانى للارض المقدسة» ومختلف الجمعيات التبشيرية الدينية بما فيها النسائية ، وافتتحت المدارس والمستشفيات الكاثوليكية . الا ان استخدام هذه المنظمات لاقصى حد بغية نشر النفوذ الالمانى فى سوريا وفلسطين قد اعاقته المادة ٣٢ من معاهدة الامتيازات فى ٣٠ ايار (مايو) ١٧٤٠ ، وهى المادة التى نصت على ان «تحمى» فرنسا جميع الكاثوليكيين والمنظمات الكاثوليكية فى تركيا الاسيوية ، مما هيأ لفرنسا امتيازات غير ضئيلة . ولذلك فقبل نصف عام من زيارة غليوم الثانى الى فلسطين مارست الدبلوماسية الالمانية فى الفاتيكان نشاطا عاصفا بغية الحصول من البابا ليون الثالث عشر على اعتراف بحق الامبراطور

الالمانى فى حماية كاثوليكييه» فى فلسطين . وبالرغم من معارضة الدبلوماسية الفرنسية استطاعت المانيا فى الواقع ان تحقق ما ارادت .

وفى الوقت ذاته ازداد فى اواخر تسعينات القرن التاسع عشر نشاط المنظمات البروتستانتية الالمانية فى فلسطين والتى تزعمها «الحلف الانجيلى» و«الارسالية الشرقية الالمانية» . وبلغ عدد المبشرين وحدهم فى هاتين المنظمتين ٥٠٠ شخص .

وفى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ زار غليوم الثانى القدس ترافقه حاشية ضخمة وكان فى زى فخم (بزة استعراض الحرس الامبراطورى وعليها برنص حريرى مطرز بالذهب) . وبدأ تعميد كنائس بروتستانتية جديدة وزيارة الارساليات والمدارس والمستشفيات الكاثوليكية التى كانت ترفرف عليها اعلام المانية كبيرة جدا اثناء اقامة الامبراطور غليوم الثانى فى فلسطين . وقد اهتم الرأى العام العالمى اهتماما كبيرا بزيارة الامبراطور الالمانى الى فلسطين وخطبه وكلماته العديدة . وبغية التقليل من شكوك الدبلوماسية القيصرية الروسية اسرع غليوم الثانى فى توجيه رسالة الى القيصر نيقولاى الثانى جاء فيها : تدهشنى اعظم الدهشة تلك السَلَطة من التضليل والتزلف والاقاويل التى تطعم بها الصحافة الاوربية قراءها بمناسبة رحلتى الى القدس . ومما يثير الحيرة لدرجة كبيرة ان شعور الايمان الخالص الذى يدفع المسيحى الى زيارة بلد عاش وتألم فيه مخلّصنا قد تطاير من اذهان من يسمون بالطبقات العليا من سكان اوربا فى القرن التاسع عشر الى درجة جعلتهم يعزون الحج الى اسباب سياسية . ان ما هو مسموح به الى الآلاف من اكثر فلاحيك تخلفا مسموح به لى ايضا» (١) .

ان الرغبة في حج الاماكن التي «عاش وتألم فيها مخلّصنا» لم تقف حائلا دون الامبراطور الالماني ودون اقامة اوثق اتصال مع ممثلي اكثر الكتل اليهودية رجعية . ولقد اشرنا في الفصل الاول الى ان هرتزل اجرى قبيل رحلة غليوم الثاني الى الامبراطورية العثمانية مفاوضات مع بيولوف وهوهينلويه بشأن تأسيس شركة صهيونية خاصة ذات امتيازات لاستيطان اليهود في فلسطين . وقد تابع هرتزل في القسطنطينية والقدس هذه المحادثات مع غليوم الثاني . اذن فقد اجرى غليوم الثاني في عاصمة الامبراطورية العثمانية مفاوضات في وقت واحد مع السلطان بشأن تعزيز امبراطوريته ومع مدير اكبر مؤسسة احتكارية المانية «دويتش بنك» سيمينس الذي وصل الى القسطنطينية بشأن مد سكة حديد بغداد واستعباد الامبراطورية العثمانية ماليا ، ومع زعيم الصهاينة هرتزل بشأن سلخ فلسطين من الامبراطورية العثمانية وتحويلها في الواقع الى مستعمرة صهيونية تحت الحماية الالمانية .

وتبين وثائق ارشيف السياسة الخارجية الروسية ان الاوساط المالية الالمانية كانت قد سعت الى استخدام الهجرة اليهودية الى فلسطين وشبه جزيرة سيناء لتعزيز مواقعها عند مشارف قناة السويس لامد طويل قبل تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية . ففي خريف ١٨٩١ قرر بافيل فريدمان ، وهو من اصحاب البنوك في برلين وله علاقات وثيقة مع الاوساط الصهيونية ، ان ينشئ مستعمرات زراعية في منطقة ميناء الوجه الواقع على ساحل البحر الاحمر في الحجاز (العربية السعودية حاليا) والذي يتميز باهمية كبيرة من الناحية الستراتيجية ، وكذلك في حقل ثور في شبه جزيرة سيناء ، مع اسكان هذه المستعمرات باليهود النازحين من روسيا . وتتضح اهمية ميناء الوجه من كونه تحول في عام

١٩١٦ الى الميناء الرئيسى لتموين الفصائل العربية المقاتلة تحت قيادة لورنس ضد القوات الالمانية ــ التركية فى الحجاز . وقد وقع النازحون اليهود الذين ضللهم فريدمان فى وضع صعب للغاية فى شبه جزيرة سيناء . وفى شباط (فبراير) ١٨٩٢ زار ممثلوهم القنصل العام الروسى فى القاهرة كوياندير وطلبوا منه حمايتهم من دسائس فريدمان واتهموا هذا الاخير بانه يعاملهم معاملة لا انسانية ويدبر النزاعات بين اليهود والعرب ، كما اتهموه حتى بجرائم القتل . وتدخل فى الامر القنصل العام الالمانى فى القاهرة . وانتهى بالفشل التام مشروع الاستعمار . وقدم اليهود المخدوعون طلبا للسماح لهم بالعودة الى روسيا (٢) .

ومع ذلك حاول هرتزل من جديد فى عام ١٨٩٨ ، وعلى نطاق اوسع بكثير ومستوى اعلى بكثير ، ان يطرح على الحكومة الالمانية مسألة الاستعمار اليهودى لفلسطين .

ولقد ذكرنا اعلاه ان غليوم الثانى الذى ابدى فى بادئ الامر اهتماما كبيرا بالمشاريع الصهيونية اضطر فيما بعد الى التخلى عن تأييدها وذلك بسبب الموقف السلبى من جانب عبد الحميد الذى كان يسعى الى استخدام الاسلام لتعزيز نفوذه فى العالم العربى والذى بذل جهودا كبيرة لعقد اول مؤتمر للجامعة الاسلامية فى مكة فى عام ١٨٩٨ . وقد اهتم غليوم الثانى اهتماما جديا بقضايا استخدام الاسلام والجامعة الاسلامية لصالح اضعاف مواقع خصوم الامبريالية الالمانية فى الشرق ــ بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وتعزيز المواقع الالمانية هناك . ففى تموز (يوليو) ١٨٩٨ ، اى قبيل الرحلة الى تركيا ، تسلم غليوم الثانى تقريرا ضافيا من المستشرق والدبلوماسى ورجل المخابرات ماكس اوبنهايم الذى كان يعمل مستشارا فى القنصلية العامة الالمانية فى القاهرة .

واعتبارا من اواسط الثمانينات قام اوبنهايم بتكليف من الدوائر الدبلوماسية الالمانية برحلات عديدة الى البلدان الاسلاميـــة فى الشرقين الادنى والاوسط وشمال افريقيا . وفى عام ١٨٩٦ ترأس اوبنهايم البعثة الخاصة التى ارسلتها برلين الى منطقة بحيرة تشاد فى محاولة التحضير لضم هذه المنطقة الهامـــة من الناحيـــة الستراتيجية الى ممتلكات المانيـــا (٣) . وتدل وثائق الارشيف الوطنى الهندى على ان الدبلوماسية والمخابرات البريطانيـــة فى القاهرة كانت تتابع بعين ساهرة كل خطوة يقوم بها اوبنهايم الذى كان يمارس كذلك مختلف الدسائس فى مصر . وقد اطلق عليـــه فى القاهرة ولندن فى مستهل القرن العشرين تحت «جاســـوس الامبراطور» الالمانى (٤) .

واكد اوبنهايم فى تقرير له عام ١٨٩٨ على ضرورة اعتماد المانيا على تأييد افكار الجامعة الاسلامية وعلى الاستخدام الشامل للنفوذ الدينى والسياسى الذى يتمتع به عبد الحميد باعتباره خليفة على ملايين المسلمين القاطنين فى ممتلكات بريطانيا وفرنســـا وروسيا . واكد اوبنهايم خصوصا على اهمية تعزيز مواقع المانيا فى العالم العربى . وفى ختام التقرير اشار اوبنهايم الى ان الجهاد الذى ينبغى ان يعلنه عبد الحميد فى حالة نشـــوب الحرب بين المانيا وبين بريطانيا او فرنسا او روسيا سيكون سلاحا فعـــالا للغاية فى يد المانيا . وقد ترك تقرير اوبنهايم هذا انطباعا عميقا للغاية على غليوم الثانى ، فاستخدمه على نطاق واسع ابان زيارته الى الامبراطورية العثمانية . وقد ادرجت مقاطع من هذا التقرير بالحرف الواحد تقريبا فى ما سمى بخطاب دمشق الذى القاه غليوم الثانى (٥) .

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٩٨ ، بعد اقامة غليوم الثانى فى فلسطين ، حيث زار المستعمرات الزراعية الالمانية واليهودية ، واجرى مباحثات مع خصوم الاسلام العقائديين ـ زعماء المنظمات البروتستانتية والكاثوليكية والصهيونية ، توجه الى سوريا . وفى ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) وضع الامبراطور الالمانى اكليلا على قبر صلاح الدين الايوبى الذى دحر جيش فويدريك الاول وحـــرر فلسطين من الصليبيين . والقى غليوم الثانى خطابا اثار ضجة . وقد اختتمه بالكلمات التالية : «وباستطاعة صاحب العظمة السلطـان و٣٠٠ مليون مسلم منتشرين فى ارجاء العالم كله والذين بايعوه ان يكونوا على ثقة بانهم سيجدون فى شخص الامبراطور الالمانى صديقا لهم الى ابد الآبدين» (٦) . وهكذا ، فبعد اسبـــوع من المباحثات فى القدس بصدد تعزيز مواقع المسيحية واليهوديـــة اعلن الامبراطور الالمانى على رؤوس الاشهاد بانه نصير «السلطان المتعطش للدماء» عبد الحميد الذى اباد مئات الالاف من الارمن ، وبانه حامى الاسلام والجامعة الاسلامية . وبتوجيه من بيولوف اوضحت السفارة الالمانية فى لندن لوزارة الخارجية البريطانية ، التى اقترحت على روسيا القيصرية لتوها تجزئة الامبراطوريـــــة العثمانية ، ان هذا الخطاب موجه ضد روسيا . وفى الوقت ذاته عجل غليوم الثانى فى توجيه رسالـــة اخرى الى القيصر الروسى نيقولاى الثانى جاء فيها : «وتذكر اننا اتفقنـــا ، انت وانا ، فى بتيرهوف على ان لاننسى ابدا ان المحمديين يمكن ان يصبحوا ورقة رابحة للغاية فى لعبتنا اذا وجدنا انفسنا فجأة فى حالة حرب مع الدولة المعروفة التى تتدخل فى كل شىء . فانت ، كسيد لملايين من المسلمين ، افضل حكم فى هذه المسألة» (٧) . وبهذه الطريقة كانت الامبريالية الالمانية تامل بتعزيز نفوذها فى فلسطين والعالم

العربى والامبراطورية العثمانية ككل ، وبتشديد التناقضـــات الانكلوروسية واستخدامها لصالحها فى الوقت ذاته .

وكان من اهم نتائج زيارة غليوم الثانى الى تركيا الحصول على امتياز سكة حديد بغـــداد الذى طال انتظاره وكانت الاحتكارات الالمانية تأمل بايصال هذه السكة الى الكويت وبذلك تقتحم الخليج العربى . وفى الوقت الذى كانت المانيا تؤكد فيه انها تسعى مـن وراء مد سكة حديد بغداد الى تعزيز الوضع الاقتصادى والسياسى والستراتيجى لتركيا لا غير ، كان المستشرقون ورجال المخابرات الالمان يبدون اراءهم بمزيد من الصراحة . فقد طالب البروفسور زاهاو فى كتابه «فى ربوع سوريـا ووادى الرافدين» ، وكذلك اوبنهايم فى كتابه «من البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربى» مطالبة صريحة باستعمار شمال العراق فى نفس وقت مد سكـة حديد بغداد . واوصى البروفسور شبرينجر فى كتابه ذى العنوان الكثير الدلالـــة ــ «بلاد بابل اغنى بلد فى الماضى واكثر المناطق ملاءمة للاستعمار فى الحاضر» ، بتقسيم العراق الى قسمين ــ شمالى يسكنه النازحون الالمان وجنوبى يستخدم فيه على نطاق واسـع عمل العبيد من السكان العرب المحليين . وتلقف هذه الفكرة باول روبراخ ، احد زعماء النزعة الالمانية الشاملـــة ، الذى كتب فى مؤلفه «سكة بغداد» عن جنوب العراق بلهجة جشعة : «بايـة الوان زاهية وباى امل ورغبة حرّى ارسم لنفسى ذلك الزمان الذى ستظهر فيه هنا صفوف الاشجار والّذى سيتوجه فيـــه السكان المحليون ذوو البشرة الكالحة الى الجنوب ، الى السهل الشاسع كى يهيئوا لنا ، نحن الالمان ، الكثير الكثير من القمح» (٨) .

وقد لقيت هذه المشاريع والاحلام تاييدا نشيطـــا من قبل الدبلوماسيين الالمان . فقد وضع الملحق العسكرى الالمـــانى فى

القسطنطينية الماجور مورغان مشروع الملاحة الالمانية فى دجلة والفرات . وسعى السفير الالمانى فى القسطنطينية فون بيبيرشتين الى ان يثبت فى تقرير حظى باستحسان الامبراطور ان العراق بأسره ينبغى ان يتحول الى منطقة نفوذ محتكرة لالمانيا وحدها (٩) . ومن بين مختلف الخطط التى اعدت فى برلين ازاء البلدان العربية خطة لتنظيم مستعمرات صهيونية على طول سكة حديد بغداد . ومما يثير الانتباه ان من بين المبادرين الى وضع هذه الخطة المستشار الالمانى اوتو بسمارك .

وبالاضافة الى العراق والخليج العربى ابدى الامبرياليون الالمان اهتماما كبيرا بالجنوب العربى واليمن وحوض البحر الاحمر . ففى عام ١٨٩٨ حاولت الدبلوماسية الالمانية ان تحصل من الاتراك على امتياز مد سكة حديد الحديدة ـ صنعاء . وكان غليوم الثانى يعلق على ذلك اهمية كبيرة . وكلف المسؤولين بوضع مشروع لانشاء القرى العمالية والمستودعات الالمانية فى منطقة سكة الحديد اليمنية المرتقبة . ووضعت فى الوقت ذاته تصاميم لانشاء قاعدة بحرية المانية فى الحديدة او مخا . وعندما فشلت هذه المخططات بسبب شكوك السلطان عبد الحميد الثانى حاولت الادارة البحرية الالمانية ، بموافقة غليوم الثانى ، ان تستولى عنوة فى ١٩٠١ـ١٩٠٢ على جزر فرسان الهامة من الناحية الستراتيجية . ومما يثير الانتباه ان عبد الحميد الثانى الداهية استطاع ان يحبط خطة حاميه غليوم الثانى هذه بمساعدة نشيطة من الانجليز الذين هم الد اعداء السلطان (٩) .

وفى عام ١٩٠٣ طلب عبد الحميد الثانى الذى كان يخشى ان تستولى ايطاليا على طرابلس الغرب المساعدة من غليوم الثانى . فردت برلين بان الحكومة الالمانية تلبى طلب الحليف التركى بكل

سرور ، ولكنها تطلب ان تنتقل الى المانيا ، بمثابة تعويض ، القاعدة العسكرية البحرية فى مسراطة (طرابلس الغرب) . وقد ارتعب السلطان من ذلك ، فادرك ان الدواء اخطر من المرض ، ولذا تخلى عن وساطة الحلفاء الالمان فى النزاع مع ايطاليا (١٠) .

لقد كان الصراع الانكلوالمانى من اجل السيطرة على العالم العربى واحدا من اهم اسباب نشوب الحرب العالمية الاولى . ففى سنوات الحرب العالمية الاولى حاول مرارا الجيشان التركيان الرابع والسابع ، وهما فى الواقع بقيادة الجنرالات الالمان ، ان يشقا طريقهما الى قناة السويس لكى يقطعا هذا الخط الهام جدا بالنسبة لبريطانيا ، بل ولكى يضعا الحجاز ومصر تحت سيطرة الامبريالية الالمانية . ومما يثير الانتباه ان رئيس قسم الاستطلاعات فى الجيش التركى الرابع كان هو فون بابين الذى شغل منصب السفير الالمانى فى انقرة فى سنوات الحرب العالمية الثانية واصبح واحدا من كبار المشرفين على كامل النشاط التجسسى التخريبى النازى فى العالم العربى . وبغية ممارسة العمل الدعائى السياسى فى البلدان العربية ابان الحرب العالمية الاولى شكل الالمان هيئة خاصة ترأسها اوبنهايم الذى طرح فكرة الاعلان عن ان غليوم الثانى اعتنق الاسلام واستبدل اسمه باسم حيدر . وفى سنوات الحرب العالمية الثانية عرض اوبنهايم نفس الفكرة على هتلر .

انتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة المانيا وحليفتها تركيا . وراحت ثمنا لهذه الحرب ضحايا من العرب بمئات الالاف ، والحقت الحرب بالعرب خسائر مادية ومعنوية هائلة ، وساعدت على استعباد العالم العربى من قبل الامبريالية البريطانية والفرنسية .

تحالف الفاشيين والصهاينة

فى عام ١٩٣٣ ، على اثر استلام هتلر مقاليد الحكم ، نشط الامبرياليون الالمان سياستهم لدرجة كبيرة فى العالم العربى مؤملين التعويض عما لحقهم فى الحرب العالمية الاولى . ومما له دلالته ان الدور الحاسم فى وضع الخطط الجديدة للتوسع الالمانى فى البلدان العربية كان يعود لنفس الاحتكارات الكبرى التى حددت سياسة بسمارك وغليوم الثانى وبيولوف ومارشال فى الشرق الاوسط : «دويتش بنك» الذى مول وحقق مد سكة حديد بغداد ، واتحاد كروب الاحتكارى الذى سلح الجيش التركى فيما مضى ، واخيرا اكبر الشركات التعدينية والكيمياوية فى الروهر . ولقد استخدم الماليون والدبلوماسيون والجواسيس الالمان حقد العرب على المستعمرين الانجليز الى اقصى حد فحاولوا فى منتصف الثلاثينات تعزيز مواقعهم فى العراق والعربية السعودية . ولهذا الغرض بدأ المبعوثون الالمان يصدرون السلاح الى العراق ، وازداد كثيرا تصدير البضائع الالمانية . ولعبت دورا خاصا شركة الطيران «لوفتهانزا» الالمانية الكبرى التى افتتحت فى عام ١٩٣٤ اول خط للركاب فى الشرقين الادنى والاوسط ، وهو خط برلين ــ اثينا ــ انقرة ــ بغداد ــ طهران ــ كابل . وكان هذا الخط عبارة عن نموذج مكتمل فريد لسكة حديد بغداد .

وبغية تعزيز المواقع الالمانية فى بلدان العالم العربى عمل الامبرياليون الالمان على تأزيم العلاقات بين البلدان العربية وبين بريطانيا الى اقصى حد . واتضح من الوثائق الدبلوماسية الالمانية الخاصة بفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية والتى نشرت مؤخرا ان الدبلوماسية الالمانية استخدمت القضية الفلسطينية لهذا

الغرض استخداما تاما . ومن الامور الاقل ذيوعا ان الفاشيين الالمان ، منذ تسلمهم السلطة حتى بداية الحرب العالمية الثانية ، أيدوا خطط الصهاينة لتأسيس دولة يهودية فى فلسطين . . .

ففى عام ١٩٣٣ تم بين بنك الدولة الالمانى «رايخس بنك» «والوكالة اليهودية» توقيع اتفاقية سرية للغاية اطلقت عليها كلمة الشفرة «هعواره» ، وهى كلمة عبرية قديمة تعنى رابطة تجارية . ونصت هذه الاتفاقية على ان يتسلم اليهود النازحون من المانيا الى فلسطين تعويضا عن املاكهم التى صادرها النازيون فى المانيا وهذا التعويض يشكل نسبة مئوية معينة من قيمة السلع الالمانية التى تباع فى فلسطين بواسطة «الوكالة اليهودية» (١١) . وتم فى الوقت ذاته ، كما سنبين بالتفصيل ادناه ، توقيع اتفاقية اخرى بصدد المساعدة السرية لنزوح المهاجرين اليهود من المانيا الى فلسطين . فمن الناحية الشكلية كان الفاشيون قد منعوا هجرة اليهود الالمان الى فلسطين خشية تأزيم العلاقات مع العرب . وكان المهاجرون اليهود غالباما يحصلون على تأشيرات السفر الى بلدان اميركا اللاتينية حسب الظاهر ، فيستقلون السفن التى كانت تغادر المانيا الى البرازيل او الارجنتين ولكن الكثير من المهاجرين ينتقلون فى الليل وعلى مرأى من القباطنة الالمان فى موانئ جزر ازوريس الى البواخر المتجهة الى موانئ فلسطين . وبزيادة عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين أزم الفاشيون الالمان الوضع فيها وشددوا التناقضات بين بريطانيا والعرب . وعمل المهاجرون اليهود بنشاط فى بيع السلع الالمانية حسب اتفاقية «هعواره» وصاروا يودعون النقود التى يحصلون عليها من ذلك فى مختلف الارصدة الصهيونية التى تشترى الاراضى من الشيوخ العرب لانشاء مستعمرات جديدة متزايدة ، مما أدى الى متابعة حرمان فلاحى فلسطين من الارض .

وبمبادرة من مدير «رايخس بنك» والمستشار الاقتصادى الرئيسى لهتلر يالمار شاخت بسط مفعول اتفاقية «هعواره» على الشرق الاوسط كله فى عام ١٩٣٧ . وهكذا تهيأ للفاشيين بشخص الصهاينة الذين لهم مصلحة فى الحصول على نسبة معينة من النقود الواردة عن بيع السلع الالمانية عملاء نشطاء جدا لتصريف البضائع الالمانية ، وبالتالى لنشر النفوذ الالمانى فى الشرق الاوسط . وادى ذلك الى نسف المواقع الاقتصادية البريطانية فى هذه المنطقة بأسرها . وتسلم الصهاينة رساميل جديدة متزايدة لشراء الاراضى فى فلسطين . وبالرغم من مخاوف الدبلوماسية الالمانية من ان اتفاقية «هعواره» السرية التى ذاع خبرها فى فلسطين يمكن ان تنسف النفوذ الالمانى فى العالم العربى ، اصدر هتلر فى عام ١٩٣٨ امرا بتمديد هذه الاتفاقية (١٢) .

وفى غضون ست سنوات من سريان مفعول اتفاقية «هعواره» استطاعت «الوكالة اليهودية» والمنظمات الصهيونية الاخرى فى فلسطين ان تستورد من المانيا رأسمالا يهوديا هائلا قدره ٨ ملايين جنيه استرلينى (١٣) ، ولدى تحليل التواطؤ الفاشى ــ الصهيونى لا بد من الاشارة الى انه كان بمثابة نموذج سابق فريد للاتفاقية بين اديناور وبن غوريون بشأن التعويضات التى ساعدت لدرجة غير ضئيلة فى تعزيز القدرة العسكرية لاسرائيل .

ولم تكن «هعواره» غير واحدة من الاتفاقيات بين الفاشيين والصهاينة . فعلى اثر مجىء هتلر الى السلطة تشكل ضمن دائرة الامن التابعة لقائد قوات الأس‌أس قسم خاص هو «٢ ــ ١١٢» برئاسة مينديلشتين . وعهد الى هذا القسم وضع «السياسة اليهودية» فى دائرة هيملر . وكانت تربط مينديلشتين علاقات وثقى بالصهاينة ، فكان يحضر مؤتمرات المنظمة الصهيونية

العالمية . وعلى اساس الاتفاق السرى بين «الوكالة اليهودية» وقسم «٢ـ١١٢» افتتح فى برلين «المكتب الفلسطينى» الذى اختار من بين مئات الالاف من اليهود الالمان اكثرهم ملاءمة من الناحيتين المادية والسياسية لارسالهم الى فلسطين . واعتبارا من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٦ انتقل من المانيا الى فلسطين ٤٠ الف يهودى (١٤) . وكانت صحيفة «داس شفارتس كور» ، لسان حال الأس أس التى لا توزع فى الخارج ، قد ودعت هؤلاء المهاجرين بنصحتهم ، فكتبت تقول بكل وقاحة : «ليس بعيدا ذلك الزمان الذى تستطيع فيه فلسطين ان تستقبل ابناءها المضيعين منذ اكثر من الف عام . . . فلترافقهم تمنياتنا الطيبة اضافة الى عطف الدولة» (١٥) . وبدعوة من المنظمات الصهيونية زار ميلدينشتين فلسطين حيث اطلع على الوضع بالتفصيل ، حتى انه قدم مشورة الى ممثلى «الوكالة اليهودية» بصدد المسائل المتعلقة بتنظيم «معسكرات اعادة التدريب» هناك ، حيث «تمرس» المهاجرون «على الطريقة الصهيونية» .

وهكذا بذل الامبرياليون البريطانيون ـ اصحاب بيان بلفور وحق الانتداب على فلسطين ـ من جهة ، والفاشيون الالمان من جهة اخرى جهودهم الهائلة لمساعدة المنظمة الصهيونية العالمية والمنظمات الصهيونية الاخرى فى تهجير عشرات الالاف من اليهود الى فلسطين ، وفى تعزيز القاعدة المادية للمنظمات الصهيونية المحلية ، وفى انشاء المستعمرات الصهيونية الجديدة دوما ، وفى حرمان عرب فلسطين من اراضيهم بالجملة . وادى ذلك كله الى تأزم الوضع فى فلسطين لدرجة كبيرة . ففى نيسان (ابريل) ١٩٣٦ اعلنت اللجنة العربية العليا عن الاضراب العام للسكان العرب فى فلسطين . وفى النصف الثانى من عام ١٩٣٦ تحول

الاضراب الى انتفاضة شعبية استخدمت القوات البريطانيـــــة النظامية وفصائل منظمــة «الهجانة» العسكرية الصهيونيـــة فى قمعها .

وأدى ذلك الى تعقد علاقات بريطانيا مع جميع المنظمـــات العربية فى الشرق الاوسط وهيأ لالمانيا الفاشية امكانيات اضافية للتدخل . وجرى هذا التدخل بعدة اتجاهات .

كانت المنظمات الصهيونية المتذمرة من الخطط التى ظهرت فى بريطانيا عام ١٩٣٧ لتحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين (كى لا يبلغ الامر حد انفجار جديد فى العلاقات مع العرب) ، والتى تسعى الى الحصول على وجبات كبيرة من السلاح ، قد عجلت فى توسيع صلاتها مع المانيا الفاشية . واقام قسم «٢-١١٢» بواسطـــة رايهرت ، مراسل مكتب الاستعلامات الالمانى فى القدس صلة مع قيادة منظمة «الهجانة» . وفى شباط (فبراير) ١٩٣٧ دعى لزيارة برلين بولكيس ، وهو احد زعماء هذه المنظمة . ونتيجة للمباحثات مع المدير الجديد للقسم المذكور هاغين والموظف الجديد ادولف ايخمان تم التوصل الى اتفاق بشأن تمديد هجرة اليهود من المانيا الى فلسطين وبشأن تزويد منظمة «الهجانة» بالسلاح . وفضلا عن ذلك دعى هاغين وايخمان لزيارة فلسطين . واعرب بولكيس «عن استعداده لتقديم خدمة الى المانيا كذلك بشكل ايصال المعلومات اذا لم تكن تتعارض واهدافه السياسية . وبالاضافة الى ذلك فهو سيؤيد بنشاط مصالح السياسة الخارجية الالمانيـــة فى الشرق الاوسط» . وبمـــا ان الصهاينة كانوا يعلمون جيدا ان اليهود الالمان الذين يسعون الى مغادرة المانيا لم يكونوا ابدا يحلمون بالسفر الى فلسطين بالذات ، توجه بولكيس باسم منظمة «الهجانة» يرجو المساعدة من ... دائرة الامن العام الهتلرى . وبموافقـــة

هيملر صاغ قسم «٢ـ١١٢» التزاماته ازاء الصهاينـــة فى هذه المسألة على النحو التالى: «سنسلط على الممثلية الامبراطورية لليهود فى المانيا ضغطا من شانه ان يلزم اليهود المهاجرين من المانيـــا بالتوجه الى فلسطين بالذات ، وليس الى اى بلد آخر . وان هذا الاجراء يستجيب كليا للمصالح الالمانية ، وان الغستابو بدأ باعداد التدابير اللازمة لتنفيذه» (١٦) .

وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٣٧ توجه هاغين وايخمـــان الى فلسطين . ولكنهما لم يستطيعا النزول الى حيفا بسبب حالة الطوارئ فاضطرا الى السفر الى القاهرة عن طريق الاسكندرية . ووصل الى القاهرة ايضا بولكيس لاجراء مفاوضات جديدة معهما . ويدل تقرير رجلى الأسأس عن هذا اللقـــاء ان بولكيس لم يكتف بتسليـــم معلومات عسكرية وسياسية هامة ، بل وافق على ان يصبح مديرا لاحدى دوائر المخابرات النازية فى فلسطين (١٧) .

وفى تلك الاثناء قرر زعماء «الهجانة» ان يشكلوا منظمة سرية جديدة هى «موساد لى الياخ بيت» («موساد» اختصارا) ، اى «مكتب الهجرة» . وكانت مهمة هذه المنظمة تتلخص فى تعبئـــة المهاجرين اليهود وتسفيرهم سرا الى فلسطين . وكان نقلهم سرا امرا ضروريا لان السلطات الاستعمارية البريطانية بدأت بتحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين لدرجة كبيرة بصـــورة غير رسميـــة فى عام ١٩٣٨ ، وبصورة رسمية اعتبارا من عام ١٩٣٩ . واصبحت جنيف مقرا لمنظمة «موساد» ، واصبح بولكيس نفسه واحدا من شخصياتها البارزة . وفى مستهل عام ١٩٣٩ وصل الى برلين مبعوثا «موساد» غينزبورغ واويرباخ . وبعد مفاوضات طويلة الامد مع زعماء قسم «٢ـ١١٢» افتتح هذان دائرتى التعبئة فى برلين وفى فيينا التى كان النازيون قد احتلوها آنذاك . وكان الشرط القاطع

الوحيد الذى طرحتــه دائرة الامن العـــام يتلخص فى ان تلتزم «موساد» بالمحافظة على سر الاماكن التى تتجه اليها السفن التى تغادر المانيا الى فلسطين . ومن الناحية الرسمية ظلت هذه السفن تتجه كالسابق نحو اميركا اللاتينية (١٨) .

وهكذا تعاون الصهاينـــة بنشاط كبير مـــع المصالح الخاصة التابعة لدائرة هيملر الذى كان قد انجز آنذاك التحضير لواحدة من افظع الجرائم فى تاريخ البشرية ، نعنى عملية «ايرليوزونغ» وهى عملية ابادة ستة ملايين يهودى .

وفى ربيع ١٩٣٧ ، عندما قلق الرأى العام فى فلسطين وفى اغلبية البلدان العربية الاخرى اشد القلق من اقتراح لجنة بيل الملكيـــة البريطانية حول اقتسام فلسطين ، سارعت الدبلوماسية الهتلرية لانتهاز هذه الفرصة . ففى ايار (مايو) جرى لقاء بين رئيس اللجنة العربية العليا ، مفتى القدس الحاج امين الحسينى ، وبين القنصـــل الالمانى فى القدس ديليه . ونوقشت مسألة ارسال السلاح الألمانى الى العرب والاجراءات المشتركة الرامية الى النضال ضد تأسيس دولة يهودية فى فلسطين . وفى الوقت ذاته تقريبا جرى لقاء مماثل فى بيروت بين ممثلى منظمات القوميين السوريين والقنصل الالمانى فى بيروت . وفى آب (اغسطس) ١٩٣٧ اتخذت وزارة الخارجية فى برلين بعد مناقشة شاملة لهذه المسألة قرارا بارسال وجبتين من السلاح الى اللجنة العربية العليا فى فلسطين — عن طريق العراق وعن طريق العربية السعودية . ونوقشت هذه المسألة كذلـــك فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٧ اثناء زيارة مبعوث المفتى ورئيس النادى العربى فى دمشق سعيد الامام الى برلين (١٩) . وهكـــذا استخدم الهتلريون الوضع فى فلسطين ، واستطاعوا بحجة تقديـم مساعدة بالسلاح للمنظمات العربية فى نضالها ضد الصهاينـــة ان

يقيموا اتصالات وثيقة ليس فقط مع مفتى القدس والمقربين اليه ، بل ومع الاوساط القومية فى سوريا ومع حكومة العراق ، وحتى مع الملك ابن سعود .

العراق وسياسة الامبريالية الالمانية عشية الحرب العالمية الثانية

تميزت العلاقات مـــع العراق بأهمية خاصة . فقد كان يشغل مكانة كبيرة فى خطط التوسعيين الالمان على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين .

وفى عشرينات القرن الحالى كان العراق اول بلد عربى اقامت معه المانيا العلاقات القنصلية فى البداية ، ثم الدبلوماسية . وعبر اراضى العراق كان يمر اول خط جوى افتتحته شركة «لوفتهانزا» عبر آسيـــا . وفى مستهل الثلاثينات حاول الرأسمال الالمانى من جديد ان يلعب الدور الحاسم فى صناعة البترول العراقى .

واعتبارا من عام ١٩٣٢ حتى بداية الحرب العالمية الثانيـة شغل منصب سفير المانيا فى بغداد فريتس هروبا الذى هو من اكثر المستشرقين ورجال المخابرات دهاءا وحنكة . وكان هروبا خبيرا باللغتين العربية والفارسية ، وقد بدأ عمله فى الشرق فى عام ١٩١٣ بمنصب متواضع هو ترجمان القنصلية الالمانية فى القدس . وفى سنوات الحرب العالمية الاولى خدم فى قسم الاستطلاعات فى الجيش التركى الرابع الذى كان يشق طريقه الى قناة السويس . وكان رئيس هذا القسم هو فرانس فون بابين الذى اصبح فيما بعد مستشارا لالمانيا وسفيرا لها فى انقرة ابان الحرب العالمية الثانية . وفى عام ١٩١٧ قاد هروبا فى سوريا كتيبة شكلتها القيادة الالمانية مـن

بين العرب الذين وقعوا فى الاسر فى سوح القتال بفرنسا (من الجزائريين والمغاربة المجندين فى القوات الفرنسية) . وخلال فترة النشاط الدبلوماسى الطويل الامد فى بغداد اقام هروبا صلات وثيقة جدا مع الاوساط الحكومية فى العراق واستخدم هذه الصلات على نطاق واسع لنشر النفوذ الالمانى الى اقصى حد . وتعززت مكانة هروبا خصوصا بعد الانقلاب العسكرى فى العراق يوم ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ ومجيئ وزارة حكمة سليمان التى لعب فيها الدور الرئيسى رئيس اركان الجيش الجديد الفريق بكر صدقى . وقد نحى عن الوزارة الجديدة جميع الموالين لبريطانيا ، كما ابعد بعضهم عن البلاد .

واعتمادا على تأييد الملك غازى الاول بدأت الحكومة تطبق فى السياسة الخارجية نهجا مناهضا لبريطانيا على المكشوف ومتجها نحو التقارب مع المانيا . ولعبت القضية الفلسطينية دورا كبيرا فى ذلك . وتم كذلك الاتفاق على تأسيس اتحاد خاص من كبريات الشركات الالمانية لارسال الاسلحة الى العراق . وفى ربيع ١٩٣٧ وصل الى العراق عقيد الاركان العامة الالمانية هاينس تلبية لدعوة شخصية من بكر صدقى . وكان التكليف الذى تسلمه من رئيس اركان الجيش العراقى غير متوقع ابدا ، فهو يتلخص فى وضع خطة للدفاع عن كردستان فى حالة احتلال القوات البريطانية لجنوب العراق حتى بغداد . ولهذا الغرض قام العقيد الالمانى بجولة طويلة الامد فى ربوع كردستان ودرس بدقة ليس فقط منطقتى الموصل والسليمانية ، بل واقسام الحدود العراقية الايرانية الهامة خصوصا من الناحية الستراتيجية . وابدى اهتماما كبيرا بامكان توزيع المدفعية الثقيلة الالمانية فى المناطق الجبلية . وبما ان بكر صدقى كانت له علاقات ثقة مع السفير الالمانى فقد اعترف له بان فكرة الدفاع عن

كردستان العراق من احتمال هجوم القوات البريطانية كانت مجرد ستار لخطة سرية اعدها رئيس اركان الجيش العراقى . فقد اتضح ان بكر صدقى (الكردى) فكر بتأسيس كردستان المستقلة فى الاراضى الكردية الداخلة ضمن تركيا والعراق وايران (٢٠) . وكان ذلك هو الهدف الفعلى من رحلات العقيد هاينس السرية . وهكذا فقد استخدمت الدبلوماسية الهتلرية العلاقات بين بكر صدقى وهروبا فسعرت ليس التناقضات الانكلوعربية وحدها ، بل والتناقضات العربية الكردية ، مما كان ينطوى على عواقب وخيمة .

وكانت المخابرات البريطانية تتابع بعين ساهرة دسائس هروبا ، وخصوصا صلاته مع رئيس اركان الجيش العراقى . وفى ١١ آب (اغسطس) ١٩٣٧ قتل بكر صدقى . وبعد ٥ ايام اسقطت وزارة حكمة سليمان وعادت الى السلطة الكتل الموالية لبريطانيا . وفى نيسان (ابريل) ١٩٣٩ هلك الملك غازى الاول فى حادث سيارة وفى ظروف غامضة جدا . وكان غازى الاول هو الخصم الرئيسى لنهج رئيس الوزراء الجديد نورى سعيد الموالى لبريطانيا بشكل سافر . ومن المعروف ان رئيس الوزراء هذا هو نفسه الذى اقام فى عام ١٩١٤ اوثق اتصال مع اللورد كيتشنر فى القاهرة .

وبعد مقتل بكر صدقى وسقوط وزارة حكمة سليمان ضعفت مواقع المانيا فى بغداد لدرجة كبيرة . وفى هذه الظروف كان من الضرورى جدا للهتلريين ان يستخدموا المشكلة الفلسطينية لتأزيم العلاقات الانكلوعربية ولاستعادة مواقعهم فى العالم العربى . وفى اواخر ١٩٣٨ واوائل ١٩٣٩ اجرى هروبا مباحثات مستمرة مع الوزراء العراقيين بشأن تأييد المانيا للسياسة التى تنتهجها البلدان العربية فى المسألة الفلسطينية . الا ان المسؤولين فى بغداد اخذوا منذ اواخر عام ١٩٣٨، عندما اصبح نورى سعيد رئيسا للوزراء ، يدركون ، بمساعدة الانجليز طبعا ، موقف المانيا الفعلى من المسألة

الفلسطينية . ففى شباط (فبراير) ١٩٣٩ لفت وزير مالية العراق رستم حيدر انظار هروبا الى ذلك مؤكدا ان العراق لا يمكنه ان يقف موقف اللامبالاة ازاء مصير سوريا وفلسطين على الخصوص .

والى جانب النشاط الدبلوماسى شددت المانيا الهتلرية النشاط التجسسى التخريبى فى العراق . فطوال عـــام ١٩٣٨ زار العراق مرارا روديه ، الملحق العسكرى الالمانى فى تركيا . وقد اهتم روديه خصوصا « بحالة الجيش العراقى ومدى تاثير الانجليز عليه وحالة الطرق المؤدية من بغداد الى البصرة قرب الخليج العربى والى خانقين على الحدود مع ايران » (٢١) . واتسمت باهمية خاصة زيارة مدير المخابرات العسكرية الالمانية الاميرال كاناريس الى بغداد فى العام ذاته ، حيث قام بنشاط لتعبئـــة العملاء من بين الشخصيات الاجتماعية والسياسية فى البلاد .

ومارس نشاطا لا اقل من ذلك فى العراق عالم الاثار الالمانى ايوردان الذى شغل منصب مستشار فى مديرية الاثار العراقيـــة وقاد « بالاضافة الى وظيفته » المجموعة العراقية من الحزب القومى الاشتراكى النازى .

ومع ذلك بدا الضعف واضحا فى المواقع الالمانية فى العراق فى اواخر ١٩٣٨ واوائل ١٩٣٩ . ولذلك نشطت الدبلوماسيـــة الهتلرية فى البحث عن رأس جسر « احتياطى » فى العالم العربى . وكان على العربية السعودية ان تلعب دور رأس الجسر هذا حسب رأى « المستشرقين » العاملين فى وزارة الخارجيـــة والمخـــابرات العسكرية الالمانية . وفى عام ١٩٣٧ اقيمت مع العربية السعودية الاتصالات على اساس النضال المشترك نفسه ضد الاستعمار الصهيونى لفلسطين ، ذلك النضال الذى اصبح بمثابة مفتاح كان الهتلريـــون

يأملون بأستخدامه لفتح ابواب الشرق الاوسط التى اوصدهـا الامبرياليون البريطانيون باحكام بعد الحرب العالمية الاولى .

وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٣٩ اقيمت العلاقات الدبلوماسية رسميا مع العربية السعودية . واصبح هروبا ، اضافة الى وظيفته ، قائما باعمال المانيا فى جدة . وكان مقررا ان ينتقل جميع موظفى الممثلية الالمانية فى بغداد ، بمن فيهم الكثير من الممثلين السريين للمخابرات العسكرية الالمانية ، الى جدة فى حالة نشوب الحرب وقطع العلاقات الدبلوماسية مع العراق (الامر الذى كان محتملا جدا بعد تسلم نورى سعيد السلطة) . وفى ايار (مايو) ١٩٣٩ وصل السكرتير الشخصى لابن سعود الى المانيـا بزيـارة خاصة . وفى حزيران (يونيو) بدأت المباحثات بين وزارة الخارجية الالمانية والمبعوث السعودى خالد الهود . وفى ١٧ حزيران ١٩٣٩ حظى المبعوث السعودى بمقابلة هتلر الذى اعلن : « ان لدى المانيـا والعرب اعداءا مشتركين » . والتزمت الحكومة الالمانية بتقديم قرض الى العربية السعودية بمبلغ ٦ ملايين مارك لاقتناء الاسلحة الالمانية . وقدمت المانيا هدية الى ابن سعود ٤٠٠٠ بندقية من احدث طراز (٢٢) .

وبقدر اقتراب الحرب العالمية الثانية اصبح الصراع من اجل الشرقين الادنى والاوسط اكثر ضراوة . وكان السبب الشكلى لاندلاع الحرب العالمية الثانية فى ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ هو هجـوم المانيا الهتلرية على بولونيا . اما فى الواقع فان من اهم اسباب اندلاع الحرب سعى دول المحور الى ازاحة مزاحميها من شمال افريقيا ومن كل المنطقة الشاسعة الممتدة من البحـر الابيض المتوسط الى قمم هندوكش الثلجية . وقد عثر فى الارشيفـات النازية على وثيقة سرية للغاية مؤرخة فى ٢ كانون الثانى (يناير)

١٩٣٨ ، وهى تبين ان الاوساط الحاكمة فى المانيا الهتلرية ، بمن فيها اصحاب اكبر الاحتكارات فى البلاد ، كانت تطمع بقسم كبير من العالم العربى (٢٣) . وفى ٧ آب (اغسطس) ١٩٣٩ اعلن غورنغ بصراحة فى حديث له مع ممثلى بريطانيا : «ان الشرقين الادنى والاوسط هما منطقة اقتصادية طبيعية لالمانيا ، وهما يشكلان بالنسبة لنا مسألة حيوية هامة» . وتستر غورنغ على مطامعه «بخطر انتشار الشيوعية» فطالب بالاعتراف بان الشرقين الادنى والاوسط «منطقة نفوذ المانى» (٢٤) .

ومنذ الايام الاولى للحرب العالمية الثانية ، حيث كان ينبغى لاهتمام القيادة الهتلرية ان يتركز ، كما يبدو ، على العمليات الحربية فى بولونيا وعلى الوضع العسكرى السياسى المعقد جدا فى اوربا ، لم تكف برلين عن التطلع الى العالم العربى .

وفى خريف ١٩٣٩ تسلم هتلر تقريرا بعنوان كبير الدلالة «السياسة وخوض العمليات الحربية فى الشرق الاوسط» . وكان واضع هذا التقرير هو البروفسور اوسكار نيدرماير ، العقيد المكلف بالمهمات الخاصة فى اركان القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية . وقد جاب اثناء الحرب العالمية الاولى البلدان العربية وايران فوصل الى افغانستان وسلم حاكمها الامير حبيب الله رسالتين من غليوم الثانى والسلطان العثمانى واخذ يقنعه ببدء اقتحام الهند . اما الآن فقد اثبت البروفسور المخرب هذا فى تقريره ان من الضرورى لالمانيا ان تسيطر على كامل المنطقة الواقعة بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربى . واقترح نيدرماير استخدام القفقاس بمثابة منطلق لغزو هذه المنطقة . وكان على الفرق الالمانية ان تشق طريقها مما وراء القفقاس عبر مضيق راوندوز الجبلى الى منطقة الموصل . ويعتقد نيدرماير ان

احتلال العراق سيجعل الالمـــان يمتلكون البترول وليس ذلك وحســـب ، بل ويجعلهم أسيـــادا للشرقين الادنى والاوسط باسرهما (٢٥) .

وفى الوقت ذاته تقريبا تسلم هتلر تقريرا من بروفسور آخر هو المستشرق الذى ورد ذكره اعلاه ، ماكس اوبنهايم ، مستشار غليوم الثانى فى الشؤون الاسلامية فى عام ١٨٩٨ . وافاد اوبنهايم فى تقريره الى هتلر ان احد الاهداف الاساسية لالمانيا فى الحرب هو «تقييد القوات المسلحة البريطانية فى الشرق الاوسط ، وخلق العراقيل امام تصدير البترول وبالتالى حرمان الاسطول الحربى والتجارى البريطانى من الوقود ، وقطع المواصلات البريطانيـــة فى منطقة قناة السويس ، والقضاء ، اخيرا ، على السيطرة البريطانية فى الشرق الاوسط» (٢٦) .

وقد ترك تقريرا نيدرماير وابنهايم اثرا كبيرا لدى هتلر . ففى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩ ، اى بعد شهر من اندلاع الحرب العالمية الثانية ، بعث هتلر الى الاركان العامة مذكرة كتبها هو شخصيا بشأن اهداف المانيا فى الحرب . ومما يؤسف له ان هذه الوثيقة الهامة قد ضاعت . الا انه من المعروف ان هذه الوثيقة اصبحت اساسا لامر خاص وقعه القائد العام للقوات البرية الالمانية الفيلدمارشال فون براوخيتش فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٩ . والزم الامر الاركان العامة بالتحضير الشامل لعملية هجومية واسعة باسم الشفرة «الجنوب الشرقى» . ونصت العملية على ان تشق قطعات الدبابات والقطعات الآلية الالمانية طريقها عبر بلغاريـــا وتركيا الى العراق . ولتنفيذ هذه الخطة عقد رئيس الاركان العامة الجنرال ــ كولونيل هالدر اجتماعـــا واسعا فى ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٩ ، وكان الاجتماع مكرسا للعراق . وساهم فيه

الدبلوماسيون ورجال المخـــابرات وموظفو ادارة العمليات فى الاركان العامة من الذين لديهم خبرة فى العمل فى البلدان العربية . ودار الحديث عن وضع خطط العمليات المباشرة لاقتحام القوات المسلحة الالمانيـــة المرتقب اراضى العراق والبلدان العربيـــة الاخرى (٢٧) .

ولقد نفذ توجيه هتلر وامر براوخيتش . ففى شباط (فبراير) ١٩٤٠ عقد لدى هالدر اجتماع جديد طويل الامد . وقد كرس الاجتماع للشرق الاوسط . وفى غضون الشهور الثلاثة التى مرت على الاجتماع الاول استكمل رجال الاركان العامة الهتلريون خطة براوخيتش الاولية وحسنوها . فلئن كان امر براوخيتش الاول فى تشرين الثانى ١٩٣٩ ينص على مجرد وضع خطة عملية «الجنوب الشرقى» ، اى اقتحام العراق عن طريق بلغاريا وتركيا ، فـــان الاجتماع الجديد ناقش كذلك خطة العملية الثانية «القفقاسية» التى نصت على اقتحام العراق من الشمـــال الشرقى عبر ما وراء القفقاس وايران (٢٨) . وهكذا تجسدت افكار تقريرى نيدرماير وابنهايم . ومما يدل على الاهمية الكبيرة التى علقها الهتلريون على العملية «القفقاسية» ان التقرير بهذا الشان القاه فى اجتمـــاع الاركان العامة فى شباط واحد من اقرب مســـاعدى هالدر وهو الجنرال ميت .

ومما يثير الانتباه الوقت الذى جرت فيه مناقشة الخطة . فمنذ شباط (فبراير) ١٩٤٠ لم يبق غير شهرين لاقتحـــام القوات الالمانية للدانمرك والنرويج ، وغير ثلاثة شهور لاقتحـــام هذه القوات هولندة وبلجيكا وفرنسا . ولذا كانت مشاغل رجال الاركان العامة الالمان كثيرة للغاية . ومع ذلك شرعت الاركان العامة على نحو جدى بوضع خطط احتلال العالم العربى ، وذلك تنفيذا لتوجيهات

هتلر والاحتكارات الالمانية . ويؤكد ذلك مرة اخرى دور هذه المنطقة فى اندلاع الحرب العالمية الثانية .

غير ان خطة اقتحام العالم العربى لم تحظ بمصادقة نهائية فى اجتماع الاركان العامة فى شباط ١٩٤٠ . فقد اتضح ان هجوم القوات الالمانية من جهتى الشمال الشرقى والشمال الغربى غير كاف لاحتلال الشرق الاوسط كله احتلالا سريعا . وتقرر اضافة رأس جسر ثالث من الجنوب الغربى . وعهد هالدر الى الجنرال ميت باعادة وضع خطة اقتحام البلدان العربية ، وهو يقصد هجوم طوابير الدبابات والطوابير الآلية على هذه المنطقة من ثلاث جهات: عبر بلغاريا وتركيا الى العراق ، عبر ما وراء القفقاس وايران الى العراق ، عبر ليبيا ومصر الى فلسطين وشرق الاردن . ونتيجة لذلك يتحول العراق الى مركز لهذه الستراتيجية الثلاثية الاطراف التى اعدها الجنرالات الالمان (٢٩) . والى جانب الجنرالات ، عمل بنشاط كبير الجواسيس والدبلوماسيون الالمان فى تنفيذ الخطط العدوانية للاحتكارات الالمانية فى العالم العربى . وابدى هؤلاء ايضا اهتماما خاصا بالعراق نظرا لثرواته البترولية وموقعه الستراتيجى فى قلب الشرق الاوسط .

ومنذ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ ، على اثر اندلاع الحرب العالمية الثانية ، قطع العراق ، تحت ضغط بريطانيا ، علاقاته الدبلوماسية مع المانيا . وكان من شان ذلك ، برأى المستعمرين البريطانيين ، ان يضعف مواقع مزاحميهم الالمان فى العالم العربى بأسره ، وذلك لان السفارة النازية فى بغداد برئاسة هروبا اصبحت منذ زمان مركزا للدسائس ضد الانجليز فى الشرق الاوسط . وفى السنوات الاولى للحرب كان الوضع السياسى والاقتصادى فى العراق متوترا للغاية . واشتدت بلا انقطاع الميول المعادية للامبريالية

والتى اتسمت بمعـــاداة الانجليز . وفى هذه الظروف لم يستطع الاقطاعى الرجعى نورى سعيد ان يحتفظ بالسلطة . ففى اذار (مارس) ١٩٤٠ اصبح رئيســا للوزراء فى العراق رشيد عالى الكيلانى الذى كان يتمتع بدعم قســم كبير من الجيش . ودخلت الدبلوماسية الالمانية اللعبة على الفور . فقد اقام السفير الالمانى فى انقرة فون بابين اتصالا مع ممثلى الحكومة العراقيـــة الذين وصلوا الى انقرة ووعدهم بالمساعدة الاقتصادية والسياسيـــة والعسكرية الشاملة فى حالة دخول العراق حربا ضد بريطانيا .

ومارست حليفة المانيا الهتلرية ايطاليا الفاشية نشاطا مشددا فى العالم العربى ، بما فيه العراق . ولذلك ففى حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، بعد دخول ايطاليا الحرب الى جانب المانيا ، طالبت الحكومة البريطانية رشيد عالى الكيلانى بقطع العلاقات الدبلوماسية مع روما . وولد ذلك ترددا كبيرا فى بغداد ، لاسيما وان الحكومة التركية المرتبطة بالعراق حسب معاهدة سعد آباد لعام ١٩٣٧ قد رفضت طلب بريطانيا هذا ، مما ادى الى مزيد من التعقيد فى العلاقات الانكلوعراقية .

وفى تموز (يوليو) ١٩٤٠ زار بغـــداد سرا الجاســـوس الانجليزى المعروف العقيد نيوكومب الذى مارس الاعمال التخريبية فى سكة حديد الحجاز ابان الحرب العالمية الاولى عندما كان يعمل تحت اشراف لورنس . واستخدم نيوكومب علاقاته القديمة فى محاولة لجعل حكومـــة رشيد عالى الكيلانى تقطع علاقاتهـــا الدبلوماسية مع ايطاليا . واقترحت الحكومة العراقية الصفقـــة التالية : توافق الحكومة العراقية على قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا التى اثارت استنكارا شـــديدا فى العالم العربى بسبب اعمالها الوحشية فى ليبيا ، وليس هذا وحسب ، بل وتوافق على

اعلان الحرب على ايطاليا على شرط ان تقدم الحكومة البريطانية وعدا ثابتا بتأسيس دولة عربية مستقلة فى فلسطين وان توقف فورا هجرة اليهود اليهـا (٣٠) . ومن المعروف ان مصير عرب فلسطين كان منذ ذلك الحين يشغل بال العرب فى كل مكان . ورد شرشل الذى تسلم لتوه آنذاك منصب رئيس وزراء بريطانيـا برفض قاطع . فكيف يستطيع ان يتصرف على غير هذا النحو ؟ ففى ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٩ ، عندما كان شرشل وزيرا للبحرية فى بريطانيا ، اجرى لقاء سريا مع حايم وايزمان . وايد شرشل تصريح وايزمان : «سنؤسس فى فلسطين بعد الحرب دولة يبلغ سكانها ٣ـ٤ ملايين يهودى» ، فقال : «طبعا . اننى موافق على ذلك كليا» . وهكذا فقد عمق شرشـل فى ١٩٣٩ــ١٩٤٠ مأساة الشعب العربى الفلسطينى التى بدأت «بوعـد» بلفور فى ١٩١٧ . اذن فقد لعبت دورا كبيرا فى تأزيم العلاقات الانكلوعراقية فى ١٩٣٩ــ١٩٤٠ ليس فقط السياسة الاستعمارية البريطانيـة فى العراق وحقد الشعب العراقى على المستعمرين البريطانيين ، بل وتحالف الامبريالية البريطانية مع الصهاينة وآمال هؤلاء المعلقة على انشاء دولة يهودية فى فلسطين .

ولقد استخدم الفاشيون الالمان ذلك على نطاق واسـع ، بالرغم من انهم انفسهم ساعدوا بنشاط على تعزيز مواقع الصهاينة فى فلسطين التى عانت الامرّين . وطوال عام ١٩٤٠ ، عندما كان الامبرياليون الالمان يعدون وينفذون عملياتهم الهجومية ضـد منافسيهم البريطانيين والفرنسيين فى اوربا الغربية ، لم ينسوا ولو للحظة واحدة ممتلكاتهم ومناطق انتدابهم فى العالم العربى . فالى جانب التغلغل فى العراق وفلسطين ، حاول الهتلريون ان يكسبوا مواقع فى مصر وفى سوريا على الخصوص . فسوريا تشغل مواقع

حساسة فى الطريق الى بترول الموصل وعلى مشارف قناة السويس . الا ان تنفيذ خطط غزو سوريا لاقى صعوبة بسبب العلاقات المتبادلة بين الهتلريين وبين الفاشيين الايطاليين واعضاء حكومة فيشي الذين استمر جيشهم بقيادة الجنرال دينتس على احتلال سوريا ولبنان بعد استسلام فرنسا .

الامبريالية الالمانية فى الصراع
من اجل العالم العربى ابان الحرب العالمية الثانية .
التعاون مع الصهاينة فى مرحلته الجديدة

فى ربيع ١٩٤٠ ، عشية دخول ايطاليا الفاشية الحرب ، وقعت بين المانيا وايطاليا اتفاقية سرية ضمن فيها هتلر تحقيق حلم موسولينى القديم فى تحويل البحر الابيض المتوسط ، وقسمه الشرقى على الخصوص ، الى «بحيرة ايطالية» . واضطرت برلين مؤقتا الى الكف عن ممارسة النشاط فى سوريا ولبنان ، بينما وضعت لجنة الهدنة الفرنسية الايطالية الالمانية الموجودة آنذاك فى بيروت تحت اشراف ايطاليا .

غير ان برلين فى اواخر صيف ١٩٤٠ ، عندما اتضح للهتلريين اخفاق عملية «أسد البحر» ـ خطة انجاز الحرب فى الغرب عن طريق الانزال فى بريطانيا ـ قررت ان تنشط سياستها فى الشرق الاوسط ، دون الالتفات الى مطامع ايطاليا ، وذلك بغية توجيه الضربة الى منافسيها البريطانيين من الطرف الآخر . وسجل هالدر فى «يومياته الحربية» انه ناقش مع براوخيتش يوم ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٤٠ بالتفصيل الاجراءات التى يجب اتخاذها لتنشيط العمليات الحربية ضد بريطانيا ، بالرغم من استحالة الانزال فى

الجزر البريطانيـــة . وتقرر ان من بين الاجراءات التى ينبغى ان تتخذها القوات المسلحة الالمانية دون ابطاء «الهجوم على الانجليز فى منطقة حيفا والهجوم على قناة السويس» (٣١) . وتدل الوثائق العديدة الصادرة عن الاركان العامة الالمانية ووزارة خارجية المانيا على ان هذه الخطط كان مقررا تنفيذهـــا ليس فقط عن طريق مصر ، بل وكذلك عن طريق سوريا .

وهكذا اصبحت المشكلة السورية قضية الساعـــة . فطوال الفترة من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ الى اذار (مارس) ١٩٤١ اصبحت مسألة الموقف من حركة التحرر الوطنى العربية ، ومن سوريا على الخصوص ، مادة للمناقشات العديدة فى الاوســـاط الحاكمة فى المانيا . ففى حديث جرى فى الخامس عشر من كانون الثانى (يناير) ١٩٤١ مع ميلهرس ، وهو احد كبار موظفى وزارة الخارجية الالمانية ، اعلن ممثل القيادة العليا للقوات المسلحـــة الالمانية لوسبيرغ ان الاركان العامة الالمانية تعلق اهمية كبيرة جدا على الاستيلاء على العالم العربى بأسره وتعتبر «ابن سعود عاملا قيما للغاية فى هذه اللعبة» . ونوقش خلال هذا الحديث مشروع تأسيس دولة عربية تابعـــة ممتدة من البحر الابيض المتوسط حتى الخليج العربى (تحت الحماية الالمانيـــة طبعا) بزعامة ابن سعود ! (٣٢) .

الا ان وزارة الخارجية الالمانية عارضـــت هذا المشروع معارضة شديدة . ويتضح من التقارير السرية التى وجههـــا نائب وزير خارجية المانيا ويرمان الى رئيسه ريبنتروب ان تنفيذ هذا المشروع كان امرا مستحيلا للاسباب التالية : اولا ــ كانت تعارض هذا المشروع كليا ايطاليا الطامعة بغزو قسم من هذه الاراضى . ثانيا ــ من شأن هذا المشروع ان يثير تعقيدات مع حكومة فيشى

الفرنسية الطامعة فى الاحتفاظ بالسيطرة على سوريا ولبنان . ثالثا ــ ان تأييد حركة التحرر العربية ، حتى ولو كان شكليا ، من شأنه ، حسب رأى ويرمان وبابين ، ان يحرم الدبلوماسية الالمانية فى انقرة من حرية المناورة لانه : «... سيتعين فى ملابسات معينة تسليم جزء من سوريا الى تركيا» ! (٣٣) .

تلك هى الواجهة الحقيقية للدبلوماسية الهتلرية ، وذلك هو الثمن الحقيقى لمزاعم النازيين بشأن سعى الاوساط الحاكمة فى المانيا الى دعم الحركة التحررية العربية . ومن البديهى ان هذا الامر يحمل المرء على مقارنته بالتزامات بريطانيا لدعم حركة التحرر العربية فى ١٩١٥ــ١٩١٦ وبتوقيع اتفاقية العار فى الوقت ذاته ، اتفاقية سايكس ــ بيكو ١٩١٦ وبيان بلفور ١٩١٧ .

وفى الوقت الذى اراد فيه ويرمان تحويل سوريا الى سلعة لعقد صفقة حولها مع المستعمرين الفرنسيين والاوساط الرجعية فى تركيا ، مؤملا ، على ما يبدو ، ان يجعل تركيا تدخل الحرب لقاء ذلك الى جانب دول المحور ، كان اوبنهايم يتمسك بوجهة نظر مغايرة . ففى تقريره الدورى الذى قدمه الى ريبنتروب وهتلر فى ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤١ بذل جهده ليثبت بان الحكومة الالمانية ينبغى ان توجه اهتمامها الرئيسى الى مصالحها هى فى سوريا ، وذلك لان سوريا تشغل مركز الصدارة فى الشرق الاوسط . واقترح اوبنهايم العمل على تأسيس دولة عربية كبرى فى الشرق الاوسط ، فكتب يقول بصراحة : «سنلعب نحن الدور الرئيسى فى هذه الدولة منذ البداية» (٣٤) .

وهكذا ، ناقشت الاوساط الحاكمة فى المانيا الهتلرية عند ربيع ١٩٤١ مناقشة واسعة للغاية ليس القضية السورية ، بل وقضية اوسع هى القضية العربية عموما . وكان هناك رأيان بشأن

هذه القضية ، يتلخص الاول فى تحويل البلدان العربية الى عملة صرف فى المفاوضات مع ايطاليا وفرنسا وتركيا ، بينما يتلخص الثانى فى تأسيس محمية المانيـــة فى الشرق الاوسط من عدد من الدول والاراضى العربية . ولقد ذكرنا اعلاه ان الاركان العامة التى ايدت الرأى الثانى كانت تميل الى وضع هذه المحمية تحت سلطة الاقطاعيين السعوديين اسميا .

وعند ربيع ١٩٤١ زادت القيادة العليا العسكرية الالمانيـــة لجملة اسباب ستراتيجية ، اهتمامها بالشؤون العربية . وفى ٥ شباط (فبراير) ١٩٤١ وجهت القيادة العامـــة العليا للقوات المسلحة الالمانية (التى هى ، كما هو معروف ، اعلى منزلة من الاركان العامة وقيادة القوات البرية) مذكرة الى ريبنتروب اصرت فيها على تنشيط السياسة الالمانية فى العالم العربى لدرجة كبيرة . واعرب الفيلدمارشال كيتيل والمقربون اليه بصراحة ووقاحة عن تذمرهم من الاتفاقية الالمانية الايطالية لعام ١٩٤٠ التى منحت روما شيئا من حرية التصرف فى حوض البحر الابيض المتوسط ، وطالبوا بفسخ هذه الاتفاقية على الفور . وكانت رغبة العسكريين الالمان فى اطلاق ايديهم فى العالم العربى مرتبطة بالتحضير للعدوان على الاتحاد السوفييتى وبالاحداث فى العراق .

ففى النصف الثانى من عام ١٩٤٠ تأزم الوضـــع السيـــاسى والاقتصادى فى العراق لدرجة اكبر . وتعاظمت فى البلاد الميول المعادية لبريطانيا واشتدت دسائس العمـــلاء النازيين . وازداد كثيرا فى الوقت ذاته نشاط الامبريالية البريطانية الساعية الى استخدام الموارد البترولية وطرق المواصلات العراقية لنقل القوات العسكرية من الهند الى الشرق الاوسط . وبعد ان اقام فون بابين الاتصال مع ممثلى العراق فى انقرة اخذ يحرضهم بكل الوســـائل

على الكفاح المسلح ضد بريطانيا . وطلب رئيس وزراء العراق وقادة الجيش العراقى من المانيـــا ضمانات ذات طابع سياسى وعسكرى على حد سواء . ففى كانون الثانى (يناير) ١٩٤١ طالب الجانب العراقى فى جولة جديدة من المفاوضات الالمانية العراقية السرية فى العاصمة التركية ، ردا على اقتراح فون بابين ببدء القتال فورا ضد بريطانيا ، بمساعدة عسكرية ومالية كبيرة ، وليس ذلك وحسب ، بل طالب بالتزام رسمى من المانيا بشأن تحرير سوريا كليا وتأسيس حكومة وطنية فيها (٣٥) .

الا ان نوايا حكام المانيا بشأن سوريا كانت مغـــايرة لذلك تماما ، ولذا فلم تكن برلين راغبة فى سماع اى شىء حول استقلال سوريـــا . واكد توجيه الى فون بابين ان مهمته الرئيسية هـــى «كسب ثقة الحكومة العراقية بحيث يوجه العراق الضربة عندما يجعل الوضع العسكرى والسياسى العام توجيه هذه الضربة مناسبا . وعندما تدخل قواتنا الاراضى العربية او عندما تحل ساعة تفسخ الامبراطورية البريطانية سيكون بمقدور العراق ان يقدم لنـــا خدمات ثمينة» (٣٦) . وهكذا افردت برلين للوطنيين العراقيين دور عملاء الاحتكارات الالمانية والعسكريين الالمان .

وكانت اعمال الدبلوماسية الالمانية هذه تستجيب كليا لاراء هتلر بشأن دور ومكانة شعوب الشرق الاوسط فى ستراتيجية دول المحور . فقد اعلن الفوهرر بوقاحـــة امام قادة اكبر تشكيلات القوات المسلحة الالمانية فى ٢٢ آب (اغسطس) ١٩٣٩ قائلا : «سنتابع فى المستقبل ايضا تحريض العرب على القلاقل . ويتعين علينا ان نفكر باعتبارنا الاسياد وان نرى فى هذه الشعوب ، فى احسن الاحوال ، اشبـــاه قرود مزينـــة وهى بحاجـــة الى السوط» (٣٧) .

وحينما كانت المصلحات والدوائر العديدة المعنية فى برلين تناقش مختلف انواع الخطط لغزو العالم العربى لم يكن يغمض للندن جفن . وكان عملاء بريطانيا مطلعين على المفاوضـات بين رشيد عالى الكيلانى وممثليه وبين مبعوثى المانيا الهتلرية . ولذلك استطـاع الدبلوماسيون والجواسيس البريطانيون ان يطيحـوا بحكومة الكيلانى فى ٣١ كانون الثانى (يناير) ١٩٤١ . وفى اذار (مارس) دعى وزير خارجية العراق الجديد الى القاهرة ، حيث وصل آنذاك وزير خارجية بريطانيا ايدن . وطالب ايدن باسـم شرشل بحق القوات البريطانية فى احتلال اراضى العراق فى الواقع ، بعد ان استرسل بتصرف فى تفسير معاهدة ١٩٣٠ البريطانيـة العراقية . وفى الوقت ذاته حاكت السفارة البريطانيـة فى بغداد مختلف الدسائس الرامية الى عزل قيـادة الجيش العراقى عن الاوساط الاجتماعية فى البلاد والى تحويل المملكة العراقيـة من جديد الى شبه مستعمرة بريطانية بحجة «انقاذ العراق من الخطر الالمانى» .

وكان لاحداث بغداد وقع شديد على برلين . فالقمة الهتلرية الحاكمة لم تكن تريد الرضوخ الى كونها ضيعت فرصة رائعـة لاستخدام العراق كرأس جسر لمكافحة منافستها بريطانيا فى العالم العربى . وبعد ستة ايام من سقوط وزارة رشيد عالى الكيلانى عقد فى مقر المخابرات العسكرية فى برلين يوم ٦ شباط (فبراير) ١٩٤١ اجتماع سرى لقادة المخابرات العسكرية وكبار موظفى وزارة الخارجية . ونوقش الموقف فى العراق وفى الشرق الاوسط عموما . وتلا التقرير الرئيسى هروبا الذى اصبح مديرا «للجنـة العربية» فى وزارة الخارجيـة الالمانية بعد بداية الحرب وعلى اثر مغادرته بغداد اضطرارا (علما بان ابن سعود لم يسمح له

بدخول جدة وذلك تحت ضغط من البريطانيين) . وكان هروبا يتحمل كذلك مسؤولية شخصية عن اقامة الاتصالات السرية مع الشخصيات الموالية لالمانيا فى العراق وفى عدد من البلدان العربية الاخرى . وبالاتفاق مع ريبنتروب اقترح الاميرال كاناريس وضع خطة موحدة للاجراءات السياسية والدبلوماسية والدعائية والتخريبية فى العالم العربى بأسره . وكلف هروبا بتنسيق اعمال المخابرات العسكرية ووزارة الخارجية الالمانية فى هذه المنطقة . وتقرر كذلك حث النشاط الرامى الى اعداد الانتفاضات ضد البريطانيين فى العراق وشرق الاردن وفلسطين (٣٨) .

وعلقت المخابرات العسكرية ووزارة الخارجية على حد سواء آمالا كبرى على مفتى القدس الحاج امين الحسينى الذى اقامت الدبلوماسية الالمانية اتصالا وثيقا معه منذ عام ١٩٣٧ . وفى ربيع ١٩٣٩ فر الحسينى من فلسطين الى لبنان ، ثم سكن بغداد اعتبارا من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩ . وقد استخدم المفتى على نطاق واسع التعاطف الهائل فى العالم العربى بأسره ، وخصوصا سكان العراق ، مع النضال التحررى لعرب فلسطين ، فمارس عملا سياسيا ودعائيا واسعا . وأسس فى بغداد هيئة اركان له ، ضمت مستشارين للشؤون السياسية والدينية وشؤون السياسة الخارجية والصحافة والدعاية ، واخذ يتدخل فى الشؤون الداخلية للعراق دون خجل . فعلى اثر وصول المفتى الى بغداد اعلن مثلا فى خطاب وجهه الى جماعة من الشخصيات السياسية العراقية قائلا : لقد اقترفتم خطأ كبيرا بقطع العلاقات الدبلوماسية مع المانيا . وتأسست تحت اشراف الحسينى «لجنة تعاون البلدان العربية» التى ضمت بعض زعماء المنظمات القومية فى العراق وسوريا وشرق الاردن وفلسطين . وبالرغم من استياء بريطانيا الشديد اضطرت الحكومة

العراقية الى ان تضع رسميا تحت تصرف المفتى مبلغا سنويا يعادل ١٨ الف جنيه ، وان تدفع له سرا ١٠٠٠ جنيه فى الشهر ، وذلك نظرا للانتشار الواسع الذى حظى به شعار تحرير فلسطين . الا ان مداخيل المفتى لم تقتصر على ذلك . فاعتبارا من عام ١٩٣٩ اخذ يتسلم من المانيا معونة سرية تتجاوز ١٠٠ الف جنيه سنويا . وكانت المعونات المالية الكبيرة تتوارد كذلك عن طريق السفارة الايطالية فى بغداد ، وهى التى كانت لها مصلحة كبيرة فى توسيع الدعاية المناهضة لبريطانيا فى العالم العربى (٣٩) . وعن طريق الاتصالات الوثيقة مع المفتى الحسينى تهيأت للهتلريين امكانية ممارسة النشاط التخريبى فى الشرق الاوسط . وتدقيقا لخطط الاجتماع الذى عقد فى مقر المخابرات العسكرية الالمانية قدم ماكس اوبنهايم فى الشهر ذاته تقريرا الى نائب وزير الخارجية الالمانى هابيخت ، كتب فيه : «ينبغى ، الى جانب ازاحة الامير عبد الله الموالى لبريطانيا فى شرق الاردن ، تنظيم تمرد فى فلسطين . ومن المجدى تنصيب المفتى على رأس الحكومة الجديدة» (٤٠) .

وفى ٥ اذار (مارس) ١٩٤١ تسلم هتلر تقريرا من هروبا بعنوان «اهمية البترول بالنسبة للعمليات الحربية لدول المحور» . واشار التقرير الى : «ان هجوم دول المحور فى البر على قناة السويس (اسطنبول ــ السويس ــ ٢٥٠٠ كم) لا يمكن ان يتحقق الا بواسطة الوحدات الآلية مع تغطية من سلاح الجو . وهذه الوحدات تعتمد على التمون بالوقود . وبما ان نقل الوقود اللازم عن طريق البحر او الجو امر غير ممكن ، فمن الضرورى استخدام موارد البترول فى العراق . وبالتالى ، فمن الضرورى الاستيلاء على موارد الوقود هذه ، وكذلك انابيب البترول ، فى بادئ الامر ينبغى الاستيلاء على الخط المتجه الى طرابلس ، ثم الخط الثانى المتجه الى

حيفا ، واخيرا الاستيلاء على مصافى البترول فى طرابلس وخانقين وحيفا» . وفى الختـــام اكد هروبا بصورة قاطعة على ان الشرط الاول لفتح العمليات الحربيـــة فى الشرق هو السيطرة على حقول البترول فى العراق . وهكذا اصبحت مسألة الاستيلاء على العراق قضية الساعة من جديد (٤١) .

ولقد ترك تقرير هروبا اثرا كبيرا على الاوساط الحاكمـــة الالمانية ، لاسيما وانه كان يجسد رأى كبار المسؤولين فى الاركان العامة والقيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية . ودخل اللعبـــة كذلك ريبنتروب الذى ابدى مخاوفه ، وليس دون حق ، من ان التباطؤ وبعض التردد لدى دائرته بشأن القضايا العربية ، وخصوصا المسألة العراقية ، مما جعل البريطانيين فيما بعد يثأرون مـــن الهتلريين فى بغداد ، يمكن ان يثير استياءا شديدا لدى هتلر .

ففى ٢١ اذار (مارس) ١٩٤١ ارسل ريبنتروب توجيها الى موظفى دائرته وممثليها السريين فى العالم العربى بشأن «بذل كل ما فى وسعهم لتأمين دخول العراق الحرب فى القريب العاجل الى جانب دول المحور» (٤٢) . وفى ٢٤ اذار عقد لدى ويرمـــان نائب ريبنتروب اجتماع سرى ساهم فيه كبار المسؤولين فى وزارة الخارجية والاركان العامة والاميرال كاناريس . وكان جدول اعمال الاجتماع يتضمن مسألـــة واحدة هى اعداد وتطبيق الاجراءات الواسعة اللازمة لتدبير النزاع الانكلوعراقى . ونوقشت المسائل المتعلقة بنقل الاسلحة سرا الى العراق وتنظيـــم الانتفاضتين فى فلسطين وشرق الاردن (وقد ورد اقتراح بتنظيمهمـــا فى تقرير اوبنهايم) ، بغية صرف انتباه الوحدات البريطانية المرابطة هناك ، بالاضافة الى ممارسة اعمال التخريب العديدة فى المناطق الاخرى من العالم العربى . ووزعت فى الاجتماع الادوار على جميع المؤسسات

المعنية . وتقرر كذلك بدء المفاوضات مع السفير اليابانى فى برلين الجنرال اوسيما بشأن استخدام السفن والبريد الدبلوماسى لليابان التى كانت لا تزال محايدة انذاك بغية نقل الاسلحة والذخيرة والديناميت الى الشرق الاوسط (٤٣) .

وفى الوقت ذاته قرر الهتلريون زيادة نشاط الد اعداء حركة التحرر العربية ، نعنى الصهاينة . ففى اواخر ١٩٤٠ اقام ممثلو المخابرات العسكرية الالمانية اتصالا مع واحدة من اكثر المنظمات الصهيونية عدوانية ، نعنى «ارغون زفى ليومى» («المنظمة القومية العسكرية») ، التى انشق اعضاؤها عن «الهجانة» فى عام ١٩٣٥ لكى يشكلوا جماعة ارهابية تخريبية خاصة بهم . وفى ١١ كانون الثانى (يناير) ١٩٤١ ، فى الوقت الذى بدأت فيه ابادة اليهود بالجملة فى المانيا ، جرى فى اسطنبول لقاء بين ممثل المخابرات العسكرية الالمانية ــ الملحق العسكرى البحرى لدى السفارة الالمانية فى تركيا ــ وبين زعماء «المنظمة القومية العسكرية» الذين سلموا الملحق مشروع اتفاقية مع هتلر لايصاله الى برلين . واشار المشروع الى ان «المنظمة» المذكورة تسعى الى «التعاون بين المانيا الجديدة وبين اليهودية الشعبية القومية المجددة» . ويتعين على هذا «التعاون» ان يؤدى الى تأسيس «الدولة اليهودية التاريخية على اساس قومى وفاشى» . وكان زعماء «المنظمة القومية العسكرية» يرون ان هذه الدولة الصهيونية الجديدة ينبغى ان ترتبط «بعلاقات تحالف مع الرايخ الالمانى لصالح بقاء وتعزيز النفوذ الالمانى فى الشرق الاوسط» (٤٤) . وعلى هذا الاساس تم الاتفاق . وفى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٩٤١ عقد فى اسطنبول مؤتمر طويل الامد بين العميد البحرى مارويز المخول من قبل كاناريس والذى وصل خصيصا من برلين وبين زعماء «المنظمة

القومية العسكرية» (٤٥) . ولم يقتصر جدول الاعمال على تبادل المعلومات ابدا . فقد دار الحديث عن اعداد عمليات كبرى كان الصهاينة يتوقعون اجراءها ضد القوات المسلحة البريطانيـــة فى فلسطين بغية ارغام لندن على الغاء منع الهجرة اليهودية الواسعة الى فلسطين . وكان النشطاء من اعضاء «المنظمة القومية العسكرية» و«جماعة شتيرن» («لوخمى حيروت اسرائيل») المتطرفة للغاية ، والتى اقامت هى ايضا الاتصال مع المخابرات العسكرية الالمانية ، قد مارسوا تفجير الثكنات العسكرية البريطانية فى فلسطين واحرقوا صهاريج البترول وعطبوا انابيب البترول . ولم يتورعوا فى نشاطهم التخريبى واعمال الشانتاج حتى عن تفجير الباخرة «باتريا» فى ميناء حيفا يوم ٢٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٠ وعلى ظهرها مئات من المهاجرين اليهود ، بعد ان رفضت الادارة الاستعمارية البريطانية السماح لهم بالنزول فى فلسطين . وقد فجروا هذه الباخرة بغية اتهام بريطانيا بقتل المهاجرين ـ ضحايـــا الفاشية وحمل الحكومة البريطانية بالتالى على الغاء منع الهجرة (٤٦) .

ومما يميز رياء الصهاينة ان وفدا صهيونيا رسميا برئاســة وايزمان كان فى نفس الوقــت يجرى مفاوضــات مع الحكومــة البريطانية فى لندن حول تشكيل وحدات يهوديــة خاصة ضمن القوات المسلحة البريطانية فى فلسطين (٤٧) . وفى تلك الاثنــاء كان بيغين زعيم «المنظمة القوميــة العسكرية» وشتيرن يوجهان ممثلين جددا على الدوام الى فرع المخابرات العسكرية الالمانية فى اسطنبول (وقد نقل اليها ايضا مقر «موساد» من جنيف) لوضع اجراءات مشتركة فى الشرق الاوسط ، والاهم من ذلك هو تنسيق الاجراءات للتعجيل بالهجرة اليهودية من بلدان اوربا التى احتلها الهتلريون الى فلسطين . وقد دفعت اموال سخية لقاء خدمات المخابرات العسكرية الالمانية ورجال الاس اس .

وعندما كان الهتلريون يوجهون الناقلات التى تقل اغنى المهاجرين اليهود والذين جرى اختيارهم بدقة ، من اوربا الوسطى الى الشرق الاوسط كانوا يسفرون معهم بانتظام عددا كبيرا من عملاء دوائر المخابرات الالمانية . وقد جرى ذلك ، مثلا ، لدى نقل اليهود من بلاد التشيك ومورافيا عبر رومانيا الى فلسطين على متن الباخرة «سكرية» فى شباط (فبراير) ١٩٤٠ (٤٨) . ودفع نجاح هذه العملية الهتلريين الى متابعة العمل فى هذا الاتجـاه . ولعب دورا نشيطا فى انتقاء الجواسيس النازيين لارسالهم الى فلسطين الصهيونى باندى غروس (واسمه الآخر اندور ديرد) وهو من كبار موظفى الغستابو فى المجر آنذاك. الا ان هذه العمليات لم تكن موفقة على الدوام. ففى ١٩٤١ تسلمت دائرة الانتلجينس سيرفيس البريطانية معلومات عن صلات الصهاينة بالغستابو ، ولذا كان جواسيسها فى اسطنبول على اهبة الاستعداد. وفى شباط (فبراير) ١٩٤٢ علم هؤلاء ان الباخرة «ستروما» المتجهة من كونستانسا الى الشرق الاوسط وعلى متنها ٧٦٠ مهاجرا يهوديا ، بمن فيهم عدد كبير من الاطفال، تحمل ايضا جواسيس للغستابو . وعندما اقتربت «ستروما» من البوسفور تسلم كاناريس الذى استخدم على نطاق واسع الجواسيس العاملين لصالح بلدين فى وقت واحد اخبارية عاجلة تقول ان سره قد افتضح لدى الانجليز . وفى ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٤٢ دبر بابين ومستشار السفـارة كلايبير والجاسوس الصهيونى الملقب بـ«يعقوب» المرتبط اوثق ارتباط بفرع المخابرات العسكريـة الالمانية فى اسطنبول ــ دبروا بتوجيه من المخابرات العسكرية الالمانية اغراق الباخرة «ستروما» . ففى الليل عندمـا القت الباخرة مراسيها فى البوسفور اطلق زورق عسكرى مجهول الهوية طوربيدا اصاب الباخرة مباشرة . ولم يستطع صيادو السمك ان

ينقذوا الا اثنين فقط من المهـاجرين الـ٧٦٠ (٤٩) . ومع ذلك استمر التعاون بين الصهاينة والهتلريين فى العالم العربى .

وتابع المستعمرون البريطانيون بعين ساهرة الوضع فى الشرق الاوسط ودسائس الدول الفاشية وعملائها الكثيرين فى العـراق والبلدان العربية الاخرى . وطالبت السفارة البريطانية فى بغـداد بتنحية جميع الموظفين الكبار ذوى الميول الوطنية . وبحجة خطر الحرب من جانب دول المحور ارادت الاوساط الحاكمة البريطانية ان تعيد العراق الى عهد الانتداب وتستأنف حقوقها الاستعمارية كاملة فى البلاد .

وواجه ذلك كله مقاومة متزايدة من جانب الاوساط المناوئة للاستعمار ، وبالدرجة الاولى الضباط العراقيين .

ففى ليلة ١ على ٢ نيسان (ابريل) ١٩٤١ حدث انقلاب حكومى فى بغداد . وهرب عملاء بريطانيا . وللمرة الثانية تشكلت حكومة برئاسة رشيد عالى الكيلانى الذى حظى بدعم قسم كبير من الجيش . وفى صباح الثانى من نيسان التجأ الى الممثلية الاميركية فى بغداد الوصى على عرش العراق عبد الاله متنكرا ببدلة نسائية بعد ان اطاح به الانقلاب ليلا . وعبد الاله هذا هو اخطر واقـدم عميل للامبريالية البريطانية فى البلاد . واسرع المبعوث الاميركى كنابينشو فى الموافقة على تقديم حق اللجوء لعبد الاله الى بناية الممثلية . وبعد التشاور مع السفارة البريطانية لف كنابينشو عبد الالـه بسجادة كبيرة وخبأه فى سيارة السفارة ، ثم جلس مبعوث الولايات المتحدة الاميركية نفسه وراء مقود السيارة واخذ معه زوجتـه «للتمويه» ، كما كتب فى تقريره الرسمى فيما بعد ، ونقل عبد الاله الى القاعدة العسكرية البريطانية فى الحبانية ، ومن هناك جرى تسفير عبد الاله فورا الى الشعيبة (٥٠) .

وقد حظى عمل كنابينشو هذا البعيد عن اللياقة والذى هـو خـرق وقح للقانون الدولى باستحسان وزارة الخارجية الاميركية ، وانقذ واحدا من غلاة عملاء الامبريالية البغيضين فى العالم العربى . وسرعان ما اعاد الانجليز عبد الاله الى منصبه ، فظل فيه طوال ١٧ عامـا ، اغرق العراق خلالها بالدماء وكان اكبر منفذ للسياسـة الاستعمارية البريطانية فى العالم العربى . ولم تخلص العراق منه الا ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . ولقد كان انقاذ جلاد الشعب العراقى هذا فى عام ١٩٤١ واحدا من المشاهد المميزة «للصداقة» الاميركية العربية التى سنتحدث عنها بمزيد من التفصيل فيما بعد .

وكانت احداث نيسان ١٩٤١ قد لفتت من جديد انظار الاوساط الحاكمة فى كلتا الكتلتين الامبرياليتين الى بغداد . وكانت كل كتلـة تسعى الى استخـدام هذه الاحداث لصالحها . فبعد يومين مـن الانقلاب وصل الى بغداد السفير البريطانى الجديد كورنولث الـذى كان تعيينه هو بالذات لهذا المنصب فى تلك الفترة يوضح نوايـا الحكومة البريطانية بدرجـة لا اقل من التوجيهات السريـة التى تسلمها . فقد كان كورنولث ، ذلك الموظف القديم فى الجهـاز الاستعمارى البريطانى فى السودان ومصر ، قد ترأس لبعض الوقت ابان الحرب العالمية الاولى «المكتب العربى» فى القاهرة ، وهو ، كما ذكرنا سابقا ، مركز الدسائس والتخريبات البريطانية فى العالم العربى . وطوال الثلاثينات كان كورنولث «مستشارا» لوزيـر داخلية العراق ، وبعبارة اخرى ، فقد ترأس المخابرات المضـادة البريطانية كلها ليس فى هذا البلد وحده ، بل وفى البلدان المتاخمة له . وتسلـم كورنولث توجيها دقيقا من ايدن بـان لا يعترف بحكومة رشيد عالى الكيلانى وليس هذا وحسب بل وبان يعمل على اسقاطها . وجديـر بالذكر ان كنابينشو التزم بموقف «عـدم

الاعتراف» بحكومة الكيلانى ، وذلك تحت ضغط من الدبلوماسية البريطانية ، واتهم الحكومة العراقية فى مستهل نيسان (ابريل) باستلام السلطة بطرق «غير دستورية» .

وفى غضون الاسبوع الاول من نيسان جرى فى الاوساط الحاكمة البريطانية صراع طاحن حول اخطر مسألة تاكتيكية هى كيفية التخلص من حكومة رشيد عالى الكيلانى . وكان شرشل الذى تعز عليه مصالح اصحاب الاسهم فى «شركة البترول البريطانية الايرانية» (فان عبادان تقع على مصب كارون فى شط العرب عند الحدود العراقية) و«شركة نفط العراق» طبعا ، قد طالب بالتدخل المسلح فورا . ونظرا للموقف الدولى دعا ايدن الى الحذر . وكان قد التزم بهذا الموقف ذاته ، ولكن لسبب آخر ، قائد القوات المسلحة البريطانية فى الشرقين الادنى والاوسط الجنرال وايويل الذى اصر على انه لا يمتلك القوى والامكانيات اللازمة لفتح جبهة جديدة — فى العراق — فى معمعان العمليات الحربية ضد رومل فى مصر وضد ليست فى اليونان . وكما كان متوقعا ، فقد انتصرت وجهة نظر شرشل الذى يمثل مصالح اكثر الاوساط الاستعمارية والبترولية رجعية فى بريطانيا . ويقول البروفسور باتلر ان لجنة التخطيط العسكرى والسياسى لدى المجلس الحربى البريطانى قدمت فى ٨ نيسان ١٩٤١ تقريرا «اوصت فيه باتخاذ اية اجراءات لاسقاط حكومة رشيد عالى الكيلانى ، وبرجاء قيادة القوات المسلحة البريطانية فى الهند ان توجه على الفور فصيلا من القوات الى البصرة . وقد اتخذت الاجراءات اللازمة فورا» (٥١) . (وكانت الحكومة البريطانية منذ اواسط ١٩٤٠ تنوى ارسال فرقة من الهند الى العراق لمقاومة العناصر المعادية . الا ان هذه الفرقة ارسلت الى مصر بدلا من العراق) .

وفى مساء ٨ نيسان اقر المجلس الحربى الاقتراح بصدد انزال القوات فى البصرة و«اتخاذ اية اجراءات لاسقاط حكومة رشيد عالى» . وهكذا شرعت الامبريالية البريطانية باحتلال العراق . وتم ذلك من الناحية الرسمية بغية استخدام خطوط المواصلات العراقية . اما فى الواقع فكان المقصود استعباد العراق من جديد . ومما يثير الانتباه اعتراف البروفسور باتلو على اساس دراسة الارشيفات بان المستعمرين البريطانيين كانوا ينوون تحقيق ذلك فى صيف ١٩٤٠ ، اى حينما كان زمام السلطة فى يد الوزارة الكيلانية «الشرعية» الاولى ، ولكن تطور العمليات الحربية على الحدود الغربية لمصر حال دون ذلك . وتدل على الموقف الفعلى للاوساط الحاكمة البريطانية من حكومة رشيد عالى الكيلانى اقوال الجنرال ماجور فولر ، وهو من اكبر الشخصيات العسكرية فى بريطانيا . فقد نعت فولر فى كتابه «الحرب العالمية الثانية» رئيس الوزارة العراقى والشخصية الحكومية والاجتماعية البارزة فى العالم العربى رشيد عالى الكيلانى بانه «عميل ماجور للالمان» (٥٢) .

وفى نيسان (ابريل) ١٩٤١ انتقل الفاشيون الالمان ايضا الى مرحلة جديدة من العمليات الحربية فى البلدان العربية . ولدى الاشارة الى ذلك ينبغى التأكيد بان الانقلاب المناوئ للامبريالية فى بغداد حققته فى ١ نيسان ١٩٤١ القوى الوطنية وليس عملاء المانيا ابدا . ولذلك فان الاجراءات التى رسمها الاجتماع لدى ويرمان فى ٢٤ اذار (مارس) كانت متأخرة فقد بوغتت بالانقلاب ليس لندن وحدها ، بل وبرلين ايضا . وبديهى ان الفاشيين الالمان حاولوا فورا الاستفادة من الاحداث فى بغداد لصالحهم ودفع رشيد عالى الذى اجروا معه ، كما ذكرنا سابقا ، مفاوضات

استغرقت اكثر من عام الى صدام حربى مع بريطانيا . فذلك من شانه ان يشل القوات البريطانية فى الشرق الاوسط ويسهل على الفيلدمارشال ليست الهجوم فى البلقان وعلى الفيلدمارشال رومل الهجوم فى مصر ويفتح الطريق امام الالمان الى نفط العراق .

الا ان تنفيذ خطط الالمان تلكأ بغتة بسبب مقاومة ... حلفائهم الايطاليين . فخلال العام الذى تصرم على الاتفاقية الوارد ذكرها بين هتلر وموسولينى تغير تناسب القوى تغيرا جذريا داخل الحلف الفاشى . ففى غضون عام ١٩٤١ اندحرت القوات الايطالية مرتين على الجبهة الليبية المصرية ومنيت بهزيمتين شنيعتين فى اليونان والبانيا . وفى ربيع ١٩٤١ اندحر الايطاليون فى شمال شرقى افريقيا ودخلت القوات البريطانية والاثيوبية اديس ابابا . وفى نفس الوقت تقريبا ـ ٢٨ اذار (مارس) ١٩٤١ ـ منى الاسطول الايطالى بهزيمة ماحقة فى معركة رأس ماتابان البحرية والجوية الكبرى . ولذلك صار الفاشيون الايطاليون يخشون من ان الصدام الحربى بين العراق وبريطانيا ، فى ظروف التعزز الكبير لمواقع المانيا داخل المحور وفى شرقى البحر الابيض المتوسط على حد سواء ، سوف يؤدى الى اقامة السيطرة المطلقة لالمانيا على القسم الاكبر من الشرق الاوسط ، بما فى ذلك بترول العراق الذى كانت للفاشيين الايطاليين نواياهم الخاصة بشانه . زد على ذلك ان دخول العراق الحرب الى جانب المانيا من شانه ان يؤدى فورا الى استئناف العلاقات الدبلوماسية بين برلين وبغداد ، وبالتالى الى حرمان ايطاليا من الاسبقية والامتيازات التى لا جدال فيها ، باعتبارها الممثلة الوحيدة لدول المحور ليس فى العاصمة العراقية فحسب ، بل وفى العالم العربى باسره . ولذلك ففى مستهل نيسان (ابريل) اعرب المبعوث الايطالى فى بغداد لرشيد عالى الكيلانى ،

بتوجيه مباشر من شيانو وموسوليني ، عن تعاطف دول المحور ، ولكنه اوصاه في الوقت ذاته بالحفاظ على رباطة الجاش والتريث في الصدام المسلح مع بريطانيا .

وولد ذلك اشد الاستياء في برلين التي لم تعد ، كما تدل المراسلات بين كيتيل وريبنتروب ، تهتم ابدا منذ بداية عام ١٩٤١ بمراعاة حسابات وآمال حليفتها ايطاليا المستضعفة في شؤون الشرق الاوسط ، كما في كثير من الامور الاخرى . ففي ٩ نيسان اتخذت في الاجتماع الواسع الذى عقد لدى ريبنتروب وكرس كليا للقضايا العربية جملة من القرارات البعيدة المدى . ومن ذلك تكليف السفير الالماني في روما باسم هتلر ان يصر على ان تقوم الدبلوماسية الايطالية في بغداد باكثر الاعمال حزما . وتقرر كذلك توصية حكومة رشيد عالي الكيلاني رسميا بان «تبدأ المقاومة المسلحة ضد بريطانيا» باسرع وقت ممكن . والزم جهاز وزارة الخارجية الالمانية بان يمارس نشاطا تخريبيا واسعا في جميع البلدان العربية ، بما فيها المغرب والجزائر وتونس . علما بان ريبنتروب أمر بممارسة هذا النشاط بالارتباط الوثيق مع الهيئات الدبلوماسية التابعة لاسبانيا والبرتغال (٥٣) .

وهكذا اتسعت صفوف «محررى» البلدان العربية . فقد انضم فرانكو وسالازار الى هتلر وموسوليني وبيتان . واخذ هؤلاء جميعا يتحايلون على بعضهم البعض ويخدعون بعضهم البعض ويمارسون الدسائس والتضليل خارقين الالتزامات التي قطعوها على انفسهم وكذلك الاتفاقات الشفوية والمعاهدات الموقعة بخصوص مناطق النفوذ في العالم العربي . ولم تفلت من ذلك حكومة فيشي المتعاونة مع الفاشية والتي وعدها ريبنتروب بالحفاظ على بقايا ممتلكاتها الاستعمارية ، وبالدرجة الاولى في البلدان العربية ، لقاء رضوخها

فى اوربا ، ولكنه شرع بممارسة نشاط متزايد فى «ضيعاتها» — فى شمال افريقيا ، وقد اختار لنفسه بمثابة حلفاء له هذه المرة جلادى شعوب افريقيا — فرانكو وسالازار !

غير ان ريبنتروب لم يكن يثق لا بشيانو ولافال ولا بزملائه هو . ولذلك فقد قدم فى نفس اجتماع ٩ نيسان ١٩٤١ الهام توجيها الى غيرمان لكى يؤسس فى الشرق الاوسط فورا مخابرات خاصة لوزارة الخارجية (عن طريق اعادة تنظيم «اللجنة العربية» التى ترأسها هروبا) من شأنها ان تعمل بصورة مستقلة عن المخابرات العسكرية الالمانية وعن «دائرة الامن» التابعة للاس اس والتى يترأسها كالتينبرونر وعن المكتب الاجنبى لدى الحزب القومى الاشتراكى برئاسة بوليه . وامر ريبنتروب بتزويد جميع جواسيس المخابرات الجديدة باحدث الاجهزة اللاسلكية بغية استلام المعلومات عن الوضع فى الشرق الاوسط قبل منافسيه .

ويتضح من مذكرات الجاسوس المحنك فون بابين ان هؤلاء لم يكونوا مجرد منافسين ، بل كانوا اعداء لدودين . فقد كتب فون بابين وهو يعدد مختلف تشعبات المخابرات الالمانية يقول : «لم يكن عمل هذه المؤسسات منسقا من قبل احد ما ابدا ، ولذلك كان بعضها يقطع الطريق على بعضها الآخر . وبلغت المزاحمة بينها فى تركيا الى حد انها وشت الى البوليس التركى بعملاء منافسيها» (٥٤) .

ودخل «اللعبة» العراقية بنشاط كبير مارشال الرايخ غورنغ ، القائد العام للقوات الجوية الالمانية . فبتوجيه منه اعد «المسح الجوى الجغرافى للعراق» الذى طبع بختم «سرى» فى عام ١٩٤١ ونشر فى طبعة ثانية عام ١٩٤٢ عندما كان الهتلريون يأملون باجتياح العراق عبر ما وراء القفقاس . وهذا «المسح» هو مجلد

من الحجم الكبير بـ٢٤٠ صفحة ، وهو مزود بمختلف التخطيطات والرسوم البيانية والكثير من خرائط المطارات وساحات الهبوط وصور المدن ، بل وحتى اشهر المبانى . وهو يحتوى معلومات عن المناخ والتربة ودرجات الحرارة والضغط الجوى ومعلومات عن اتجاهات الرياح وشدتها والزوابع الرملية ، وعن اخلاق وعادات سكان المدن والبدو الرحل خصوصا . والكتاب مزود بملحق هو عبارة عن قاموس المانى عربى صغير لمفردات الكلام يضم تعابير لا تمت بصلة الى مصطلحات القوات الجوية مثل «ارفع يديك» و«أسير» و«خادم» وهلمجرا . ويتضح من ذلك ان القوات الجوية الالمانية كانت تستعد ليس فقط لعمليات القصف ، بل ولعمليات الانزال الجوى فى العراق .

ان الجواب على السؤال بشأن كيفية استطاعة الهتلريين ان يمارسوا على نحو غير ملحوظ التصوير الجوى الدقيق للغاية لبلد كامل ، فى منتهى البساطة . فيكفى ان نتذكر وجود الخط الجوى برلين ــ اثينا ــ انقرة ــ بغداد ــ طهران ــ كابل الذى افتتحته شركة طيران «لوفتهانزا» الالمانية قبل تسلم هتلر السلطة ، ثم فرع هذا الخط : بغداد ــ بوشير ــ كراتشى ، وعند ذلك يتضح كل شيء . لقد كتبت الصحافة الالمانية كثيرا فى تلك السنوات عن الرسالة «التمدنية» للطيران الالمانى الذى ساعد بكل الوسائل ، كما زعمت الصحافة ، على التطور الاقتصادى فى العراق وايران . اما فى الواقع فان ملاحى «لوفتهانزا» الالمانية كانوا اسلافا للطيار باورز وزملائه الذين مارسوا بعد ربع قرن تحليقاتهم القرصنية فوق المنطقة ذاتها بطائراتهم «و ــ ٢» السيئة الصيت .

لقد كان نيسان (ابريل) ١٩٤١ شهرا متوترا للغاية فى بغداد . فالدبلوماسية البريطانية وشبكة الجواسيس البريطانيين

الواسعة كانتا تعملان بنشاط محموم فى التحضير لاسقاط وزارة رشيد عالى الكيلانى . ووصلت طائرات جديدة لتعزيز الوحدات الجوية البريطانية المرابطة فى الحبانية (قرب بغداد) وفى الشعيبة (قرب البصرة) . وتواردت الامدادات بلا انقطاع على القوات البريطانية التى احتلت البصرة . واستعدت الامبريالية البريطانية بنشاط كبير للتدخل المسلح الواسع ولبعث الانظمة الاستعمارية فى العراق .

وادت الاعمال الوقحة التى مارسها المستعمرون البريطانيون وعملاؤهم الى تزايد الميول المعادية لبريطانيا فى العراق . وقد استخدم هذا الامر الى اقصى حد عملاء المانيا الذين سعوا بكل الطرق والوسائل الى تطبيق القرارات التى اتخذها اجتماع ٩ نيسان (ابريل) لدى ريبنتروب . وتحت ضغط من برلين انخرطت الدبلوماسية الايطالية كذلك بنشاط كبير فى هذه اللعبة . وخلال المفاوضات التى اجراها ممثلو المانيا مع مبعوثى رشيد عالى الكيلانى فى انقرة وطهران والمبعوث الايطالى فى بغداد تلقت الحكومة العراقية بصورة رسمية وعدا بمساعدة كبيرة بشكل اسلحة وذخيرة وطائرات وعدد من الضباط والفنيين . ولقد اخذت الحكومة العراقية بعين الاعتبار التزامات دول المحور هذه . غير ان الوثائق الدبلوماسية الالمانية تدل على ان الجنرالات الالمان وهتلر نفسه على حد سواء كانوا يشكون فى امكانية تزويد العراق فعلا بالعتاد والذخيرة والضباط والفنيين فى ظروف الحياد التركى . فلم يكن هناك اتصال مباشر مع العراق عن طريق البر . الا ان الاوساط الحاكمة فى المانيا لم تكن تعبأ بذلك . فالمسألة بالنسبة لها كانت تتلخص ليس فى تنفيذ الالتزامات ، بل فى دفع العراق الى اعلان الحرب السافرة ضد بريطانيا ــ التى تحتل جنوبه ــ فى ايار

(مايو) ١٩٤١ بالذات حيث كانت فرق رومل تشق طريقها من ليبيا الى مصر ، بينما تستعد قوات الفيلدمارشال ليست للانزال فى كريت . وفى تلك اللحظة كان من المرغوب فيه خاصة ان يجتذب العراق ويلهى طائرات الانجليز ودباباتهم .

ومع ذلك لم يكن العراق هو البادئ بالعمليات الحربية . ففى ٢ ايار ١٩٤١ شنت القوات البريطانية المرابطة فى الحبانية العمليات الحربية بامر من شرشل ضد القوات العراقية التى حاصرت هذه القاعدة البريطانية . واثار ذلك اعمق الارتياح فى برلين . فقد سجل هالدر بسرور فى مذكراته ليوم ٢ ايار «بدأت العمليات الحربية بين العراق وبريطانيا !» . ومما له دلالته ان الصحافة الانجليزية ، بما فيها «التايمس» التى تفخر بموضوعيتها ، قد اسرعت فى اعلام القراء بان القوات العراقية هى التى فتحت النار . الا ان الحق عاد الى نصابه فيما بعد .

ونشبت قرب بغداد معارك ضارية ضد سلاح الجو البريطانى ووحدات الدبابات والمدرعات البريطانية . وكانت القوات العراقية محرومة من كل ما هو ضرورى . وكانت الحكومة العراقية تذكر روما وبرلين يوميا بالتزاماتهما . وفى ٣ ايار ١٩٤١ عرض المبعوث الايطالى فى بغداد مضمون حديثه مع رشيد عالى الكيلانى فى رسالة الى روما وكتب ان رئيس الوزراء العراقى اعلن فى هذا الحديث قائلا : قررت حكومتى اتخاذ موقف صارم ازاء بريطانيا استنادا الى التزامات المساعدة التى وعدت بها المانيا وايطاليا (٥٥) . وبعد ١٥ عاما اعلن رشيد عالى الكيلانى فى ١٩٥٦ ، وكان شيخا مريضا يقطن القاهرة ، فى حديث له مع المستعرب بريتهولتس ، مؤلف كتاب «انتفاضة العرب» فقال : كان بامكاننا ان نحرز النصر ونطرد الانجليز ليس من العراق

وحده ، بل ومن الشرق الاوسط باسره لو ان الالمان نفـــذوا التزامهم وبعثوا الينا ما وعدونا به من طائرات واسلحــــة ومستشارين . لقـــد حددنـــا بصورة مضبوطة مع برلين كـــل شيء : الخطط والمواعيد وحجم المساعدة . ولكنهم خانونا ... . (٥٦)

فما الذى حدث فى الواقع ؟ لم يكن المغامرون الالمان الذين وعدوا حكومة رشيد عالى الكيلانى بالمساعدة قد اعدوا شيئا فى الواقع . ففى اواخـــر اذار (مارس) ١٩٤١ ، قبل الانقلاب فى بغداد ، رفضت الحكومة التركية نهائيا السماح بمرور القطارات الالمانية المخصصة للعراق عبر اراضيها . وبالتالى ظلت هناك امكانية واحدة لا غير ، هى استخدام احتياطى العتـــاد الحربى الموجود فى سوريا تحت اشراف الجنرال دينتس التابع لحكومة فيشى . ولكن ذلك يتطلب موافقـــة الفرنسيين المتعاونين مع الالمان . وفى ١١ ايار (مايو) ١٩٤١ ، اثنـــاء زيارة دارلان رئيس حكومة فيشى الى بيرختسهادن تم بينه وبين هتلر الاتفاق على ان تهيئ حكومة فيشى جميع الظروف اللازمة فى مستعمراتها فى شمال افريقيا والشرق الاوسط لتحويلها الى رؤوس جســور للعمليات العدوانية للدول الفاشية وذلك مقابل تقليص التعويضات التى تدفعها فرنسا واطلاق سراح قسم من اسرى الحرب الفرنسيين . ونص هذا الاتفاق على ان توجه الى العراق ثلاثة ارباع احتياطى الاسلحة والذخيرة الفرنسية الموجودة فى سوريا . وتقرر ان تتحول حلب الى قاعدة للقوات الجوية الالمانية وان توضع خطوط المواصلات والاتصال السورية تحت تصرف القيادة الالمانية لخوض العمليات الحربية ضد القوات المسلحة البريطانية فى العراق . وفى الوقت ذاته توجه الى بيروت ودمشق المبعوث الشخصى لريبنتروب ران

الذى كان عليه ان يعمل بالتعاون مع السلطات الفرنسية فى تنظيم ارسال العتاد الحربى الذى تنازلت عنه فرنسا عن طريق سكة حديد بغداد الى العراق عبر اراضى تركيا . وعلى هذا النحو كانت الامبريالية الالمانية تامل باستخدام سكة حديد بغداد لشق طريقهـــا الى البلدان العربية .

الا ان المساعدة العسكرية لم تقدم الى العراق كليا تقريبا حتى بعد توقيع الاتفاقية فى بيرختسهادن ، بالرغم من الدعوات اليائسة التى كانت ترد من بغداد يوميا طلبا للمساعدة ، وذلك لأن البلاد فى اواسط ايـــار (مايو) صارت تتعرض لهجمات المستعمرين البريطانيين ليس فقط من الحبانية والشعيبـــة ، بل ومن شرق الاردن . ويعزى التلكؤ الجديد الى ان متاجرة محمومة نشبت فى روما وبرلين حول استخدام ثروات البلدان العربية . وتدل وثائق الارشيف الدبلوماسى الالمانى بانه لم يتم الاتفاق على اقتســـام موجودات «شركة نفط العراق» والبترول العراقى كله بالتساوى بين ايطاليا والمانيا الا فى منتصف ايار ١٩٤١ . ولكن ذلك لم يكن كافيا لارضاء الفاشيين الالمان . ففى اواسط ايار وصل سرا الى بغداد هروبا الذى اشترط على الحكومة العراقية ، لقاء المساعدة العسكرية الواسعة من قبل المانيـــا ، ان توافق على احتـــلال حقول البترول فى الموصل مؤقتا وكذلك سكة حديد بغداد ذاتها (٥٧) . وبسبب الكارثة الحربية التى حلت بالبلاد اضطر رشيد عالى الكيلانى الى الموافقة التى احتجت عليها قيادة الجيش العراقى . وتظاهر الهتلريون بانهم لا يعلمون شيئـــا عن هذا الاحتجاج . واعتبارا من ١٨ ايار شرعت القوات المسلحة الالمانية ، وسلاح الجو فى المقام الاول ، باجراء العمليات الحربية ضد القـــوات المسلحة البريطانية فى العراق .

وفى ٢٣ ايار ١٩٤١ وقع هتلر التوجيه رقم ٣٠ المكرس للعراق خصيصا . واشار هذا التوجيه مباشرة الى ان الانتفاضة فى العراق «تعزز القوى المعادية لبريطانيا خارج الحدود العراقية وتلحق الخلل بالمواصلات البريطانية وتبدى متطلبات اكبر ازاء القوات البريطانية والنقليات على حساب الجبهات الاخرى» (٥٧) . ذلك هو مكنون قرار المانيا الهتلرية بتقديم المساعدة الى العراق والبلدان العربية الاخرى ! ولهذا الغرض تأسست «هيئة الاركان الخاصة «ف»» برئاسة جنرال الجو فيلمى الذى كان عليه ان ينسق كامل نشاط المانيا العسكرى والتخريبى والدعائى فى البلـــدان العربية . وبمساعدة المخابرات العسكرية الالمانيـــة تم انزال الفصيلة الالمانية «لهيئة الاركان الخاصة «ف»» فى منطقة الموصل.

الا ان الهتلريين تأخروا فى تقديم المساعدة العسكرية لانهم كانوا مشغولين بالمتاجرة الوقحة الشنيعة حول حقوق استغلال الثروات الطبيعية فى العراق وبالتحضير لواحدة من اكبر عمليات الانزال الجوى فى الحرب العالمية الثانية ، نعنى احتلال جزيرة كريت . وكان المستعمرون البريطانيون قد عملوا بنشاط هادف اكبر . ففى ١٧ ايار ، ليوم واحد قبل انزال الفصائل الالمانية الاولى فى منطقة الموصل ، كانت مجموعة حربية بريطانية دخلت العراق من شرق الاردن قد قطعت سكة حديد بغداد ــ الموصل قرب سامراء وزحفت على بغداد من شمالها . وتؤكد كل هذه الوقائع ان الامبرياليين البريطانيين والالمان على حد سواء كانوا مشغولين بامر واحد هو تنفيذ خططهم لغزو العـــراق واخضاع البلدان العربية الاخرى ، ولم يكونوا ابدا ينوون حماية العراق من المستعمرين البريطانيين (كما زعم الفاشيون) او من الاستعبـــاد الهتلرى (كما زعم شرشل) .

ولم تتحقق تقديرات الهتلريين من ان الانتفاضة التى بدأت فى فلسطين فى ايار (مايو) ١٩٤١ بمساهمة نشيطة جدا من المفتى ستقيد ايدى المستعمرين البريطانيين وتضعف هجومهم فى العراق (وهو بالذات ما كتبه هروبا فى برقيته العاجلة بتاريخ ١٧ ايار عن هذا الحادث) (٥٨) .

وفى ٢٨ ايار ١٩٤١ اضطر رشيد عالى الكيلانى الى الفرار من بغداد . وغادر المندوب الالمانى هروبا العاصمة العراقية ليوم واحد قبل ذلك فتوجه الى كركوك . وكتب هروبا فى مذكراته انه كان اتفق مع رئيس وزراء العراق بشأن استخدام الخطة التى كان قد اعدها العقيد الالمانى هاينس فى عام ١٩٣٧ بتكليف من رئيس اركان الجيش العراقى انذاك بكر صدقى . وكان المفروض ان ينتقل رشيد عالى الكيلانى مع وزرائه الى كركوك وان يجرى هناك بالاشتراك مع الالمان تنظيم الدفاع عن كردستان دون القوات البريطانية المهاجمة من منطقة بغداد . اذن ، فقد كانت فكرة الدفاع عن كردستان التى طرحها بكر صدقى تتميز باهمية فعلية بالنسبة للرايخ الالمانى . ولذلك بالذات كانت الخطة التى وضعها هاينس بطلب من بكر صدقى محفوظة بامان فى خزانة السفارة الالمانية ! غير ان قطار رئيس الوزراء العراقى غادر بغداد ، كما يقول هروبا بمرارة ، ليس الى الشمال ، بل الى الجنوب نحو الحدود الايرانية (التى اسرع رشيد عالى الكيلانى لعبورها) لان الموظفين الذين رشاهم الانجليز اخبروا رئيس الوزراء بان القوات البريطانية قد قطعت طريق كركوك (٥٩) .

فى الاول من حزيران (يونيو) احتلت القوات البريطانية بغداد ، كما احتلت العراق بأسره حتى ١٨ حزيران . وطوال سنين عديدة مارس جيش الاحتلال البريطانى وتعداده مائة الف

محارب خنق حرية واستقلال هذا البلد العربى العريق . ويقول الكاتب العراقى المعروف غائب طعمة فرمان : بعد هزيمة الكيلانى اخذ الانجليز يمارسون سلطتهم فى العراق بصورة سافرة لا رحمة فيها . وغصت البلاد بأسرها بالقوات البريطانية ... وحلت ازمان عصيبة (٦٠) . وقتل فى المعارك التى حرض عليها الهتلريون لدرجة ما ضد المستعمرين البريطانيين ٤٩٧ جنديا عراقيا واصيب ٦٨٦ جنديا بجراح وضاع اثر ٥٤٨ جنديا . وزج بعدد كبير من العراقيين فى غياهب السجون والمعتقلات . الا ان الهتلريين لم يعتبروا انفسهم خاسرين . ففى يوم استسلام الحكومة العراقية - ٣٠ ايار - سجل الجنرال هالدر فى يومياته بارتياح : «ارغمت المعارك فى العراق الانجليز على تشتت قواتهم فى فترة بداية عمليتنا لاحتلال كريت وفى فترة الوضع العصيب للغاية بالنسبة لنا فى شمال افريقيا» (٦١) .

وانتهزت القيادة البريطانية فرصة التواطؤ بين الهتلريين وحكومة فيشى فارسلت قواتها الى سوريا ولبنان فى حزيران (يونيو) ١٩٤١ . وهكذا وقعت الاقطار العربية الثلاثة تحت سلطة المستعمرين من جديد ولسنين طويلة بنتيجة الصراع الانكلوالمانى من اجل الشرق الاوسط .

واعتبر الهتلريون الهزيمة فى الشرق الاوسط بمثابة اخفاق تاكتيكى . وكان هتلر والقيادة العليا يأملان بأخذ الثأر فى الشرق الاوسط بعد الانتصار على الاتحاد السوفييتى .

ومن المعروف ان المانيا الفاشية صرفت النصف الاول من عام ١٩٤١ فى التحضير المحموم للهجوم على الاتحاد السوفييتى . الا ان من الامور الاقل ذيوعا ان هتلر صادق فى ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، قبل الهجوم على الاتحاد السوفييتى بـ ١١ يوما ، على

التوجيه السرى رقم ٣٢ «الاجراءات التمهيدية لفترة ما بعد «بربروسا»» . وكان مصطلح «بربروسا» قد اختير كاسم الشفرة لخطة الهجوم القرصنى على الاتحاد السوفييتى . وكان فريدريك الاول هوهينشتاوفين الملقب «بذى اللحية الشقراء» (بربروسا) الذى اطلق هتلر كنيته على عمليته القرصنية تكريما له قد قاد الحملة الصليبية الثالثة وغرق مجللا بالعار فى حزيران ١١٩٠ قبيل المعركة الرئيسية فى سوريا ضد جيوش القائد العسكرى البارز والشخصية السياسية الكبيرة فى العالم العربى صلاح الدين الايوبى . الا ان هتلر الذى درس بكل اهتمام تاريخ الحملات الصليبية واقتدى بغليوم الثانى فنشر على نطاق واسع معلومات تزعم بانه اعتنق الاسلام لم يكن ينوى التسبيح بحمد قاهر الصليبيين صلاح الدين . وكان يعتقد بانه سيكون اكثر توفيقا من الامبراطور فريدريك الذى لم يمتد به العمر الى الانتصار على العرب ولم يستول على سوريا ومصر . ولقد كان هتلر يامل بعد الانتصار على الاتحاد السوفييتى باقتحام العالم العربى وتحقيق ما لم يستطع فريدريك هوهينشتاوفين ان يحققه ، ولذلك فليس من قبيل الصدفة ظهور مصطلح الشفرة «بربروسا» . ولقد اشار هتلر فى التوجيه رقم ٣٢ بتاريخ ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤١ الى «ان الكفاح ضد المواقع البريطانية فى البحر الابيض المتوسط وفى غرب آسيا سيستمر عن طريق الهجمات المركزة من ليبيا على مصر ومن بلغاريا على تركيا ومما وراء القفقاس على ايران» (٦٢) . وهكذا «اكتملت» خطة «الجنوب الشرقى» التى بدأ وضعها بأمر مباشر من هتلر فور اندلاع الحرب العالمية الثانية .

وقد تضمن التوجيه رقم ٣٢ فقرة خاصة تحت عنوان كثير الدلالة : «استخدام حركة العرب التحررية» . ولئن كان الكلام فى الوثائق العلنية والبرامج الاذاعية باللغة العربية من برلين ومقالات الدعاة الالمان يدور حول الصداقة النزيهة بين الالمان والعرب وعن المساعدة الشاملة لنضال العرب التحررى ضد المستعمرين البريطانيين ، فقد ذكر التوجيه السرى بالقلم العريض الهدف الحقيقى للامبرياليين الالمان . واشارت هذه الوثيقة الى «ان وضع بريطانيا فى الشرقين الادنى والاوسط ، فى حالة شن هجوم المانى واسع ، سيتعرض لخطر اكبر اذا قيدت القوات الكبيرة فى اللحظة اللازمة بقلاقل وانتفاضات العرب المدنية . ويجب ان تنسق فى الفترة التحضيرية بكل دقة جميع الاجراءات الحربية والسياسية والدعائية اللازمة لذلك» (٦٣) .

كان هتلر وجنرالاته يأملون بتنفيذ جميع خططهم لغزو الشرق الاوسط بعد الانتصار الخاطف على الاتحاد السوفييتى . وفى ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ هجم الهتلريون على الاتحاد السوفييتى . وبدأت الحرب الوطنية العظمى التى خاضها الشعب السوفييتى والتى ادت الى تغير جذرى ليس فقط فى طابع الحرب العالمية الثانية ، بل وفى مصير البشرية . وفى جبهات الحرب الوطنية قاتلت القوات المسلحة السوفييتية ليس فقط من اجل كرامة وطنها واستقلاله ، بل ومن اجل حرية شعوب الشرق ، بما فيها شعوب البلدان العربية . وتؤكد هذا الامر الوثائق الالمانية التى اصبحت معروفة فى الاونة الاخيرة .

ففى «اليوميات الحربية للقيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية» الصادرة بعدة مجلدات فى ويسبادن ورد جدول بعنوان «اعادة تنظيم القوات البرية بعد انتهاء الحملة الشرقية» .

وقد وضع هذا الجدول المثير للاهتمام فى الخامس عشر من تموز (يوليو) ١٩٤١ تحت تاثير الانتصارات المؤقتة التى احرزتها القوات الفاشية فى الجبهة السوفييتية . ويشير الجدول ، فيما يشير ، الى ان القيادة الالمانية تنوى ، بعد الانتصار على الاتحاد السوفييتى ، تخصيص ١٤ فرقة لاحتلال الشرقين الادنى والاوسط ، بما فيها ٥ فرق للمشاة و٤ فرق للدبابات وفرقتان آليتان وثلاث فرق للمشاة الجبليين . ونص التوجيه رقم ٣٢ المؤرخ فى ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤١ والخاص باحتلال بلدان الشرقين الادنى والاوسط ، «بعد انجاز خطة بربروسا» ، على دخول القوات الالمانية هذه المنطقة من ثلاث جهات ــ عن طريق مصر وتركيا وما وراء القفقاس . وابدى التوجيه اهتماما خاصا بالجبهة الثالثة التى كان مقررا تسديد الضربة الرئيسية منها . ويحتوى المجلد الاول من «اليوميات الحربية للقيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية» على «خطة الهجوم عبر القفقاس ــ عملية من منطقة شمال القفقاس عبر سلسلة جبال القفقاس وشمال غربى ايران بغية احتلال مضيقى راوندوز وخانقين الجبليين على الحدود العراقية الايرانية» . وتشير هذه الوثيقة المثيرة مباشرة الى «ان هدف العملية هو الاستيلاء على مناطق البترول فى القفقاس واحتلال المضيقين الجبليين على الحدود العراقية الايرانية قبل ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ لمتابعة الزحف على بغداد» (٦٤) . وهكذا لم يعد هناك ذكر لمساعدة «الاشقاء» العرب . فبلغة عسكرية موجزة يتحدث الكتاب عن احتلال كامل القسمين الشمالى والاوسط من العراق بما فيهما بغداد .

وبالرغم من هزيمة المغامرين الفاشيين فى معركة موسكو فقد تابعوا وضع خطط الاستيلاء على القسم الجنوبى من الاتحاد

السوفييتى وكذلك الشرق الاوسط مؤملين بتحقيق هذه الخطط فى عام ١٩٤٢ . وبهذا الخصوص تتميز باهمية كبيرة احدى وثائق كتاب «تشريح الحرب» ، نعنى امر ريبنتروب الذى اعده هروبا وصدر فى ٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢ . فقد ورد فى هذا الامر : «من الضرورى اجراء جميع التدابير التمهيدية لاحتلال مناطق حقول البترول فى مختلف مناطق العالم العربى وايران (كركوك وخانقين وعبادان والكويت والبحرين) وكذلك انابيب البترول الممتدة الى طرابلس وحيفا ومصنعى تكرير البترول فى هاتين المدينتين» (٦٥) . ولهذا الغرض تضمن الامر توجيها بجمع اخصائيى البترول من كل البلدان الاوربية المحتلة من قبل الالمان وكذلك التجهيزات اللازمة لحفر الآبار وبتأسيس جهاز خاص من المهندسين والجيولوجيين والماليين لادارة جميع مؤسسات البترول فى العالم العربى .

وبعد يومين ــ فى السابع من شباط (فبراير) ١٩٤٢ ــ اعدت فى سكرتارية ريبنتروب مذكرة جاء فيها انه ستتشكل فى تبيليسى فور احتلالها «حكومات لسوريا والعراق وايران» تحت اشراف الالمان ، وعلى هذه الحكومات ان تساعد السلطات الالمانية فى غزو واحتلال بلدان الشرقين الادنى والاوسط واستثمار ثرواتها البترولية .

لقد كان احتلال منطقة ما وراء القفقاس السوفييتية ثم اقتحام البلدان العربية عبر ايران بغية احتلالها والاستيلاء على بترولها اكبر مهمة طرحها هتلر فى صيف ١٩٤٢ عندما بدأت مجموعة الجيوش الالمانية «أ» بقيادة الفليدمارشال ليست المعركة من اجل القفقاس . الا ان المقاومة الصامدة التى ابدتها القوات المسلحة السوفييتية فى شمال القفقاس وفيما وراء القفقاس استطاعت عند خريف ١٩٤٢ ان تعرقل زحف قوات

ليست ، ثم ان الكفاح البطولى لحماة ستالينغراد ارغم القيادة الهتلرية العليا على ان تنقل جيشا كاملا للدبابات من جبهة ما وراء القفقاس الى جبهة ستالينغراد .

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢ امكن كليا ايقاف هجوم جيوش المجموعة «أ» . فاشتاط هتلر غضبا ونحى ليست . ولانه كان يعلق اهمية خاصة على اتجاه القفقاس والشرق الاوسط فقد عين ... نفسه بدلا عن ليست . ولكن ذلك لم يغير شيئا من واقع الامور بالطبع . فلم تستطع القوات الهتلرية ان تقتحم ما وراء القفقاس ، وبالتالى لم تستطع ان تحتل العالم العربى . وفيما بعد تحطمت الآلة الحربية الالمانية فى معركتى ستالينغراد وقوس كورسك الهائلتين . وبذلك زال الخطر الذى كان يتهدد ليس فقط شعوب الاتحاد السوفييتى واوربا الشرقية ، بل وشعوب البلدان العربية .

لقد حاول الامبرياليون الالمان مرتين فى القرن العشرين ــ فى عهد غليوم الثانى وفى عهد هتلر ــ ان يحتلوا العالم العربى ويستولوا على البترول العربى ويستعبدوا العرب . وقد انتهت كلتا المحاولتين بالاخفاق . وكان انهيار المحاولة الثانية نتيجة مباشرة للضربة القاضية التى تلقتها الآلة الحربية الهتلرية واندحارها على الجبهة السوفييتية .

مراجع الفصل الثانى

١ ـ «مراسلات غليوم الثانى ونيقولاى الثـــانى ، ١٨٩٤ ـ ١٩١٤» ، موسكو ، ١٩٢٢ ، ص ٢٨ .

٢ ـ ارشيف السياسة الخارجية الروسية (ا س خ ر) ، موجودات «الارشيف السياسى» ، الملف رقم ٨٣٠ ، ص‌ص ٤٣ ـ ٥٣ ، من كوياندير الى وزارة الخارجية ، ٦ ، ٩ ، ١٣ شباط (فبراير) ١٨٩٢ ، رقم ١٥ ، ١٧ ، ٢٣ .

٣ ـ F. Fischer, Griff nach der Weltmacht, Düsseldorf, 1961, s.s. 133-136.

٤ ـ National Archives of India, Foreign Department (NAI, F.D.), Sec. E., Proceedings N. 489, 1907," Relations of Baron Oppenheim", pp. 498-495.

٥ ـ Fischer, Griff nach der Weltmacht, S. 133.

٦ ـ "Die Grosse Politik der Europäischen Kabinette, 1871-1914, (Gr. Pol.). Bd. XII (2), Doc. N. 3345.

٧ ـ «مراسلات غليوم الثانى ونيقولاى الثانى» ، ص ٣١ .

٨ ـ بونداريفسكى ، سكة حديد بغداد وتغلغل الامبريالية الالمانية الى الشرق الاوسط (١٨٨٨ ـ ١٩٠٣) ، طشقنـــد ، ١٩٥٥ ، ص ٣٩ ـ ٤١ .

٩ ـ ا س خ ر ، موجودات «الارشيف السياسى» ، الملف ٣١٩٥ ، ص ٨٧ ، من زينوفيف الى وزارة الخارجية ، ٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٠١ ،

رقم ٢٠٦ ، المصدر ذاته ، ص ٩١ ـ ٩٢ ، من زينوفيف الى وزارة الخارجية ، ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠١ ، رقم ٢٢٠ ،
Gr. Pol., Bd. XIV (2), Doc. N. 4014.

١٠ ـ بونداريفسكي ، الصراع من اجل طرابلس الغرب وبرقة على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٩٣ ـ ٩٥ .

١١ ـ A. Schoenenberg, Der Nahe Osten rückt näher, München, 1957, s. 54.

١٢ ـ "Documents on German Foreign Policy" (DGFP), Ser. D., v. V, Washington 1953, pp. 783, 785.

١٣ ـ "Horizont", Berlin, 1970, N. 52, s. 73.

١٤ ـ "Der Spiegel" Hamburg, 1966, N. 52, S. 73.

١٥ ـ Ibid.

١٦ ـ "Horizont", 1970, N. 3, s. 29.

١٧ ـ روميانتسيف ، الحرب السرية في الشرقين الادنى والاوسط ، موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ٦٠ .

١٨ ـ "Der Spiegel", 1966, N. 52, s. 83.

١٩ ـ DGFP, Ser. D., v. V, pp. 755, 756, 778, 779.

٢٠ ـ F. Grobba, Mäner und Machte im Orient, Göttingen, 1967, s. 158.

٢١ ـ J. Mader, Hitlers Spionagegenerale. sagen aus, Berlin, 1970, s. 311.

٢٢ ـ DGFP, v. V., pp. 810, 211.

٢٣ ـ روميانتسيف ، الحرب السرية في الشرقين الادنى والاوسط ، ص ٤ .

٢٤ ـ DGFP, v. VI, W. 1953, pp. 756-757.

٢٥ ـ H. Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg, Berlin 1965, s. 102.

٢٦ ـ Ibid., ss. 162-165.

٢٧ ـ هالدر ، «اليوميات الحربية» ، المجلد الاول ، موسكو ، ١٩٦٨ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٤ .

٢٨ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ .

٢٩ ـ المصدر ذاته ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

٣٠ ـ G. Kirk, The Middle East in the War, L. 1952, p. 64.

ميرسكى ، العراق فى العهد المظلم (١٩٠٣ ـ ١٩٤١) ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ١٤٩ .

٣١ ـ هالدر ، «اليوميات الحربية» ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

٣٢ ـ DGFP, v. XII, W. 1962, pp. 31-32.

٣٣ ـ H. Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg, ss. 197-199.

٣٤ ـ Ibid., ss. 203-204.

٣٥ ـ Ibid. ss. 190-194.

٣٦ ـ Ibid., s. 202.

٣٧ ـ DGFP, v. VII, pp. 167-169.

٣٨ ـ H. Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg, s. 199.

٣٩ ـ "Akten zur Deutschen Auswärtigen Politik", 1918-1945, ser. D. Bd. X, Baden-Baden, 1954, ss. 459-460; A. Schlechtmann, The Mufti and the Führer, New York 1965, pp. 97-99.

ميرسكى ، العراق فى العهد المظلم ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

٤٠ ـ رومیانتسيف ، الحرب السرية فى الشرقين الادنى والاوسط ، ص ٦٥ .

٤١ ـ "Akten..." Bd. XII, ss. 194-195.

٤٢ ـ H. Tillman, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg, s. 205.

٤٣ ـ Ibid., ss. 205-206.

٤٤ ـ "Horizont", Berlin, 1970, N. 3, s. 29.

٤٥ ـ روميانتسيف ، الحرب السرية فى الشرقين الادنى والاوسط ، ص ٦٨ .

٤٦ ـ I. and D. Kimche, The Secret roads, London, 1955, p. 54.

٤٧ ـ Oh. Sykes, Cross Roads to Israel, London, 1967, p. 217.

٤٨ ـ رومیانتسیف ، الحرب السرية فى الشرقين الادنى والاوسط ، ص ٧٠ .

٤٩ ـ المصدر ذاته ، ص ٦ ـ ٧ .

٥٠ ـ Foreign Relations of the United States, 1941, v. III, Washington, 1959, p. 491.

٥١ ـ ج . باتلر ، الستراتيجية الكبرى (ايلول ١٩٣٩ ـ حزيران ١٩٤١) ، موسكو ، ١٩٥٩ ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ؛ ميرسكى ، العراق فى العهد المظلم ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

٥٢ ـ ج . فولر ، الحرب العالمية الثانية ، موسكو ، ١٩٥٦ ، ص ١٤٨ .

٥٣ ـ Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg, ss. 215-216.

٥٤ ـ F. Papen, Der Wahrheit eine Gasse, Innsbruck, 1952, s. 282.

٥٥ ـ Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg, s. 228.

٥٦ ـ W. Bretholz, Der Aufstand der Araber, Berlin.

٥٧ ـ "Hitler's War Directives 1939-1945". Ed. by H. R. Trevor-Roper, London, 1964, pp. 122-125.

٥٨ ـ Tillmann, Deutschlands Araberpolitik im zweiten Weltkrieg, ss. 239-240.

٥٩ ـ Grobba, Männer und Mächte im Orient, s. 246.

٦٠ ـ غائب طعمة فرمان ، الحكم الاسود فى العراق ، الترجمة الروسية ، موسكو ، ١٩٥٨ ، ص ٣٢ .

٦١ ـ هالدر ، «اليوميات الحربية» ، المجلد ٢ ، ص ٥٥٣ .

٦٢ ـ "Hitler's War Directives", pp. 129-134.

٦٣ ـ Ibid.

٦٤ ـ "Kriegstagebuch Oberkommando der Wehrmacht", Bd. I, Wisbaden 1964, ss. 1022-1023, 1038-1040.

٦٥ ـ "Anatomie des Krieges", Berlin 1969, s. 377.

الفصل الثالث

الامبريالية الاميركية والعالم العربى

بدء التوسع الاميركى فى العالم العربى

يحاول رجالات الدولة والدبلوماسيون والعلماء والكتاب الاجتماعيون الاميركان فى الوقت الحاضر ان يثبتوا بكل الوسائل ان الوجود الاميركى لم يظهر فى العالم العربى الا بعد الحرب العالمية الثانية ، وعند ذاك ظهر الاسطول السادس الاميركى فى البحر الابيض المتوسط بغية دعم «السلام والنظام» فى شمال افريقيا وفى الشرق الاوسط كما يزعمون . ولكن الوقائع التاريخية والوثائق الارشيفية تدحض هذه المزاعم .

لقد ظهرت اولى السفن التجارية والحربية الاميركية والتجار والدبلوماسيون الاميركان فى الشرق الاوسط وشمال افريقيا منذ اواخر القرن الثامن عشر ، اى بعد بضع سنوات لا اكثر بعد تأسيس الولايات المتحدة . وكان مبعث الاهتمام بهذه المنطقة بالدرجة الاولى هو تجارة الافيون ذات المردود الهائل . ومن المعروف ان المستعمرين البريطانيين بدأوا منذ اواخر القرن الثامن عشر بنقل كميات هائلة من الافيون الى الصين فابتزوا الارباح بالملايين وسمموا عشرات الملايين من الصينيين ، ومن الامور الاقل ذيوعا ان ارباب العمل الاميركان ساهموا فى هذا العمل الشائن مساهمة نشيطة للغاية ، مع فارق واحد هو ان شركة الهند الشرقية كانت تزرع

الافيون فى ممتلكاتها الهندية باشد انواع الاحتكار صرامة ، بينما كان الاميركان يستوردون الافيون من تركيا . وفى تلك الازمان السحيقة ، حيث لم تكن قناة السويس قد ظهرت للوجود ، كان التجار الاميركان يشحنون الافيون بالسفن الشراعية السريعة فى ازمير والموانئ التركية الاخرى . وكانت صناديق الافيون الواسعة تقوم برحلة حول العالم تقريبا ، فى البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي وحول رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندى والبحر الصينى الجنوبى الى كانتون . وكان الطريق بعيدا ، ولكن الارباح طائلة . فتجار «السموم» الاميركان كانوا يتسلمون فى كانتون ٤ـ٥ دولارات لقاء كل دولار ينفقونه لشراء الافيون فى ازمير . وعند مستهل القرن التاسع عشر كان التجار الاميركان ينقلون الى كانتون ٤ـ٥ اطنان من الافيون سنويا .

وقد ولدت الارباح الفاحشة التى حصل عليها تجار الافيون الاميركان جيرار وآستور وبيركينس وغيرهم حسدا كبيرا لدى منافسيهم الاوربيين . وفى اواخر القرن الثامن عشر كان نجاح تجارة الافيون يعتمد لدرجة غير ضئيلة على موقف حكام مراكش وكذلك حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب الذين اعترفوا رسميا بسيادة الامبراطورية العثمانية وكانت جميع السفن التى تمخر عباب البحر الابيض المتوسط تزور موانئ هذه البلدان المنتشرة فى القسم الجنوبى الغربى للبحر الابيض المتوسط وفى منطقة مضيق جبل طارق . وكان الحكام المحليون يجبون ضرائب مرتفعة من السفن التجارية . وترك ذلك اثرا سلبيا على ارباح التجار الاميركان ، وخصوصا اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان هذه الموانىء كانت تستقبل سنويا فى اواخر القرن الثامن عشر ما بين ٨٠ و١٠٠ سفينة تحمل العلم الاميركى .

وكان خطر اعظم بكثير من الضرائب العالية يتهدد تجار الافيون الاميركان من جانب الشبكات الواسعة للقراصنة المرتبطين اوثق ارتباط بالحكام الاقطاعيين المحليين العديدين . ولم تكن القرصنة فى شمال افريقيا ، كما فى حوض الخليج العربى ، ظاهرة قومية ، كما يزعم المؤرخون البرجوازيون ، بل هى لدرجة كبيرة ظاهرة اجتماعية . فقد كانت بمثابة نوع من احتجاج اوساط معينة من السكان المحليين على فقدانهم المداخيل الهامة لحياتهم من التجارة والملاحة البحرية بسبب مزاحمة الدول الغربية ونتيجة لسياستها الاستعمارية . وكانت بريطانيا وفرنسا تستخدمان الاسطول الحربى لحماية السفن التجارية من هجمات القراصنة . وبما ان التجار الاميركان ، وخصوصا تجار الافيون ، كانوا من ألد منافسى الانجليز فان الحكومة البريطانية لم تكن تميل ابدا الى حمايتهم من قراصنة شمال افريقيا . والاكثر من ذلك ان عملاء بريطانيا فى شمال افريقيا غالبا ما ساعدوا القراصنة فى هجماتهم على السفن التجارية الاميركية بغية نسف مواقع المنافسين . ولذلك وقعت الحكومة الاميركية فى ١٧٨٧ــ١٧٩٧ اتفاقيات خاصة مع حكام مراكش والجزائر وطرابلس الغرب وتونس بشأن تهيئة الظروف الملائمة للتجارة الاميركية والسفن التجارية الاميركية فى مياه شمال افريقيا لقاء بدلات نقدية معينة .

الا ان حكام الولايات المتحدة الاميركية انذاك كانوا يعتقدون بعدم كفاية ذلك . ففى عام ١٨٠٠ شكلوا ، بحجة مكافحة القراصنة ، العمارة الاميركية فى البحر الابيض المتوسط . وجرى تعزيز هذه العمارة من عام لآخر بنتيجة تزويدها بسفن احدث واكبر على الدوام . ولم تكتف العمارة بحماية السفن التجارية الاميركية . ففى ١٨٠١ــ١٨٠٥ استخدم الاميرالات والدبلوماسيون

الاميركان عمارة البحر الابيض المتوسط فشنوا حربا فعلية ضد طرابلس الغرب . وحاصر الاسطول الاميركى مدينة طرابلس . وفى الوقت ذاته مارس القنصل الاميركى فى تونس ايتون والقنصل الاميركى فى طرابلس كاتكارت بعلم من الرئيس الاميركى جيفرسون ووزير الحربية بكرينغ التحضير لانقلاب حكومى وتدخل مسلح فى طرابلس الغرب . ولهذا الغرض اقاما الاتصال مع شقيق حاكم طرابلس الغرب حميد كرمانلى المنفى الى مصر . وتم توقيع اتفاقية بينه وبين ايتون نصت على ان تلتزم الولايات المتحدة الاميركية بتقديم المساعدة العسكرية والمالية لحميد بغية جعله حاكما لطرابلس الغرب . ولقاء ذلك كان عليه ان يوفر للاميركان امتيازات خاصة فى البلاد ويزيد الضرائب على التجار الاوربيين المنافسين للاميركان ويعين ايتون قائدا عاما لقواته المسلحة . وكتب ايتون فى رسالة الى وزير البحرية الاميركى بتاريخ ١٣ شباط (فبراير) ١٨٠٥ يقول انه يتوقع الاستيلاء على المناطق الشرقية من طرابلس الغرب ، ثم يشرع بالاشتراك مع «جيش» حميد كرمانلى وبالتعاون الوثيق مع العمارة الاميركية فى البحر الابيض المتوسط باقتحام مدينة طرابلس ، حيث يتعين انزال مشاة البحرية . وبدأ تطبيق الخطة . فاستولت عصابات ايتون-كرمانلى التى هجمت على اقليم طرابلس الغرب من الشرق ومشاة الانزال البحرى المدعوم بنيران مدفعية سفن العمارة الاميركية فى البحر الابيض المتوسط على مدينة درنة فى منطقة طرابلس الغرب ورفع العلم الاميركى فورا فوق قلعتها . ولم تعد هناك حاجة الى اقتحام مدينة طرابلس : فقد ارتعب حاكم طرابلس الغرب يوسف كرمانلى ووقع مع لير القنصل العام الاميركى فى شمال افريقيا معاهدة ملائمة كليا للجانب الاميركى . وهكذا انتهت اول حرب استعمارية اميركية فى العالم

العربى . وكافات سلطات ولاية ماساشوسيتس المغامر ايتون الذى فتح موانئ طرابلس الغرب امام التجارة الاميركية بضيعة شاسعة تبلغ مساحتها ١٠ الاف اكر . وتم «تخليد» مشاركة القوات المسلحة الاميركية فى حملة الغزو هذه فى السطور الاولى للنشيد الرسمى لمشاة البحرية الاميركية : «من هضاب مونتيسوما الى سواحل طرابلس ، فى الجو والبر والبحر ، خضنا معارك الوطن» (١).

وفى نفس وقت الحرب ضد طرابلس الغرب قرر المعتدون الاميركان تعزيز مواقعهم فى مراكش ، الامر الذى كان يتميز بأهمية كبيرة خاصة لان مراكش تمتلك موانئ ليس فى البحر الابيض المتوسط وحده ، بل وفى المحيط الاطلسى . ففى خريف ١٨٠٤ حاصرت عمارة البحر الابيض المتوسط الامريكية التى تجاوز عدد سفنها انذاك ٢٠ سفينة ، بما فيها عدد من السفن الكبرى ، ميناء طنجة الذى كان اهم ميناء فى مراكش انذاك . ووجهت الى حاكم البلاد رسالة موجزة تتساءل «عما اذا كان يريد السلام ام الحرب ؟» . واضطر المراكشيون الى توقيع معاهدة جديدة ملائمة للولايات المتحدة الاميركية كل الملاءمة .

وحان دور تونس بعد طرابلس الغرب ومراكش . ففى آب (اغسطس) ١٨٠٥ انهالت عمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية بقصف شديد على مدينة تونس . وكتب مؤرخ الاسطول الاميركى د . سبيرو يقول : «امليت شروط الصلح على باى تونس تحت فوهات مدافع السفن . واثار ذلك الامر دهشة شعوب اوربا ، لانه لم يسبقه ما يماثله ابدا» .

وفى عام ١٨١٥ ظهرت عمارة اميركية ضخمة فى المياه الساحلية الجزائرية . وبما انه كانت للجزائر انذاك علاقات طيبة

مع بريطانيا ، رفع الاميركان العلم البريطانى على سفنهم بغية تضليل القباطنة الجزائريين . واندحر الاسطول الجزائرى . وتعرضت المدن الجزائرية الساحلية الى نيران لا رحمة فيها . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٦ فرض الاميركان على حاكم الجزائر معاهدة جائرة غير متكافئة اثارت استياء شديدا فى الاوساط الحاكمة فى البلاد . وعندما كانت المفاوضات الطويلة الامد تجرى مع حاكم الجزائر عمر شن الاميرالات الاميركان هجوما جديدا على سواحل تونس وطرابلس الغرب . وبالنتيجة استطاعت الحكومة الاميركية ان تبتز تعويضات كبيرة من هذين البلدين .

وادى ذلك كله الى تشكيل عمارة اميركية دائمة فى البحر الابيض المتوسط فى عام ١٨٢٠ . واستطاعت الحكومة الاميركية ان تحصل على موافقة اسبانيا على استخدام ميناء ماون (جزر البليار) كقاعدة لهذه العمارة . وهكذا ظهر فى مياه البحر الابيض المتوسط سلف الاسطول السادس الذى استخدم انذاك الموانئ الاسبانية كقواعد له . وفى عام ١٨٢٠ ، على اثر تأسيس عمارة البحر المتوسط الاميركية الدائمة وجه قائدها مخبرين سريين الى عاصمة الامبراطورية العثمانية والى ازمير للحصول على معلومات تفصيلية عن الحالة الاقتصادية والسياسية فى تركيا وعن امكانيات توسيع التجارة الاميركية فى البحر الاسود وفى سوريا ولبنان . وعلى هذا النحو بدأت الولايات المتحدة الاميركية بتوسيع ميدان مصالحها فى العالم العربى . وفى عام ١٨٢٣ وصل اينغليش المخبر السرى لدى وزير الخارجية الاميركى ادامز الى مصر واعتنق الاسلام وانخرط فى جيش والى مصر محمد على وحاول بكل الوسائل ان يوسع الاتصالات مع السلطات المحلية . وبنتيجة هذا النشاط المتعدد الجوانب وجه الرئيس الاميركى جاكسون فى

عام ١٨٢٩ بعثة خاصة الى اسطنبول بغية توقيـــع المعاهدة الاميركية التركية الاولى . ومما له دلالته ان رئيس البعثة هـــو قائد عمارة المتوسط الاميركية بيدل وان اعضاءها هم من كبار تجار الافيون . وفى ٧ ايار (مايو) ١٨٣٠ وقعت اول معاهدة اميركية تركية هيأت للتجار والدبلوماسيين الاميركان امكانيـــات واسعة جدا للتغلغل فى المناطق العربية التابعة للامبراطوريـــة العثمانية (٢) .

واسرع للاستفادة من هذه المعاهدة المبعوثون الاميركان الذين حملوا منذ اوائل القرن التاسع عشر النفوذ الاميركى بنشاط الى الشرق الاوسط . ففى ١٨٢٣ تأسست فى لبنان اول ارساليـــة بروتستانتية اميركية . وابدت هذه الارسالية اهتمامـــا كبيرا بالاتصالات مع السكان المحليين وبطبع الكتاب المقدس باللغـــة العربية وفتح شبكة مـــن المدارس . وعلى اساس هذه المدارس بالذات تأسست فيما بعد الكلية البروتستانتية السوريـــة التى استبدل اسمها لاحقا بالجامعة الاميركية فى بيروت والتى تضطلع طوال قرن من السنين بدور معقل التوسع الايديولوجى الاميركـى فى العالم العربى .

وفى اواسط القرن التاسع عشر حيث استخدمـــت الاوساط الحاكمة الاميركية الهيئات الدبلوماسية والتجارة والدين على نطاق واسع لتقوية نفوذها فى العالم العربى لم تنس كذلك عمارة البحر الابيض المتوسط . فقد نشر كارل ماركس ضمن مقالته «الولايات المتحدة فى اوربا» فى عدد ١٩ آب (اغسطس) ١٨٥٣ مـــن «نيويورك ديلى تربيون» باقة معلومات من الصحف الاوربية ـ الالمانية والنمساوية والايطالية تدل بصورة لا تدحض على ان الولايات المتحدة حاولت فى عام ١٨٤٠ ان ترغم ملك نابولى على

التنازل عن سيراكوزه (جزيرة صقلية) لاستخدامها قاعدة لعمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية . وفى مستهل خمسينات القرن التاسع عشر حاول الاميركان الحصول على ميناء انيوس من تركيا لقاء مساعدة عسكرية ومالية ، مما كان سيهيئ « للجمهورية الاميركية قاعدة تجارية وعسكرية مريحة ومأمونة فى البحر الابيض المتوسط » على حد قول كارل ماركس (٣) . وتاكيدا للاستنتاجات بشأن تنشيط السياسة الاميركية فى الشرق الاوسط يستشهد كارل ماركس بمقالة لصحيفة «البرلمانتو» بينت بكل اقناع ان الولايات المتحدة الاميركية قد ابدت انذاك اهتماما كبيرا للغاية بانحلال الامبراطورية العثمانية ووجهت اهتماما كبيرا بصورة خاصة الى مصر وليبيا وبرزخ السويس الذى شقت فيه قناة السويس فيما بعد .

وفى الوقت ذاته بدأ التوسعيون الاميركان يمدون ايديهم الى ثروات العالم العربى من جهة المحيط الهندى ايضا . ففى اواخر عشرينات القرن التاسع عشر كان رجل الاعمال الاميركى ادموند روبرتس الذى اثرى من التجارة الرابحة فى البحر الابيض المتوسط قد زار سلطنة مسقط التى كانت ممتلكاتها انذاك تشمل زنجبار والساحل الافريقى الشرقى . وفى مباحثات شبه رسمية (فقد عمل روبرتس طوال عدة سنوات قبل ذلك موظفا فى الدوائر القنصلية الاميركية) نوقشت مسألة تصدير احدث انواع الاسلحة الاميركية الى اراضى السلطنة لقاء تقديم امتيازات تجارية كبيرة الى الولايات المتحدة الاميركية . وحظيت هذه الفكرة بتأييد الحكومة الاميركية ، فعين روبرتس فى ١٨٣٢ ممثلا دبلوماسيا خاصا للولايات المتحدة الاميركية فى حوض المحيط الهندى . ووصل روبرتس على متن السفينة الحربية الكبرى « بيكوك » صيف

١٨٣٣ الى حوض البحر الاحمر . وقام بالزيارة الاولى الى حاكم ميناء المخا فى اليمن ، واقترح عليه تسلم السلاح الاميركى ، مما كان ينبغى ان يساعد على سلخ هذا الميناء الهام اقتصاديا وستراتيجيا من اليمن . وبعد ذلك دخلت العمارة الاميركية ميناء مسقط . وفى ٢١ ايلول (سبتمبر) ١٨٣٣ وقعت المعاهدة الاميركية المسقطية التى هيات للولايات المتحدة الاميركية امتيازات تجارية كبيرة ومنحت المواطنين الاميركان حق الحصانة . وتأسست فى مسقط قنصلية اميركية . ومما له دلالته ان المستعمرين البريطانيين استشهدوا بمعاهدة روبرتس لعام ١٨٣٣ عندما فرضوا على مسقط معاهدتهم الجائرة فى عام ١٨٣٩ . ولقد استخدم التجار الاميركان معاهدة روبرتس على نطاق واسع فبدأوا يتغلغلون بنشاط كبير الى الساحل الافريقى الشرقى وحوض البحر الاحمر والخليج العربى . ويتسم بأهمية كبيرة واقع تأسيس عمارة الهند الشرقية الاميركية فى عام ١٨٣٥ اضافة الى عمارة المتوسط . وكانت مهمة العمارة الجديدة تتلخص فى نشر النفوذ الاميركى الى اقصى حد فى المحيط الهندى والبحار المتصلة به . وهكذا ظهر الى جانب سلف الاسطول السادس سلف للاسطول السابع .

وبعد تقسيم سلطنة مسقط فى عام ١٨٥٦ الى دولتين ــ سلطنة زنجبار وسلطنة مسقط اهتمت الاوساط الحاكمة الاميركية اهتماما كبيرا بان يقر كلا حاكمى البلدين المعاهدة التى وقعها روبرتس . ولهذا الغرض توجهت فى عام ١٨٧٨ بعثة خاصة برئاسة العميد البحرى شوفيلدت الذى استطاع ان يحصل من كلا السلطانين على رسالتين خاصتين تؤكدان ان معاهدة روبرتس ظلت سارية المفعول . الا ان ذلك لم يكن كافيا للعميد شوفيلدت

الذى كانت التوجيهات المقدمة اليه تنص على «تعزيز وتوسيع النفوذ الاميركى فى افريقيا الشرقية والبلدان المجاورة» . وبعد مسقط زار شوفيلدت مع عمارته الخليج العربى ، ثم تقدمت احدى السفن ، وشوفيلدت على متنها ، فى شط العرب صعودا الى الفرات بغية الحصول على اكبر قدر ممكن من المعلومات عن الوضع فى جنوب العراق (٤) .

وفى الوقت ذاته حاول التوسعيون الاميركان تعزيز نفوذهم فى مصر والسودان الى اقصى حد . ففى اواخر الستينات واوائل السبعينات من القرن التاسع عشر ، اى فى فترة افتتاح قناة السويس ، اقام فى القاهرة طوال الوقت اكثر من ٥٠ عسكريا اميركيا ، بمن فيهم ٥ جنرالات و٢٠ عقيدا . وفى عام ١٨٧٠ اصبح الجنرال الاميركى ستون رئيسا لاركان القوات المصرية ، كما اصبح العقيد الاميركى شايلونغ نائبا لرئيس اركان القوات المصرية فى السودان . ولقد وجهت حكومتا بريطانيا وفرنسا فى عام ١٨٧٠ مذكرتين خاصتين الى القاهرة احتجتا فيهما على تزايد نشاط العسكريين الاميركان . ولما كان الخديوى يامل بالاستفادة من التناقضات بين الدول الغربية فقد شجعت حكومته نشاط الاميركان . وترأس الضباط الاميركان الحملات المصرية التى توجهت الى مديريتى درفور وكردفان السودانيتين والى ساحل البحر الاحمر . واستطاع العقيد الاميركى شايلونغ المار ذكره ان يتسلل فى ١٨٧٤ الى بوغنده ويحصل على رسالة من الملك متيزا اعترف فيها هذا الاخير بانه تابع لمصر . وفى ١٨٧٦ ساهم الضباط الاميركان مساهمة نشيطة فى الحرب المصرية الاثيوبية ، حيث حاربوا الى جانب الخديوى ، ولكن ذلك لم ينقذ جيشه من الهزيمة . ومما له دلالته ان جميع العسكريين الاميركان الذين

خدموا لدى حكومة الخديوى كانوا يتمتعون بالحصانة التامة وكانوا يتلقون من الممثل الدبلوماسي الاميركى فى القاهرة توجيهات بشأن المسائل الهامة . ومن المعروف ان الاسطول البريطانى انهال على الاسكندرية بقصف وحشي للغاية فى تموز (يوليو) ١٨٨٢ . الا ان من الامور الاقل ذيوعا ان اربعا من اكبر سفن عمارة المتوسط الاميركية بقيادة آمر البحر نيكولسون قد ساهمت مساهمة نشيطة فى هذه الجريمة الشنيعة . وبعد خراب الاسكندرية وهلاك الالاف من المصريين نزل مع المحتلين البريطانيين الى الساحل فصيل كبير من مشاة البحرية الاميركان . واقتحم الاسكندرية على رأس هذا الفصيل العقيد شايلونغ ، ولكنه هذه المرة ليس بمنصب نائب رئيس اركان القوات المصرية فى السودان ، بل بمنصب مندوب قنصلى للولايات المتحدة الاميركية فى الاسكندرية ! وهكذا استخدمت الاوساط الحاكمة الاميركية على نطاق واسع القناصل والمغامرين العسكريين وتجار الافيون وقادة العمارات البحرية والدبلوماسيين والمرسلين الدينيين ليفرضوا النفوذ الاميركى فى القرن التاسع عشر بالنار والحديد على مساحات شاسعة فى شمال افريقيا وشرقيها وفى الشرق الاوسط من المحيط الاطلسى الى المحيط الهندى ومن البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربى .

وفى اواخر القرن التاسع عشر ، ومع بدء الصراع من اجل اعادة اقتسام العالم المقسم سابقا ، حيث طرحت من جديد مسألة تقسيم الامبراطورية العثمانية والاستيلاء على اثمن الاراضى العربية الداخلة ضمنها ، انتاب واشنطن قلق كبير . ويعزى ذلك الى ان المواقع الاقتصادية الاميركية فى الامبراطورية العثمانية كانت ضعيفة للغاية اذا قورنت بمواقع منافسى الولايات المتحدة الاميركية الاوربيين . ولم تكن عمارة المتوسط الاميركية على قدر

كاف من القوة بحيث تقاوم القوات البحرية والبرية الجبارة لدى الدول التى لها مصلحة فى اقتسام تركيا ، وفى مقدمة هذه الدول بريطانيا . زد على ذلك ان الولايات المتحدة الاميركية كانت فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين تستعد بنشاط كبير للحرب ضد اسبانيا المستضعفة وللاستيلاء على مستعمراتها فى المحيط الهادى والبحر الكاريبى . وكان على الولايات المتحدة ان تلجأ فى تلك الظروف الى طرق خاصة للحفاظ فى الوقت ذاته على مواقعها فى الشرق الاوسط ايضا . وهنا بالذات امكن الاستفادة من المرسلين والمبشرين الاميركان الذين اجتاحوا هذه المنطقة بأسرها تحت اشراف «مجلس المبشرين الاميركان» . وتحت شعار «تنصير العالم فى غضون حياة جيلنا» طبق المبشرون الاميركان الاجراءات التى سهلت تغلغل الرأسمال الاميركى الى الامبراطورية العثمانية . ومارست نشاطا كبيرا كذلك «جمعية الكتاب المقدس الاميركية» التى وزعت فى الشرقين الادنى والاوسط ما بين ٤ و٥ ملايين نسخة من الكتاب المقدس بلغات مختلفة . ونظرا لمزاحمة المبشرين الارثوذكس ، وخصوصا الكاثوليكيين ، المعتمدين على دعم جبار من الحكومات الاوربية ابدى المبشرون الاميركان اهتماما كبيرا ليس فقط بالعمل الدينى ، بل والتنويرى الصرف ، وبالعمل الصحى والطبى فيما بعد ، معتقدين ، ولم يكونوا على خطأ فى هذا الاعتقاد ، بان ذلك سيوسع ميدان نفوذهم . اذن ، فقد كان هناك منذ ذلك الحين اسلاف «لفيلق السلام» .

واهتم المبشرون الاميركان اهتماما خاصا بالعمل فى المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية . ولهذا الغرض تأسست الارسالية العربية فى عام ١٨٩٠ . وكان مؤسسها المستعرب الاميركى الكبير صموئيل زويمر مؤلف كتاب «جزيرة العرب مهد

الاسلام». وفى ١٨٩١ افتتح زويمر ومعاونوه ارسالية فى البصرة. وبعد عام من الاعمال تقرر توجيه الاهتمام الرئيسى ليس الى الدعاية الدينية ، بل الى النشاط الطبى التطبيقى . وكتب زويمر يقول : يشير جميع المرسلين فى الجزيرة العربية الى ان الطبيب المؤهل والجراح الممتاز يمتلكان ترخيصا يفتح امامهما الابواب المغلقة ويغزوان اقسى القلوب (٥) . وسرعان ما شمل نشاط الارسالية العربية التى حظيت بدعم مادى كبير من «مجلس المبشرين الاميركان» جزر البحرين ومسقط . وبالرغم من مقاومة السلطات الاستعمارية البريطانية افتتح المبشرون الاميركان عام ١٩٠٣ مستشفى فى جزر البحرين ، كما افتتحوا عام ١٩١١ ارسالية ومستشفى فى الكويت . ويتحدث شارلز هاملتون بصراحة عن اهمية نشاط الارسالية العربية : «يعترف الكثيرون بانه لولا العمل الرائع الذى مارسته الارسالية العربية لما استطاع رجال الاعمال الاميركان ان يساهموا فى استثمار حقول البترول الهائلة فى الشرق الاوسط» (٦) .

واستخدم الامبرياليون الاميركان لاغراضهم الخاصة ليس فقط نشاط المبشرين ، بل وحتى الصعوبات التى واجهها هؤلاء فى الشرق الاوسط . ففى ١٨٩٤ــ١٨٩٥ تضررت اموال المبشرين الاميركان اثناء مذابح الارمن فى تركيا . وانتهزت الحكومة الاميركية هذه الفرصة فوجهت الى اسطنبول فى عام ١٩٠٠ بعثة خاصة برئاسة الاميرال شيستر على متن الدارعة «كينتوكى» . وكلف هذا الاخير بالحصول على تعويضات وامتيازات خاصة للمبشرين الاميركان ، وعدة تنازلات ذات طابع سياسى واقتصادى . وتكللت بعثة شيستر بنجاح جزئى . الا ان الاميرال النبيه انتهز الجو المناسب واستفاد من منصبه الرسمى لكى يدرس مسألة امكانية الحصول

على امتياز لمد سكك الحديد واستخراج المعادن فى قسم كبير من تركيا ، بما فيه الاراضى العربية الداخلة ضمنها . وفى عام ١٩٠٨ ، بعد ثورة تركيا الفتاة التى اضعفت مؤقتا نفوذ الامبريالية الالمانية فى تركيا ، عاد شيستر الى القسطنطينية ولكنه هذه المرة بمثابة ممثل عن غرفة تجارة نيويورك . وسرعان ما تأسست برئاسته «الشركة العثمانية الاميركية للتنمية الصناعية» التى طلبت من الحكومة التركية امتيازا لمد السكك الحديدية واستخراج الثروات المعدنية . وابدى اصحاب الامتياز الذين كانت تسندهم شركة آل روكفلر الاحتكارية الضخمة «ستاندارد اويل» اهتماما خاصا بالعراق وبترول الموصل . وواجهت خطط اصحاب الامتياز الاميركان مقاومة عنيدة من قبل الهيئات الدبلوماسية البريطانية والالمانية . الا ان الاحتكاريين الاميركان لم يستسلموا . ففى عام ١٩١٣ عرضوا على الحكومة التركية قرضا ضخما لقاء امتياز البترول نفسه فى منطقة الموصل . وحمل هذا العرض الى القسطنطينية اثنان من كبار اصحاب البنوك الاميركان وهما كون وليب اللذان تعتبر شركتهما المصرفية حاليا من المرتكزات الرئيسية للصهيونية العالمية . الا ان الحرب العالمية الاولى ودخول تركيا الحرب الى جانب الحلف الالماني-النمساوى قد شوشا خطط شيستر وحماته الاثرياء .

النشاط المشترك للامبرياليين الاميركان والصهاينة فى العالم العربى

لم تدخل الولايات المتحدة الاميركية الحرب العالمية الاولى الا فى نيسان (ابريل) ١٩١٧ . وخلال السنوات الاولى للحرب احتفظت الولايات المتحدة الاميركية بحيادها ، ولكنها دعمت دول

الوفاق بارسال الاسلحة وتقديم القروض . وبقدر تدهور امور دول الوفاق فى الحرب بذلت الاوساط الحاكمة البريطانية قصارى جهدها ليس للتعجيل بدخول الولايات المتحدة الحرب رسميـــا فقط ، بل وبارسال قوات اميركية الى اوربا . ولقد اشرنا الى ان من الاسباب الجوهرية التى حدت بحكومة لويد جورج الى نشر بيان بلفور الرغبة فى استخدام الاوساط الصهيونية الاميركية المتنفذة للضغط على الرئيس الاميركى ولسن . واعترف لويد جورج بصراحة قائلا : «كنا نعتقد ان نشر البيان البريطانى عن فلسطين سيؤثر تأثيرا كبيرا على اليهود فى جميع البلدان وسيؤمن لدول الوفـــاق مساعدة اصحاب البنوك اليهود . وكانت هذه المساعدة هامة للغاية فى الولايات المتحدة الاميركية ، وذلك لان الحلفاء استنزفوا او يكاد احتياطيهم من الذهب والعملة على دفع اثمان المشتريات فى اميركا» (٧) . وقد مارس هذا العمل بنشاط كبير رئيس المنظمة الصهيونية العالمية وايزمان الذى اقام اتصالا وثيقا مع زعيــــم الصهاينة الاميركان عضو المحكمة العليا الاميركية براندايس . وكان هذا الاخير قد اعلن فى عام ١٨٩٧ لدى الاطلاع على قرارات المؤتمر الصهيونى العالمى الاول قائلا : «هذه هى القضيـــــة التى يمكننى ان اكرس لها حياتى» . وفى ١٩١٤ اصبـــــح رئيســـا «للمؤتمر اليهودى الاميركى» الذى ازداد تعداد اعضائــــــه فى السنوات الخمس التالية من ١٢ الفا الى ١٧٦ الف عضو ، كمـــا ازدادت ميزانيته من ١٥ الفا الى ٣ ملايين دولار . وكان براندايس مستشارا شخصيا وصديقا حميما للرئيس الاميركى ولسن ، وقد استفاد من ذلك لدرجة كبيرة فى الدعاية للافكار الصهيونية بكـــل الوسائل (٨) . ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية قد التزمت بالحياد حتى نيسان (ابريل) ١٩١٧ ، واستمرت اعمال السفارة

الاميركية فى القسطنطينية والقنصلية الاميركية فى القدس فقد اخذت الحكومة الاميركية على عاتقها ، تحت ضغط الصهاينة ، التزاما بتقديم مختلف انواع المساعدة والدعم للمستعمرين اليهود فى فلسطين . وكانت الاغذية تنقل اليهم فى سنوات الحرب على سفن الاسطول البحرى الحربى الاميركى (٩) . وقد هيأ ذلك ، بالطبع ، امكانيات اضافية للتدخل الاميركى فى شؤون العالم العربى .

وفى نيسان ١٩١٧ ، على اثر دخول الولايات المتحدة الاميركية الحرب ، وصل الى واشنطن وزير خارجية بريطانيا بلفور على رأس وفد عسكرى-سياسى كبير تجاوز عدد اعضائه ٣٠ شخصا . وكان على الوفد ان يجرى مفاوضات معقدة تشمل جملة من القضايا الحساسة جدا والمرتبطة بالمعاهدات السرية حول اقتسام العالم واعادة اقتسامه . ولما كانت الدبلوماسية الاميركية غير مطلعة على هذه المعاهدات قبل دخول الولايات المتحدة الاميركية الحرب ، ولما كان ولسن قد اشتهر بخطبه الديماغوغية المطالبة بالغاء المعاهدات السرية وبمنح الامم المضطهدة «حق تقرير المصير» (اى تحريرها من سيطرة منافسى الولايات المتحدة الاميركية) فقد اضحت مهمة بلفور عسيرة .

ولذلك تقبل بكل ارتياح اقتراح ولسن باجراء لقاء مع براندايس المطلع جيدا على الصعوبات التى تواجهها الدبلوماسية البريطانية . وقبيل اللقاء مع بلفور تلقى براندايس رسالة من وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية اوضح فيها بمرارة لزميله الاميركى «ان روسيا واميركا اعلنتا فى الوقت الحاضر مبادئ مناوئة للالحاق» وان مصالح الصهاينة تتطلب مكافحة هذه المبادئ ، وذلك لانه اذا لم تنتصر سياسة الالحاق البريطانية فى العالم العربى فان الصهاينة لن يحصلوا على فلسطين (١٠) . وبالتالى كان على

براندايس ان يستخدم كامل تأثيره على ولسن لاقناعه بالكف عن معارضة الخطط الاستعمارية البريطانية !

وقد اخذ براندايس بنصائح وايزمان اثناء المباحثات مع بلفور . ويؤكد داغدايل كاتب سيرة حياة بلفور ، بالاستناد الى وثائق ارشيف بلفور الشخصى ، ان هذه المباحثات «كانت من اهم المباحثات التى اجراها وزير الخارجية البريطانى فى الولايات المتحدة الاميركية» . فخلال هذه المباحثات بالذات اتضح لبلفور ان تأييد بريطانيا لمطامع الصهاينة بفلسطين سيزيد المساعدة التى تقدمها الاوساط المتنفذة فى الولايات المتحدة الاميركية للحلفاء ، وسيضعف فى الوقت ذاته مقاومة الجشع الاستعمارى لدى الاوساط الحاكمة البريطانية (١١) . وهكذا ارسى اساس بيان بلفور بنتيجة المباحثات التى استغرقت ساعات عديدة بين بلفور وبراندايس . وطوال صيف ١٩١٧ كانت مسودة بيان بلفور التى اعدت ، كما اتضح فيما بعد ، ليس فى وزارة الخارجية البريطانية ، بل من قبل اللجنة السياسية التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية والتى ترأسها سوكولوف ، قد عبرت المحيط الاطلسى عدة مرات بغية تذييلها بالموافقة النهائية من قبل براندايس وشركائه فى الرأى .

وتؤكد وثائق وزارة الخارجية الاميركية انه كانت هناك فى الولايات المتحدة اوساط متنفذة سعت الى استخدام الاتصالات التى قامت بين صهاينة الولايات المتحدة وفلسطين فى سنوات الحرب العالمية الاولى بغية تعزيز المواقع الاميركية فى الشرق الاوسط ، وليس من اجل دعم خطط لندن الاستعمارية . وفى صيف ١٩١٧ قررت وزارة الخارجية الاميركية التى استطاعت ان تحصل على موافقة ولسن على ابقاء العلاقات الدبلوماسية مع تركيا حتى بعد

اعلان اميركا الحرب ضد المانيا ان تدفع زعماء تركيا الفتاة الى اجراء مفاوضات منفصلة مع دول الوفاق . ولهذا الغرض ارسل الى الشرق الاوسط فى حزيران (يونيو) ١٩١٧ مورغنتاو السفير الاميركى السابق فى تركيا والموظف الكبير فى وزارة الخارجية الاميركية . وبغية مراعاة السرية والكتمان تقرر ارسال مورغنتاو ليس الى القسطنطينية ، بل الى حيفا بحجة دراسة اوضاع يهود فلسطين . ولغرض المزيد من التستر اصطحب مورغنتاو الشخصية الصهيونية الاميركية البارزة فرانفورتر . وقد اصاب ذعر شديد الحكومة البريطانية التى كانت تجرى ، دون علم الولايات المتحدة الاميركية ، مفاوضات منفصلة مع زعماء تركيا الفتاة فى سويسرا . وكانت لندن بحاجة الى صلح مع تركيا يوقع حسب الشروط الموضوعة فى وايت هول وليس فى البيت الابيض . ولذلك تمكن بلفور من ضم وايزمان الى مجموعة مورغنتاو . علما بان وزير الخارجية البريطانى كلف زعيم صهاينته» بان «يتحدث مع مورغنتاو طويلا الى ان يقتنع هذا بعدم جدوى مهمته» . واتضح ان وايزمان خطيب ماهر . فقد استطاع ان يقنع زملاءه الاميركان وهم فى جبل طارق بان يقطعوا رحلتهم ويعودوا الى الولايات المتحدة الاميركية (١٢) .

تلك هى الاسباب والملابسات التى ادت الى جعل لندن تقرر نهائيا نشر بيان بلفور . (وكان من هذه الاسباب ايضا خشية البريطانيين من ان يسبقهم الاميركان فى فلسطين) .

وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ امكن بواسطة براندايس والكولونيل هاوز ـ مستشار ولسن الشخصى وصديقه الحميم الحصول على موافقة الرئيس الاميركى رسميا على بيان بلفور بصيغته النهائية . ولم يكن الامر هينا على ولسن . فان تأييد بيان

بلفور يعنى الموافقة الرسمية على تقسيم الامبراطورية العثمانية التى تعتبر فلسطين جزء منها ، فى حين ان الولايات المتحـــــدة الاميركية لم تقطع العلاقات الدبلوماسية مع تركيا ، بل وقـــد حاولت ان تدفع تركيا الى الصلح المنفرد . وكانت موافقة ولسن على بيان بلفور سرية للغاية بحيث لم تعلم بهـــا حتى وزارة الخارجية الاميركية . ولذلك فعندما نشرت «التايمس» اللندنية بيان بلفور فى اواخر ١٩١٧ كلفت وزارة الخارجية الاميركيـــة سفيرها فى لندن بان يستوضح المزيد من التفاصيل عن هذه الوثيقة والاسباب التى حدت بالحكومة البريطانية الى كتمان اعدادها عن الولايات المتحدة الاميركية .

ولقد بعث بيان بلفور ارتياحا كبيرا لدى الاوساط الصهيونية فى الولايات المتحدة الاميركية وساعـــد على تنشيط مساهمـة الولايات المتحدة الاميركية فى الحرب العالمية وزيادة المساعدة المالية الى دول الوفاق . الا ان الصهاينة الاميركان كانوا بحاجة الى تصريح رسمى من ولسن عن تأييده لبيان بلفـــور . وفى آب (اغسطس) ١٩١٨ اعلن ولسن قائلا : «اعتقد ان الامم الحليفة قررت وضع حجر الاساس للدولة اليهودية فى فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا» (١٣) . وهكذا «استكمل» ولسن بيـــان بلفور تحت ضغط الصهاينة . فالبيان يشير الى تأسيس «وطن يهودى» فى فلسطين ، بينما اعلن الرئيس الاميركى عن تأسيس «دولة يهودية» فيها .

وبعد ان عقد الامبرياليون البريطانيون والاميركان الصفقة مع الصهاينة على حساب مصالح الشعب العربى الفلسطينى اسرعوا الى استخدام حلفائهم الجدد بغية نسف مفاوضات الصلح السوفييتية الالمانية التى جرت فى بريست-ليتوفسك اعتبارا من تشرين الثانى

(نوفمبر) ١٩١٧ . ففى ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ابرق وايزمان الى احد زعماء الصهاينة الروس ، وهو روزوف الموجود انذاك فى بتروغراد ، مصرا «على معارضة المفاوضات مع المانيا . . .» . واكد زعيم المنظمة الصهيونية العالمية على روزوف قائلا : «ان واجبكم المقدس هو ترسيخ ميول التعاطف مع الانجليز والولاء لهم بين يهود روسيا ومكافحة الميول المناهضة بكل الوسائل» (١٤) . وفى ١٧ كانون الاول ١٩١٧ ، بعد يومين من توقيع الوفد السوفييتى فى بريست-ليتوفسك اتفاقية الهدنة مع الحلف الالمانى النمساوى ، بعث وايزمان ، تحت ضغط الحكومة البريطانية ، ثلاث برقيات الى زعماء الصهاينة الروس — الى روزوف وزلاتوبولسكى فى بتروغراد والى غالبيرين فى كييف والى اوسيشكين وبارباش ووانيشتين فى اوديسا . وطالب وايزمان فى برقياته بمقاومة هذه الاتفاقية ، لان من شانها ان تضعف مواقع دول الوفاق ، وبالتالى تقلل كثيرا فرص الصهاينة فى الاستئثار بفلسطين . وفى الوقت ذاته طلب وايزمان المساعدة من براندايس ، واصر على ان يقنع الصهاينة الاميركان زملاءهم الروس فى ان يبذلوا قصارى جهدهم للحيلولة دون «مناورات الالمان والبلاشفة» . وكانت الحجة فى ذلك هى نفس الخشية من فقدان فلسطين (١٥) . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩١٩ بعث زعماء الصهاينة الاميركان براندايس وفيزيه وهعاس برقية الى زملائهم الروس حسب طلب وايزمان . واستنادا الى بيان بلفور الذى حول بريطانيا ودول الوفاق ، برأى براندايس وزميليه ، الى السند الرئيسى للصهاينة فى العالم اجمع ، تساءل الزعماء الصهاينة الاميركان الثلاثة من زملائهم الروس : الى متى يظل هؤلاء صابرين على خطط الامبريالية الالمانية الاغتصابية ؟ (١٦) . وهكذا ، ففى معمعة النضال الذى

شنه تروتسكى وبوخارين ضد لينين فى محاولة لنسف توقيع صلح بريست ، وبالتالى تهديد كيان روسيا السوفييتية الفتية ، اسرع صهاينة دول الوفاق الى نجدة هذين . وهكذا استخدم امبرياليو الوفاق الصهاينة فى الشرق الاوسط لمكافحة حركة التحرر العربية ، كما استخدموا الصهاينة فى روسيا لمكافحة البلشفية بحجة «انقاذ فلسطين اليهودية» .

وبغية اضعاف تاثير ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، والتستر فى الوقت ذاته على الاهداف الاغتصابية لدول الوفاق ، وبالدرجة الاولى للولايات المتحدة الاميركية ، اصدر الرئيس ولسن فى كانون الثانى (يناير) ١٩١٨ بيانه المعروف «بالبنود الـ ١٤» . ويتناول البند ١٢ الشرق الاوسط مباشرة . فقد جاء فيه : «ان الاقسام التركية من الامبراطورية العثمانية الحالية يجب ان تحصل على ضمانة تؤمن سيادتها ، ولكن القوميات الاخرى الواقعة حاليا تحت السيطرة التركية يجب ان تحصل على ضمانة تؤمن الحياة تامينا تاما وتهيئ الامكانية الملائمة للتطور المستقل بحيث لا يعكر صفوه شيء ابدا» (١٧) . فكيف يمكن التوفيق بين هذا الالتزام بمنح الحرية التامة لجميع شعوب الامبراطورية العثمانية ، بما فيها ، طبعا ، عرب فلسطين لكى تقرر مصيرها بصورة مستقلة ، وبين الصفقة التى تمت بين الحكومتين والمنظمات الصهيونية فى بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية حول تاسيس دولة يهودية فى فلسطين ؟

ولا بد من ظهور سؤال آخر : كيف يمكن الجمع بين البند الثانى عشر من برنامج ولسن وبين اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية لعام ١٩١٦ حول اقتسام تلك البلدان العربية التى وعدها ولسن بالحرية ؟ يجيب المؤرخون والدعاة الاميركان على هذا السؤال ببساطة فيقولون ان دول الوفاق اخفت عن ولسن المحب للحرية

معاهداتها الشنيعة لاقتسام البلدان العربية . وكان ولسن نفسه قد اعلن للجنة الشؤون الخارجية لدى مجلس الشيوخ الاميركي في ١٩١٩ بانه لم يعرف بنبأ اتفاقية سايكس - بيكو ، وكذلك المعاهدات السرية الاخرى الا في مؤتمر باريس للسلام في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ . وادلى بتصريح مماثل وزير الخارجية الاميركي لانسينغ .

الا ان وثائق ارشيف ولسن غير المنشور كليا بعد تؤكد ان الرئيس الاميركي كان قد اطلع على جميع معاهدات الحلفاء السرية ، بما فيها اتفاقية سايكس - بيكو ، في ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩١٧ اثناء زيارة وزير خارجية بريطانيا بلفور الى البيت الابيض . زد على ذلك ان بلفور بعث الى ولسن شخصيا في ١٨ ايار (مايو) ١٩١٧ نسخا لجميع المعاهدات السرية مرفقة بالرسالة التالية ذات الدلالة الكبيرة : «لا اعتقد بان هذه الوثائق ستضيف شيئا جديدا الى ما هو معروف لديكم بخصوص هذه المسألة» (١٨) . وعلى ضوء هذه الملابسات يتضح ما سجله الكولونيل هاوز في يومياته حيث يعرض مضمون مناقشته مع ولسن بصدد البند ١٢ . فالرئيس الاميركي ، كما يتضح من هذه اليوميات ، لم يكن في بادئ الامر راغبا في الاكتفاء بالاشارة العامة الى منح الاستقلال لجميع الشعوب الداخلة ضمن الامبراطورية العثمانية ، بل كان يريد ان يعدد بالحرف الواحد العراق وسوريا والبلدان العربية الاخرى . الا ان هاوز المطلع كليا على معاهدة سايكس - بيكو نصح الرئيس الاميركي بعدم ايراد هذه التفاصيل ضمن البند ١٢ (١٩) .

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ ، في معمعان التحضير لمؤتمر باريس للسلام ، وضع الكولونيل هاوز ، الذي كان في

باريس انذاك ، بالاشتراك مع الكاتب الاجتماعى المعروف والتر ليبمان تعليقا ضافيا على «بنود ولسن الـ١٤» . وقد استحسن الرئيس الاميركى هذا التعليق . وبخصوص البند ١٢ كتب المؤلفان يقولان : «ان بريطانيا هى ، بلا جدال ، افضل دولة منتدبة على فلسطين والعراق والجزيرة العربية» . وتضمنت هذه الوثيقة موافقة على تسليم سوريا الى الامبرياليين الفرنسيين (٢٠) .

ذلك هو رياء ونفاق الاوساط الحاكمة فى الولايات المتحدة الاميركية التى تجلببت بجلباب المناضلين ضد الاستعمار ، ولكنها فى الواقع ايدت مخطط تقسيم البلدان العربية الذى اعدته دول الوفاق بالاشتراك مع الصهاينة . وفى معرض تحليل هذه السياسة كتب فلاديمير ايليتش لينين يقول : «ان الجمهورية الديموقراطية المثالية ، جمهورية ولسن ، قد **تكشفت** بالفعل عن اشد اشكال الامبريالية ضراوة ، عن اشد اشكال اضطهاد الشعوب الضعيفة والصغيرة وخنقها وقاحة وخزيا» (٢١) .

وفى عام ١٩١٩ تجلى فى جلسات مؤتمر باريس للسلام ، وبالدرجة الاولى فى جلسات المجلس الرباعى الفائق القوة والحول (ولسن ورؤساء وزراء بريطانيا وفرنسا وايطاليا) كامل عمق التناقضات بين الامبرياليين حول مسالة اقتسام الشرقين الادنى والاوسط . فالامبرياليون البريطانيون الذين عززوا مواقعهم فى الشرق الاوسط بذلوا جهودا عنيدة فى الواقع لالغاء كلا الالتزامين ازاء العالم العربى ، نعنى اتفاقية مكماهون ــ الحسين حول تاسيس دولة عربية مستقلة فى آسيا واتفاقية سايكس ــ بيكو حول اقتسام العالم العربى بين بريطانيا وفرنسا . وكان هدفهم واحدا يتلخص فى اخماد حركة التحرر العربية ونسف مواقع المنافسين الفرنسيين وتحويل هذه المنطقة الى منطقة نفوذ محتكرة

لبريطانيا . ولذلك حاول المستعمرون البريطانيون ان يثبتوا عدم جواز تسليم الاراضى العربية التى نصت عليها اتفاقية سايكس ـ بيكو الى فرنسا بشكل ممتلكات تحت الانتداب ومناطق نفوذ ، لان فرنسا لا تحظى بسمعة طيبة لدى العرب (وقد عمل عملاء بريطانيا بكل الوسائل على جعل سمعة فرنسا تتدهور) . وكان بيان بلفور سلاحا اكثر فعالية فى ايدى المستعمرين البريطانيين الذين كانوا يأملون بواسطته بالتخلص من كلتا الاتفاقيتين المذكورتين . فبمساعدة الصهاينة بالذات كان التوسعيون البريطانيون يأملون بنسف فكرة الدولة العربية الموحدة وبنسف خطط فرنسا الطامعة بسوريا ولبنان وشمال فلسطين .

وفى هذا الوضع المعقد للغاية قرر ولسن والمقربون اليه ان يدخلوا اللعبة بنشاط بعد ان حاولوا استخدام فلسطين كرأس جسر للتغلغل الى العالم العربى منذ فشل مهمة مورغنتاو فى عام ١٩١٧ . وكانت الحجة ملائمة للغاية ، وهى تتلخص فى البند الـ ١٢ ذاته من برنامج ولسن . فتحت ستار من الشعارات الطنانة بشأن ضرورة دراسة ميول شعوب الشرق الاوسط قبل الموافقة رسميا على وضعها تحت انتداب الدول الكبرى استطاع ولسن فى ٢٠ اذار (مارس) ١٩١٩ ، بعد تذليل اشد المعارضة من جانب زملائه فى المجلس الرباعى ، ان يمرر قرارا بارسال لجنة ثلاثية انكلوفرنسية اميركية الى العالم العربى لدراسة رغبات السكان المحليين . وعملت حكومة بريطانيا ، والحكومة الفرنسية خصوصا ، بنشاط كبير على عرقلة تنفيذ هذا القرار . وفى تلك الاثناء كان الكولونيل هاوز قد تقابل سرا فى ٢٩ اذار (مارس) ١٩١٩ مع الامير فيصل الذى ترأس رسميا الوفد العربى الى مؤتمر السلام فى باريس . واستفاد هاوز من عداء فيصل للفرنسيين

فحصل منه على طلب باقامة الانتداب الاميركى على سوريا ولبنان وفلسطين .

ولم تكن المخابرات البريطانية ووزارة خارجية بريطانيا لتتركا فيصل وحده ولو لدقيقة واحدة فى باريس . فقد عهدتا الى الكولونيل لورنس بان يكون مستشارا ومترجما لفيصل . وكان لورنس قد حضر مباحثات فيصل وهاوز . زد على ذلك انه ترجم الحوار هذه المرة بامانة ولم يحور فى المعانى . فقد كانت مهمته الرئيسية اضعاف مواقع فرنسا وتازيم العلاقات الفرنسية العربية والفرنسية الاميركية على حد سواء ، وبالتالى العمل على تسهيل تنفيذ خطط المستعمرين البريطانيين .

ان الحوار بين هاوز وفيصل لم يكن من قبيل الصدفة ابدا . واسطع برهان على ذلك هو احداث ربيع وصيف ١٩١٩ . فبما ان بريطانيا وفرنسا تابعتا عرقلة توجه اللجنة الثلاثية الى العالم العربى قرر ولسن ان يتوجه الى هناك القسم الاميركى من اللجنة ، والذى صار يسمى بلجنة كينغ ــ كراين ، اى باسم المشرفين عليها . وزارت هذه اللجنة سوريا ولبنان وفلسطين فى حزيران ــ تموز (يونيو ــ يوليو) ١٩١٩ واجرت عددا كبيرا من اللقاءات مع مختلف الشخصيات والمنظمات الاجتماعية . وتقابل اعضاء اللجنة فى دمشق مع ممثلى الاوساط الاجتماعية العراقية ايضا . وفى آب (اغسطس) ١٩١٩ تسلم الرئيس ولسن تقرير لجنة كينغ ــ كراين .

وبنتيجة اللقاءات العديدة والمحادثات والمباحثات ودراسة ١٣٥٠ طلبا وعريضة توصلت لجنة كينغ ــ كراين الى الاستنتاجات التالية : ١) ان الاغلبية المطلقة من سكان سوريا ولبنان وفلسطين ، بغض النظر عن الفروق الدينية ، بل والقومية بينهم فى

بعض الحالات ، يرفضون الانتداب الفرنسى او اى شكل آخر للسيطرة الفرنسية رفضا باتا . ٢) يطالب سكان هذه البلدان بتوحيدهم فى دولة واحدة (سوريا الكبرى) مع منح لبنان وفلسطين حكما ذاتيا داخليا معينا . ٣) لسكان هذه البلدان مصلحة ملحة جدا باعلان الانتداب الاميركى على دولة سوريا الكبرى الجديدة . ٤) يعارض سكان فلسطين ولبنان وسوريا معارضة شديدة قاطعة تطبيق الخطط الصهيونية فى فلسطين . وبالاستناد الى رأى الاخصائيين المطلعين ، بمن فيهم الضباط والموظفون الاستعماريون البريطانيون المحليون ، اكدت لجنة كينغ ـ كراين ان فرض الخطة الصهيونية «للوطن اليهودى» على فلسطين ، حتى فى طورها البدائى ، غير قابل للتحقيق الا «باستخدام قوات مسلحة لا يقل تعدادها عن ٥٠ الف شخص» . ٥) ان تطبيق الخطط الصهيونية ازاء فلسطين «سيشدد لدرجة كبيرة الميول المعادية لليهود فى فلسطين وفى ارجاء العالم الاخرى التى تعتبر فلسطين ارضا مقدسة» (٢٢) .

الا ان استنتاجات لجنة كينغ ـ كراين التى تضمنت كذلك اقتراحين بامكان اقامة الانتداب الاميركى على العراق وارمينيا لم تطبق عمليا . وذلك ، اولا ، لان الامبريالية الاميركية فى ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ لم تكن بعد قوية لدرجة كافية لانتزاع العالم العربى من منافسيها ، وبالدرجة الاولى من بريطانيا . ثانيا ـ اثار طابع تقرير لجنة كينغ ـ كراين المنافى للصهيونية بشدة والذى تميزت بعض اقتراحاته بعمق الرؤية وحدة التكهن استياء شديدا للغاية لدى الصهاينة البريطانيين والاميركان . وعمل ممثلو هؤلاء على جعل مؤتمر باريس للسلام يعترف رسميا بالتفسير الموسع لبيان بلفور وبادراج نصه ضمن قرارات مؤتمر باريس وقرارات عصبة

الامم فيما بعد ، وهى القرارات الخاصة بتسليم الانتداب عـــلى فلسطين الى الحكومة البريطانية .

لقد كان المشرفون على لجنة كينغ ـ كراين مرتبطين بالاوساط الامبريالية الاميركية التى كانت تأمل فى سنوات ما بعد الحـــرب العالمية الاولى فى تعزيز مواقعها فى العالم العربى ليس عن طريق التواطؤ مع كبار الصهاينة ، بل عن طريق التواطؤ مع الاوساط الاقطاعية العربية . وليس من قبيل الصدفة ان يكون المبادر الى ارسال لجنة كينغ ـ كراين الى سوريا هو هوارد بليس رئيس الجامعة الاميركية فى بيروت ، وهى اهم مركز للنفوذ الاميركى فى العالم العربى ، بينما كان كراين عميدا لكلية روبرت فى اسطنبول ، وهى كذلك معقل هام للنفوذ الاميركى .

ومما له دلالته ان تقرير لجنة كينغ ـ كراين اعتبر سريـــا للغاية ، بحيث منع توزيعه ، بأمر من ولسن ، على وفود الدول الكبرى فى مؤتمر باريس (بالرغم من ان لجنة كينغ ـ كراين كانت من الناحية الرسمية جزء من اللجنة الثلاثية الانكلوفرنسيـــــــة الاميركية) . ولم يعرض هذا التقرير على الفرنسيين عموما . وبعد الحاح طويل عرض على احد المشرفين على الوفد البريطانى ، ولكن دون ان يسمح له بالتقاط نسخة منه . ويعزى هذا الكتمان الشديد لوثيقة لم تستخدم فى السياسة التطبيقية الاميركية الى اتجاه هذه الوثيقة المناوئ للصهيونية . ولم ينشر تقرير لجنة كينـــغ ـ كراين الا بعد ان تسلمت بريطانيا رسميا فى مؤتمر سان ريمـــو الانتداب على فلسطين الذى ادرج بيان بلفور فى نصه ، كما اشرنا اعلاه ، وبعد ان وافق مجلس الشيوخ الاميركى فى عـــام ١٩٢٢ تحت ضغط هائل من الصهاينة على تأسيس «الوطن اليهودى» فى فلسطين . وحتى فى هذه الحالة نشر التقرير بعدد من النسخ محدود

جدا ، ولا يكفى فى الواقع الا للاستخدام الادارى . ولم يعد نشر تقرير كينغ ـ كراين فى اواخر عام ١٩٢٢ ، بعد ان حقق الصهاينة اهدافهم وأمنوا تعيين هربرت صموئيل لمنصب اول مندوب سام بريطانى لفلسطين ، يشكل خطرا كبيرا عليهم .

ولم تتخل الاوساط الحاكمة الاميركية عن خطط تعزيز نفوذها فى العالم العربى . ففى عام ١٩١٩ ارسل الى مياه الشرق الاوسط قسم من عمارة المتوسط الاميركية بقيادة العميد البحرى بريستول . وكانت نفقات وجود العمارة فى هذه المنطقة تكلف دافعى الضرائب الاميركان ٤ ملايين دولار فى العام . وفى الوقت ذاته ظهر على مسرح الشرق الاوسط الاميرال شيستر الذى استأنف المفاوضات بشأن الحصول على الامتياز الهائل لمد السكك الحديدية واستثمار البترول فى الشرق الاوسط . ومما له دلالته ان شيستر ابدى اهتماما خاصا بالحصول على امتياز استثمار بترول الموصل ومد سكة حديد عبر سوريا من حلب الى خليج الاسكندرونة الذى كانت سواحله انذاك تابعة لسوريا . واتفق هذا المشروع مع خطط وزير البحرية الاميركى دنبى بشأن تحويل ميناء يمرطالق الواقع فى هذا الخليج الى قاعدة للاسطول الاميركى . الا ان انهيار الامبراطورية العثمانية والتدخل اليونانى وانتصار الحركة التحررية الوطنية فى تركيا بقيادة مصطفى كمال وتنامى الحركة المعادية للامبريالية فى البلدان العربية واحابيل الامبريالية البريطانية بشأن مسألة الموصل واشتداد الصراع السياسى الداخلى فى الولايات المتحدة الاميركية الذى ادى الى فشل ابرام معاهدة فرساى فى مجلس الشيوخ الاميركى ـ كل ذلك اضعف لدرجة ما وبصورة مؤقتة مواقع الامبريالية الاميركية فى الشرق الاوسط .

ومع ذلك ساهم الصهاينة الاميركان انشط مساهمة فى جميع

اجراءات المنظمة الصهيونية العالمية الرامية الى تحويل فلسطين الى ضيعة لها . فى نيسان (ابريل) ١٩١٨ ، على اثر احتلال القوات البريطانية لفلسطين ولامد طويل قبل صلح مودروس ، شكلت الحكومة البريطانية ، تحت ضغط المنظمة الصهيونية العالمية ، اللجنة الصهيونية برئاسة وايزمان . وكانت مهمة هذه اللجنة تتلخص فى تقديم المساعدة لسلطات الاحتلال البريطانية فى تنفيذ بيان بلفور . الا ان اللجنة حاولت رأسا ان تحل محل الادارة العسكرية البريطانية . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ عقدت اللجنة الصهيونية مؤتمرا فى يافا صاغ «المهمات الاساسية للحكومة المؤقتة فى فلسطين» . علما بانه طرحت مطالب بتغيير اسم فلسطين وجعله «ايريتس اسرائيل» («بلاد اسرائيل») ، وباستبدال العلم البريطانى بعلم يهودى وهلمجرا (٢٣) . وبدأت خلافات شديدة بين اللجنة الصهيونية والادارة البريطانية وبين المنظمات السياسية والاجتماعية العربية . وفى معمعان هذه الخلافات وصل براندايس الى فلسطين فى تموز (يوليو) ١٩١٩ وترأس اللجنة الصهيونية فى الواقع . وقد تحدثنا فى الفصل الاول من هذا الكتاب عن المباحثات التى جرت بين براندايس وبلفور فى باريس فى حزيران (يونيو) ١٩١٩ وطالب زعيم الصهاينة الاميركان خلالها بصيغة انذار بتوسيع حدود فلسطين شمالا حتى نهر الليطانى وشرقا حتى عمان . زد على ذلك ان براندايس لمح الى ان الصهاينة مصرون على تحويل فلسطين من وطن قومى يهودى الى دولة يهودية تحت الحماية البريطانية . وكان الوقت الذى اختاره الصهاينة الاميركان لطرح هذه المطالب مناسبا لهم كليا . ففى ذلك الحين بالذات اشتد لدرجة كبيرة فى باريس الخلاف بين بريطانيا وفرنسا بسبب اقتسام المناطق العربية . فقد طالب المستعمرون الفرنسيون

بحصتهم من الغنيمة (سوريا ولبنان وقسم من العـراق) واصروا على تنفيذ اتفاقية سايكس ــ بيكو التى يبغضها البريطانيون اشــد البغض . وفى الوقت ذاته استطاع الرئيس ولسن ، تحــت ضغط الاوساط الاستعمارية الاميركية الساعية الى تعزيز نفوذهــا فى الشرق الاوسط ، ان يوجه الى هناك لجنة كينغ ــ كراين المــار ذكرها . وفى هذه الظروف قررت الدبلوماسية البريطانية الساعية الى كسب رضا الصهاينة وتاييدهم ان تقدم المزيد من التنــازلات لهم . فقد وعد بلفور براندايس بتوسيع حدود فلسطين شمــالا (على حساب المنطقة الفرنسية !) ، كما وعد بقبول المطالــب الاخرى سعيا منه الى جعل براندايس يلتزم بالعمل على جعــل فلسطين ، كضيعة للمنظمة الصهيونية العالمية فى المستقبــل ، خارج نطاق صلاحيــة لجنة كينغ ــ كراين . وقد التزم براندايس بذلك (٢٤) . (لم يستطع الصهاينة ان يحولوا دون زيارة لجنة كينغ ــ كراين الى فلسطين ، ولكنهم استطاعوا ان يجعلوا الحكومة الاميركية تصرف النظر عن استنتاجات هذه اللجنة غير الملائمـة للبريطانيين والصهاينة على حد سواء .)

وبعد تلك المباحثات الخطيرة جدا مع بلفور سافر براندايس الى القدس . واخذ يدعم جميع مطالب اللجنة الصهيونية بانشط صورة . زد على ذلك انه اعلن لرئيس الادارة العسكرية البريطانية الجنرال بولس ان جميع اوامر سلطات الاحتلال البريطانية يجب ان تحظى مسبقا بموافقة اللجنة الصهيونية . وادى ذلك الى تشديد الخلاف بين الصهاينة والادارة البريطانية . فبعث براندايس الى بلفور شكوى على الفور ، فتمت تنحية عدد من كبار موظفــى الادارة البريطانية فى فلسطين (٢٥) . وبعد ان عاد براندايس الى واشنطن واصل تدخله فى الشؤون الفلسطينية . ففى شبــاط

(فبراير) ١٩٢٠ وجه برقية الى لويد جورج الذى كان آنذاك فى جلسة المجلس الاعلى لدول الوفاق فى باريس . وطالب زعيم الصهاينة الاميركان فى هذه الوثيقة من جديد بضم حوض نهر الليطانى وجبل الشيخ كله ، اى لبنان الجنوبى وجنوب سوريا الى فلسطين (٢٦) . واعتبارا من آب (اغسطس) ١٩١٩ سعى الجنرال بولس دون جدوى الى حل اللجنة الصهيونية . فقد اشار فى التقرير الذى بعثه الى الحكومة البريطانية فى اذار (مارس) ١٩٢٠ الى ان اللجنة الصهيونية تسيئ الى سمعة السلطات البريطانية و«تهدد السلام والاستقرار العام فى فلسطين» (٢٧) . ومع ذلك تابعت اللجنة الصهيونية نشاطها الرامى الى تحويل البلاد الى دولة صهيونية . وهكذا سعت المنظمة الصهيونية العالمية بدعم نشيط من الصهاينة الاميركان وبالتغاضى المباشر من قبل الحكومة البريطانية الى تحويل فلسطين بسكانها العرب الغفيرين الى «بلاد اسرائيل» لامد طويل قبل الحرب العالمية الثانية ، بل ولثلاث سنوات قبل ان تسلم عصبة الامم رسميا الانتداب على فلسطين الى بريطانيا .

وفى ١٠ آب (اغسطس) ١٩٢٠ فرض امبرياليو الوفاق على تركيا المقهورة معاهدة صلح سيفر الجائرة المهينة . واشارت المادة ٩٥ من هذه الوثيقة الدولية الى ان فلسطين ستحول الى ملكية تحت الانتداب لاحدى الدول المنتصرة والى انه سيتم هناك تأسيس وطن قومى يهودى طبقا لبيان بلفور . ولم توقع الولايات المتحدة الاميركية معاهدة صلح سيفر ولم تنضم الى عصبة الامم كما هو معروف . وعندما وافقت الولايات المتحدة الاميركية على تسليم بريطانيا الانتداب على فلسطين طالبت بان تعترف بريطانيا بحقوق وامتيازات خاصة للمواطنين الاميركان فى

فلسطين . وكانت المفاوضات الانكلواميركية بهذا الخصوص معقدة للغاية وطويلة الامد . ولم تنته هذه المفاوضات الا في ٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٤ حيث وقعت معاهدة انكلواميركية خاصة حول فلسطين . ونصت هذه المعاهدة على تمتع المواطنين الاميركان بحقوق فتح مختلف المؤسسات والجمعيات التعليمية والخيرية والدينية في فلسطين (٢٨) . وهكذا فتح باب فلسطين على مصراعيه امام المنظمات الصهيونية الاميركية .

وفي نفس الوقت تقريبا ـ في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٤ ـ وقعت الولايات المتحدة الاميركية معاهدة مماثلة مع فرنسا . وقد هيأت هذه المعاهدة الظروف الملائمة لمختلف الجمعيات الدينية والمؤسسات المالية الاميركية في سوريا ولبنان الواقعتين تحت الانتداب الفرنسي .

دخول الاحتكارات البترولية الاميركية العالم العربي

منذ بداية العشرينات انتقلت الامبريالية الاميركية الى الهجوم في واحدة من الجبهات الحاسمة في العالم العربي ، نعني الجبهة البترولية . ففي ايار (مايو) ١٩٢٠ سلم السفير الاميركي في لندن الى وزير الخارجية البريطاني كيرزون مذكرة تضمنت مطلبا بشمول شركات البترول الاميركية في الاراضي العربية الواقعة تحت الحماية والانتداب البريطانيين بمبدأ «الابواب المفتوحة والفرص المتكافئة» . ولم يكن تمويه السياسة الاستعمارية بهذا المبدأ امرا جديدا . ففي عام ١٨٩٩ استخدمه الامبرياليون الاميركان في الصين . وكانوا آنذاك يأملون بواسطته ان يعرقلوا تجزئة الصين الى

مناطق نفوذ للدول الكبرى وان يسيطروا هم على السوق الصينية الهائلة كلها . وما ان تغيرت الظروف بعد الحرب العالمية الاولى ، حيث كانت الولايات المتحدة الاميركية تفوق منافسيها من حيث القوة لدرجة كبيرة ، حتى سعت فى العالم العربى الى تحقيق ما لم يتسن لها تحقيقه فى الصين . وفى عام ١٩٢٢ بدأت المفاوضات بين الاوساط الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا واحتكاراتهما البترولية من جهة وبين حكومة الولايات المتحدة والاحتكارات البترولية الاميركية من جهة اخرى بصدد مساهمة الرأسمال الاميركى فى استثمار الثروات البترولية فى العراق الذى كان انذاك البلد العربى الوحيد الذى يستخرج فيه البترول . واستمرت هذه المفاوضات العسيرة ستة اعوام وانتهت بتوقيع اتفاقية شاملة فى ٣١ تموز (يوليو) ١٩٢٨ بصدد مساهمة الرأسمال الاميركى فى «شركة النفط التركية» المار ذكرها والتى استبدل اسمها فى عام ١٩٢٩ الى «شركة نفط العراق» . وطبقا لهذه الاتفاقية حصلت مجموعتان من الرأسمال البريطانى تمثلان «انكلو بيرشن اويل كومبانى» و«رويال داتش-شل» على ٢٣,٧٥ بالمئة لكل منهما من اسهم «شركة النفط التركية» ، كما حصلت «كومبانى فرانسيس دى بترول» (شركة النفط الفرنسية) التى تمثل الرأسمال الفرنسى و«نير ايست ديفيلوبمينت كوربوريشن» (شركة استثمار الشرق الادنى) ، التى تمثل الرأسمال الاميركى على ٢٣,٧٥ بالمئة من الاسهم لكل منهما . واحتفظ الرأسمالى المعروف كولبينكيان بـ٥٪ من الاسهم (٢٩) . وكان المساهمون الرئيسيون فى «نير ايست ديفيلوبمينت كوربوريشن» هم اصحاب شركتى «ستاندرد اويل اوف نيوجرزى» و«سوكونى فاكوم اويل كومبانى» اللتين تسيطر عليهما مجموعة روكفلر .

وهكذا تحقق حلم الاحتكارات الاميركية الذى راودها سنين عديدة . فقد قهرت مقاومة المنافسين وشقت طريقها الى البترول العربى . وكانت اهمية هذه الاتفاقية بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية تتجاوز كثيرا حصة ال٢٣,٧٥ المتواضعة من الاسهم التى كانت تتسلمها . وطبقا للمادة ١٠ من اتفاقية ٣١ تموز (يوليو) ١٩٢٨ التزم مساهمو «شركة النفط التركية» بالامتناع عن تسلم الامتيازات الفردية ليس فقط فى اراضى العراق ، بل وفى جميع الاراضى التى كانت قبل عام ١٩١٨ داخلة ضمن الامبراطورية العثمانية . كما التزموا بتوزيع جميع الامتيازات البترولية التى يتم الحصول عليها فيما بعد فى البلدان العربية بين مساهمى «شركة النفط التركية» بحصص تعادل اسهمهم فى الشركة . والحقت بالاتفاقية خريطة رسمت عليها حدود هذه المنطقة بخط احمر قان . وادرجت ضمن هذه الحدود جميع البلدان العربية ، بما فيها شبه الجزيرة العربية ، ما عدا الكويت . وتعليلا لهذه الوثيقة التى اطلق عليها اسم «اتفاقية الخط الاحمر» اشير الى ان هذه الاتفاقية اقرت فى بادئ الامر فى سياق المفاوضات مع السلطنة التركية اثناء تاسيس واعادة تنظيم «شركة النفط التركية» فى عامى ١٩١٢ و١٩١٤ .

ويصعب على المرء ان يجد اهانة للكرامة الوطنية والحرية والاستقلال ليس للشعب العراقى وحده ، بل ولشعوب البلدان العربية الاخرى ، اشد من اتفاقية ٣١ تموز ١٩٢٨ حول اعادة تنظيم «شركة النفط التركية» ومساهمة العراق فيها شكليا ، تلك الاتفاقية التى فرضتها على حكومة هذا البلد العربى العريق الامبريالية البريطانية التى هى المساهمة الرئيسية فى هذه الشركة وصاحبة الانتداب على العراق . ولم يكتف المستعمرون

البريطانيون بالخرق الوقح لالتزاماتهم بمنح الاستقلال السياسى للعرب . فقد ادرجوا ضمن اتفاقية ١٩٢٨ بندا ساعد لدرجة كبيرة على الاستعباد الاقتصادى للبلدان العربية . فقد استأثروا بحق التصرف بمصير البترول العربى طوال العقود القادمة ومارسوا حل المسائل المتعلقة بنظام الحصول على امتيازات استخراج البترول وتوزيع الارباح على المساهمين فى النهب الامبريالى للشعوب العربية . ففى عام ١٩٢٨ ، بعد مرور عشرة اعوام على انهيار الامبراطورية العثمانية ، قسم المستعمرون البريطانيون والاميركان المداخيل المرتقبة من البترول العربى استنادا الى خارطة . . . الامبراطورية العثمانية ! علما بانهم ضموا الى ممتلكات السلطان العثمانى فى وقت متأخر نجد وعمان ومسقط التى لم تكن ضمن الامبراطورية العثمانية ابدا . زد على ذلك ان المستعمرين البريطانيين كانوا فى مستهل القرن العشرين يحرضون حكام هذه البلدان على النضال ضد الامبراطورية العثمانية عندما كان ذلك ينفع المستعمرين البريطانيين . اما فى عام ١٩٢٨ فقد تذرع المستعمرون البريطانيون فى توقيع «اتفاقية الخط الاحمر» باتفاقية ١٩١٤ مع وزير المالية العثمانى جواد بيك !

وتؤكد الكتب العلمية والاجتماعية الاميركية على الدوام الفكرة القائلة بان الرأسمال الاميركى خاضع للاحتكارات البريطانية فى «شركة نفط العراق» وان «اتفاقية الخط الاحمر» قد فرضتها لندن وانها غير نافعة ابدا للرأسمال الاميركى لانها تحدد وتشل مبادرته فى البلدان العربية وتضطر الاميركان على اقتسام الامتيازات ، وبالتالى الارباح ، مع المستعمرين البريطانيين . ومما يؤسف له ان وجهة النظر هذه انعكست فى البحوث العلمية فى البلدان الاخرى ، بما فيها بلدان عربية . والحال فلدينا كل الحق

فى التاكيد بان «اتفاقية الخط الاحمر» كانت فى مرحلة معينة نافعة اعظم النفع للامبريالية الاميركية بالذات . ففى العشرينات والثلاثينات كان العراق ، وكذلك اغلبية البلدان العربية الاخرى ، بما فيها جميع بلدان حوض الخليج العربى ، تحت السيطرة البريطانية التامة ، وكان الخليج العربى فى الواقع «بحيرة بريطانية» . ولذلك فقد كان من اصعب الامور على الاحتكارات البترولية الاميركية ان تشق طريقها الى هذه المنطقة . ولكن الوضع تغير بصورة جذرية بعد توقيع «اتفاقية الخط الاحمر» . فان اى امتياز بترولى كانت الاحتكارات البريطانية تنتزعه من شيوخ وسلاطين حوض الخليج العربى بمنتهى السهولة صار بعد توقيع الاتفاقية المذكورة يحال تلقائيا الى «شركة نفط العراق» ، اى انه يصبح فى حوزة الاميركان ايضا .

وتمتع الرأسماليون الاميركان بثمار فعلية عن «اتفاقية الخط الاحمر» فى عام ١٩٣٨ عندما استخدم المستعمرون البريطانيون نفوذهم السياسى فى العراق وتوصلوا الى الغاء شركة النفط الانكلوايطالية (التى كان الرأسمال الايطالى يمتلك ٦٢٪ من أسهمها) وتحويل ممتلكاتها الى «شركة نفط الموصل» المتفرعة عن «شركة نفط العراق» . وفى عام ١٩٣٨ ذاته حصلت «شركة نفط العراق» فى بغداد بدعم نشيط من قبل الدبلوماسية البريطانية على امتياز للتنقيب عن البترول واستخراجه فى جنوب العراق ، وتاسست هناك «شركة نفط البصرة» المتفرعة كذلك عن «شركة نفط العراق» . وهكذا تغلغل الرأسمال الاميركى الى جميع حقول البترول فى العراق .

واتسم باهمية اكبر للاحتكارات البترولية الاميركية تأسيس شركة اخرى فى عام ١٩٣٥ تابعة «لشركة نفط العراق» هى

« بتروليوم كونسيشنز » التى شرعت بالتنقيب عن البترول وبالصراع من اجل امتيازات البترول فى مشيخات الخليج العربى . وطوال اعوام ١٩٣٥ــ١٩٤٤ حصلت هذه الشركة على امتيازات البترول لمدة ٧٥ عاما فما فوق فى مشيخات ساحل الصلح وقطر ومسقط وعمان . بلغت مساحة الاراضى الاجمالية التى مارست هذه الشركة التنقيب عن البترول فيها وامتلكت امتيازاته عند بداية الحرب العالمية الثانية زهاء ٢٠٠ الف ميل مربع . وبفضل « اتفاقية الخط الاحمر » صار المساهمون الاميركان فى « شركة نفط العراق » يحصلون على زهاء ٢٥٪ من مداخيل البترول المستخرج فى الخليج العربى ، وتهيأت لهم فرص هائلة لنشر نفوذهم . وينبغى ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك ان الحصول على الامتيازات وممارسة التنقيب عن البترول قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث لم تكن قد اكتشفت بعد فى هذه المنطقة احتياطيات كبيرة للبترول كانا يكلفان غاليا جدا ويحملان ارباحا غير كبيرة . وكان القسم الاكبر من النفقات يقع على المساهمين الرئيسيين فى « شركة نفط العراق » ، نعنى الانجليز .

وهكذا تحولت « شركة نفط العراق » الاحتكارية بعد ان انضمت اليها شركات البترول الاميركية الى سلاح جبار بيد الامبريالية الانكلو اميركية لتكبيل الاقتصاد ليس فى العراق وحده ، بل وفى كثير من البلدان العربية الاخرى . وتتيح دراسة جميع هذه الحقائق امكانية الادراك الاوضح للاهمية الهائلة التى يتسم بها قرار الحكومة العراقية فى ١ حزيران (يونيو) ١٩٧٢ بتأميم « شركة نفط العراق » التى نهبت شعوب البلدان العربية طوال عقود عديدة .

وعندما انضمت الاحتكارات البترولية الاميركية الى « شركة النفط التركية » فى عام ١٩٢٨ واستخدمت « اتفاقية الخط

الاحمر» لصالحها على نطاق واسع لم تكن تنوى الالتزام بها . وكان الفارق بين بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية فى ميدان الصناعة البترولية يتلخص فى ان هذه الصناعة فى بريطانيا كانت تحت سيطرة احتكارين كلاهما مساهم فى «اتفاقية الخط الاحمر» . اما الولايات المتحدة الاميركية فقد كان فيها عدد اكبر بكثير من الشركات البترولية الضخمة ، وكان باستطاعة الكثير من هذه الشركات غير المساهمة فى «شركة نفط العراق» ان تخرق «اتفاقية الخط الاحمر» بمنتهى البساطة وتحصل على امتيازات بترولية نافعة فى بلدان حوض الخليج العربى دون ان تتقاسم المداخيل مع المنافسين البريطانيين .

وفى اواسط العشرينات بدأ تغلغل الاحتكارات الاميركية فى بلدان شبه الجزيرة العربية ايضا . ففى عام ١٩٢٦ ظهر فى اليمن رجل الاعمال الاميركى المعروف كراين ، احد المشرفين على لجنة كينغ-كراين التى حاولت فى عام ١٩١٩ بسط السيطرة الاميركية على سوريا وفلسطين . وعرض كراين على الامام يحيى اجراء التنقيب الجيولوجى فى البلاد على حسابه الخاص (اى حساب كراين) وعهد كراين الى الجيولوجى الاميركى تويتشيل مهمة الاشراف على البعثة التى تشكلت لهذا الغرض . ولم يعد عمل البعثة طوال اربعة اعوام على اليمن بنتائج ملموسة . الا ان الاميركان استطاعوا ان يخلقوا ضجة دعائية كبيرة حول نشاطهم «الخيرى» . وفى عام ١٩٣٠ زار كراين الملك ابن سعود وعرض عليه اجراء نفس العمل «النزيه» فى السعودية ، اى الشروع بالتنقيب عن المياه الباطنية فى الحجاز . وعهدت هذه المهمة ايضا الى تويتشيل . واستطاع هذا الجيولوجى الاميركى النبيه ان يحظى بثقة ابن سعود بعد ان قضى وقتا طويلا فى السعودية . وبناء على نصيحة تويتشيل

قرر الملك السعودى الاتصال بالاوساط البترولية الاميركية بغية اجراء التنقيب عن البترول فى القسم الشرقى من البلاد (٣٠) .

وانتهزت احدى اكبر الشركات البترولية الاحتكارية الاميركية ، وهى «ستاندرد اويل كومبانى اوف كاليفورنيا» الوضع الاقتصادى العصيب للغاية فى العربية السعودية فى مستهل الثلاثينات بسبب الازمة الاقتصادية والجدب وتقلص الحج الى درجة كبيرة ، فقدمت لهذه البلاد عدة قروض غير كبيرة ، وحصلت لقاء ذلك على امتياز نافع للغاية للتنقيب عن البترول واستخراجه . وبغية استثمار البترول حسب هذا الامتياز أسست هذه الشركة شركة تابعة لها ، وهى «كاليفورنيا ارابيان ستاندرد اويل كومبانى» التى سلمت فى عام ١٩٣٦ ٥٠٪ من أسهمها الى شركة اميركية ضخمة اخرى غير مساهمة فى «اتفاقية الخط الاحمر» وهى «تكساس اويل كومبانى» . وفى عام ١٩٣٩ عندما انبجس البترول فى اولى الآبار بمنطقة الدمام وقعت «كاليفورنيا ارابيان ستاندرد اويل كومبانى» اتفاقية امتياز اضافية مع ابن سعود . ومنذ ذلك الحين تجاوزت المساحة الاجمالية للاراضى التى يشملها الامتياز الاميركى مليون كيلومتر مربع . وفى عام ١٩٤٤ استبدل اسم الشركة باسم «ارابيان اميركان اويل كومبانى» («ارامكو») . ولا تزال الاحتكارات الاميركية تستثمر بترول العربية السعودية تحت هذا الاسم حتى اليوم .

وفى حزيران (يونيو) ١٩٣٣ حصلت «ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا» بالاشتراك مع «تكساسكو» على امتياز احتكارى للبترول فى جزر البحرين . وكانت مدة الامتياز غير ضئيلة ! ــ حتى عام ٢٠٢٤ . وبغية قهر مقاومة المستعمرين البريطانيين الذين إشتاطوا غضبا لكونهم يعتبرون البحرين ضيعة لهم سجل التوسعيون

الاميركان «شركة نفط البحرين» التى أسسوها للاستثمار حسب هذا الامتياز فى السجلات الرسمية فى ... كندا .

ولقد ذكرنا ان الكويت هى المنطقة الوحيدة المستثناة من «اتفاقية الخط الاحمر» . وفى عام ١٩٣٤ حصلت الشركة الاحتكارية البترولية الاميركية «غالف اويل كوربوريشن» و«انكلو بيرشن اويل كومبانى» (شركة النفط البريطانية حاليا) من امير الكويت على امتياز احتكارى للتنقيب عن البترول واستخراجه فى جميع اراضى المشيخة . وبغية استثمار الامتياز الذى يمتد اجله الى عام ٢٠٢٦ تشكلت على اساس التكافؤ «شركة نفط الكويت» العاملة حتى اليوم .

وهكذا استطاع الامبرياليون الاميركان حتى بداية الحرب العالمية الثانية ان يرسخوا اقدامهم فى اراضى العالم العربى عاملين بصورة مشتركة مع منافسيهم تارة ، وضد منافسيهم تارة اخرى ، فسيطروا على قسم كبير من افضل حقول البترول مستقبلا . وكانت اغلبية هذه الحقول آنذاك غير مستثمرة بعد ، ولكن الاساس قد ارسى لاحتكار البترول العربى فيما بعد من قبل الامبريالية الاميركية . وادى ذلك كله الى اشتداد التناقضات الانكلو اميركية بسبب العالم العربى . وبالتالى سعت الاوساط الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا حال نشوب الحرب العالمية الثانية الى الدفاع عن مواقعها فى العالم العربى ليس فقط دون هجوم الاعداء ـ المحور الالمانى الايطالى الفاشى ، بل ودون خطط حليفتها الرئيسية ـ الولايات المتحدة الاميركية ، تلك الخطط العدوانية التى لم تكن اقل خطرا من المحور .

وفى سنوات الحرب العالمية الثانية بذلت الاحتكارات البترولية الاميركية المتمتعة بدعم الحكومة الاميركية الى اقصى حد قصارى

جهدها لازاحة منافسيها البريطانيين من العالم العربى . وكانت الطرق التى استخدمتها متنوعة للغاية : انشاء القواعد العسكرية فى العربية السعودية وعمان والبلدان العربية الاخرى بحجة الدفاع عنها من خطر النازية ، وشمول العربية السعودية ، ثم بعض البلدان الاخرى ، بقانون الاعارة والتأجير (لاند ــ ليز) ، وتحويل مركز الشرق الاوسط للتموين الذى اسسه البريطانيون بغية تعزيز مواقعهم الاقتصادية الى مركز انكلو اميركى ، مما قوض جميع الخطط البريطانية على الفور ، وهلمجرا .

وأبدت الاوساط الحاكمة الاميركية والرئيس روزفلت شخصيا اهتماما خاصا بتعزيز النفوذ الاميركى فى شبه الجزيرة العربية وبتقوية المواقع الاميركية فى الصناعة البترولية فى البلدان العربية . وأثار ذلك استياء شديدا فى لندن . وفى عام ١٩٤٣ دعا الرئيس روزفلت ابن سعود لزيارة الولايات المتحدة الاميركية . فقررت الدبلوماسية البريطانية نسف هذه الزيارة . وتبين وثائق ارشيف الدولة فى بريطانيا ان الدبلوماسية البريطانية استخدمت ... الصهاينة لهذا الغرض . فقد استطاع البريطانيون ، عن طريق المنظمات الصهيونية البريطانية ، ان ينظموا احتجاجات للمنظمات الصهيونية الاميركية على زيارة ملك العربية السعودية المعروف بمعارضته للخطط الصهيونية ازاء فلسطين . وبعد ان عرف روزفلت بهذه الاحابيل التى اثارت الاستياء لديه ظل مصرا على الزيارة (٣١) . ولما كان عبد العزيز بن سعود عاجزا عن مغادرة البلاد لاسباب سياسية داخلية ، قام ابنه فيصل (ملك العربية السعودية السابق) بزيارة الولايات المتحدة الاميركية فى خريف ١٩٤٣ .

واشتد الصراع الانكلو اميركى من اجل السيطرة على البترول العربى فى اواخر الحرب العالمية الثانية خصوصا . فقد قلق شرشل

اشد القلق من الانباء التى افادت بأن الحكومة الاميركية تنوى توظيف اموال هائلة فى مد انابيب البترول فى شبه الجزيرة العربية وتوسيع حقول «ارامكو» البترولية والاشراف على الشركات الاخرى ، فوجه فى ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٤٤ الى روزفلت برقية لم يسبقهـــا مثيل . واشار شرشل فى هذه البرقية الى ان الاوساط البريطانية تخشى من «ان الولايات المتحدة الاميركية تريد ازاحة بريطانيا من المؤسسات البترولية فى الشرق الاوسط» . وردا على ذلـــك بعث روزفلت برقية جاء فيها ان الولايات المتحدة الاميركيـــة تخشى من ان بريطانيا تريد ازاحة اميركا من العربية السعودية (٣٢) .

ولما كان الصراع الانكلواميركى من اجل البترول يشتد باطراد اتخذ الطرفان كل الاجراءات لنسف مواقع بعضهمـــا البعض فى العالم العربى .

ولقد اشرنا اعلاه الى ان الاوساط الحاكمة البريطانية بدأت عشية الحرب العالمية الثانية تتراجع فى المسألة الفلسطينية عن الاعتماد الوحيد الجانـــب على الصهاينة وحاولت حل المسألـــة الفلسطينية عن طريق التواطؤ مع الاوساط الملكية فى البلـــدان العربية . فقد كانت تأمل عن طريق ذلك بتعزيز مواقعها امـــام هجوم النازيين الالمان والايطاليين من جهة ، وامام هجوم المنافسين الاميركان من جهة اخرى . وكانت اعمال الحكومة البريطانيـــة هذه التى تجلت فى تنفيذ خطة التحديد الكبير للهجرة اليهودية الى فلسطين منذ ايار (مايو) ١٩٣٩ قد اثارت استياء شديدا لدى الصهيونية العالمية . وفى سنوات الحرب العالمية الثانية اتخـــذ زعماء المنظمة الصهيونية العالمية قرارا خطيرا باستبدال سيدهم . ويعزى ذلك ليس فقط الى تغير تاكتيك بريطانيـــا فى الشرق الاوسط . فقد كان سببه ، بالدرجة الاولى ، التغير الشديـــد فى

تناسب القوى بين بريطانيا والولايات المتحدة الاميركيــة . ففى اواخر الحرب اصبحت الولايات المتحدة الاميركية اقوى دولة فى المعسكر الامبريالى ، بينما كان التاكتيك المحبب لدى الصهاينـــة دوما هو الاعتماد على الاقوى ، على المنتصر . ونقل الى الولايـــات المتحدة الاميركية مقر المنظمة الصهيونية العالمية . فاخذت هذه المنظمة تعلق كل آمالها على الامبريالية الاميركية التى كانت تعد آنذاك خطط السيطرة على العالم ، وفى ١١ ايار (مايو) ١٩٤٢ اقر ما سمى ببيان بلتمور فى المؤتمر الصهيونى الاستثنائى الذى جرى فى فندق « بلتمور » (نيويورك) . وتجـــدر الاشارة الى نقطتين فى هذا البيان : الاعتماد على الولايات المتحدة الاميركيـــة باعتبارها الحامى الرئيسى للحركة الصهيونية وسندها الاســـاسى والمطالبة بتحويل فلسطين الى دولة يهودية وتأمين الهجـــرة اليهودية الى فلسطين بلا حدود .

تلك هى الطريق التى قطعتها الصهيونية خلال ربع قرن ــ من الاعتماد على بريطانيا الى الاعتماد على الولايات المتحدة الاميركية ، من التماس تأسيس وطن يهودى فى فلسطين وبيان بلفور ١٩١٧ الى بيان بلتمور ١٩٤٢ . وكانت آمال وامانى الزعماء الصهانيـــة مبنية ليس فقط على مصالحهم هم ، بل وعلى مراعاة مصالـــح الاوساط الحاكمة الاميركية التى اخذت تتفق مع المصالح الصهيونية بصورة متزايدة منذ اواخر الحرب العالمية الثانية .

الامبريالية الاميركية والعالم العربى فى سنوات الحرب العالمية الثانية

يحاول المؤرخون الاميركان المعاصرون المتخصصون فى شؤون الشرق الاوسط ان يثبتوا بكل الوسائل ان الحكومة الاميركية فى عهد الرئيس روزفلت لم تكن تربطها اية صلة بالمنظمات الصهيونية

وانها كانت تسعى الى انتهاج سياسة الدعم الشامل للحركة التحررية العربية . الا ان الحقائق تدحض هذه المزاعم . فان وزير الخارجية الاميركى هيل يقول فى مذكراته ان البيت الابيض كان منذ عام ١٩٣٦ فى اشد القلق من الاشاعات القائلة بان الحكومة البريطانية تريد تقليص الهجرة اليهودية الى فلسطين . وفى ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٣٦ و٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٣٨ كلف السفير الاميركى فى لندن بينغام بان يحتج على اية محاولات لتحديد الهجرة اليهودية . وفى ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٨ اعرب السفير الاميركى الجديد فى لندن كندى (والد جون كندى) عن احتجاجه الشديد لوزير خارجية بريطانيا هاليفاكس على الخطط الجديدة للحكومة البريطانية بهذا الصدد . واتهم البيت الابيض الحكومة البريطانية بخرق بيان بلفور . وفى ١٤ تشرين الاول ١٩٣٨ نشر بيان ضاف لوزارة الخارجية الاميركية اشار الى ان جميع رؤساء الولايات المتحدة اعتبارا من الرئيس ولسن «ابدوا اهتماما كبيرا بتحقيق انشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين» (٣٣) . وهكذا ، ففى معمعان ازمة مونيخ ، حيث كانت للحكومة البريطانية مصلحة كبيرة خاصة فى الدعم الاميركى طالب البيت الابيض ووزارة الخارجية الاميركية بالحاح بمتابعة الهجرة اليهودية الى فلسطين على نطاق متزايد .

وفى ايار (مايو) ١٩٣٩ نشرت الحكومة البريطانية «كتابا ابيض» حول المسألة الفلسطينية نص على تحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين فى غضون السنوات الخمس التالية وحصرها بـ٧٥ الف شخص ، على ان تمنع الهجرة عمليا بعد ذلك . وفى ١٧ ايار (مايو) بدأ تطبيق هذه الخطة . وفى اليوم ذاته وجه روزفلت الى هيل مذكرة اشار فيها الى انه «تلقى قرار الحكومة البريطانية

هذا فى غاية الاستياء» . واكد الرئيس الاميركى بانه واثـق كـل الثقة من ان هذا القرار يتعارض ليس فقط مع بيان بلفور ، بل ومع الشروط التى سلمت عصبة الامم الى بريطانيا على اساسها حق الانتداب على فلسطين (٣٤) . وفى ٢٣ ايار (مايو) ١٩٣٩ قـدم كندى الى هاليفاكس مذكرة بهذا الخصوص .

وفى عام ١٩٤٠ زار وايزمان وزير الخارجية الاميركى هيـــل واجرى معه حوارا طويلا بشأن المسألة الفلسطينية . وقد اكتفى الوزير الاميركى الراحل فى مذكراته بمجرد الاشارة الى هذا اللقاء . ولكن نتائجه كانت كثيرة الدلالة . ويقول حافظ وهبة الذى شغل فى سنوات الحرب العالمية الثانية منصب سفير العربية السعودية فى لندن ان وايزمان اقترح بعد عودته من الولايات المتحـــدة الاميركية ان يقدم (بواسطة المستشرق والجاسوس البريطـــانى المعروف فيلبى الذى اعتنق الاسلام وسكن العربية السعودية منذ ١٩٢٥) ٢٠ مليون جنيه استرلينى الى ابن سعود لقاء الكف عن معارضة الخطط الصهيونية ازاء فلسطين . واقترح الصهاينة كذلك تمويل هجرة عرب فلسطين الى شبه الجزيرة العربية . ومقابـــل ذلك كان على بريطانيا ان تمنح الاستقلال لجميع بلدان شبـــه الجزيرة العربية . وقد رفض ابن سعود هذه الخطة (٣٥) . وفى ربيع ١٩٤١ تشكلت فى الولايات المتحدة الاميركية اللجنـــــة الفلسطينية الاميركية التى ضمت عددا من الوزراء ، بمن فيهم وزير الداخلية ايكيس . وفى ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢ ادلى هيل بتصريح رسمى بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لبيان بلفور واكد من جديد ان الحكومة الاميركية تؤيد نشاط الصهاينة فى فلسطين (٣٦) .

وقد اثار ذلك استنكارا شديدا فى العالم العربى . ففى اواخر ١٩٤٢ واوائل ١٩٤٣ اعربت حكومتـا العـراق ومصر عن احتجاجهما لدى وزارة الخارجية الاميركية على الدعم السافـر للصهاينة . وفى نيسان (ابريل) وايار (مايو) ١٩٤٣ بعث ابن سعود رسالتين الى روزفلت لفت فيهما انظاره الى ان نشـاط الصهاينة ينذر بعواقب خطيرة على بلدان الشرق الاوسط (٣٧) .

وفى هذه الظروف بدأت الدبلوماسية الاميركية لعبتها المزدوجة فى المسألة العربية-اليهودية ، تلك اللعبة التى لا تزال مستمرة حتى اليوم . ففى ٢٦ ايار ١٩٤٣ وجه روزفلت الى ابن سعود رسالة اعرب فيها عن تأييده لتسوية النزاع العربى-اليهودى بطريـق المفاوضات المباشرة بين الاطراف المعنية ، وقدم فى الوقت ذاته التزاما رسميا بأن تغيير الاوضاع فى فلسطين لن يتم بدون التشاور الشامل مع العرب . وفى حزيران (يونيو) بعث روزفلت رسالة ثانية الى ملك العربية السعودية ، وتضمنت هذه الرسالة ايضـا تأكيدات ووعودا مماثلة (٣٨) . وفى تموز (يوليو) ١٩٤٣ توجه الى ابن سعود بأمر من روزفلت المستعرب الاميركى ورجـل المخابرات الكولونيل غوسكينس الذى اقترح على ملك العربية السعودية الدخول فى مفاوضات مباشرة مع وايزمان حول شروط تسوية المشكلة الفلسطينية . ويبدو ان المقصود هو نفس المشروع الذى قدمه وايزمان بواسطة فيلبى فى عام ١٩٤٠ . وقد رفض ابن سعود هذا الاقتراح مرة اخرى .

وفى تلك الاثناء تابعت الدبلوماسية الاميركية الضغط عـلى بريطانيا مطالبة بالغاء منع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ذلـك المنع الذى كان ينبغى ان يصبح سارى المفعول اعتبارا مـن ٣١ آذار (مارس) ١٩٤٤ . وقد سويت هذه المشكلة طبقا لرغبات

الصهاينة . ففى آذار ١٩٤٣ تقابل روزفلت مع زعيمى الصهاينة الاميركان وايز وسيلفر اللذين ما لبثا ان اعلنا فى الصحف بأن الرئيس الاميركى لم يكن موافقا ابدا على كتاب ١٩٣٩ الابيض وانه «سعيد لأن ابواب فلسطين مفتوحة امام النازحين اليهود» (٣٩) . واثار ذلك موجة جديدة من الاستنكار فى البلدان العربية . وتواردت برقيات الاحتجاج من بغداد والقاهرة وصنعاء والرياض . وبغية تبرير نهج الحكومة الاميركية ازاء المسألة الفلسطينية كلفت وزارة الخارجية الاميركية ممثليها فى البلدان العربية بتوضيح تصريح الرئيس الاميركى الذى لم يستطع بالفعل «ان يوافق على الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩» لأن الحكومة البريطانية لم تتشاور معه بهذا الشأن ! (٤٠) .

وبقدر اقتراب نهاية الحرب العالمية الثانية اخذت الامبريالية الاميركية تنشط سياستها فى العالم العربى . وسعت الى تعزيز مواقعها فى سوريا ولبنان وحاولت بكل الوسائل نسف المواقع البريطانية فى العربية السعودية . وبلغ الامر حدا جعل الحكومة البريطانية ، نتيجة لالحاح من واشنطن ، تستدعى سفيرها فى العربية السعودية جوردان الذى اتهمه اسياد البترول الاميركان بممارسة «نشاط معاد لاميركا» .

وفى شباط (فبراير) ١٩٤٥ جرى لقاء بين روزفلت وابن سعود على متن الطراد الاميركى «كوينسى» . وخلال المفاوضات قدم الرئيس الاميركى مرة اخرى وعدا خطيا بأن الاوضاع فى فلسطين لن تتغير بدون موافقة العرب (٤١) . وحصل لقاء ذلك الوعد على جملة امتيازات اقتصادية . الا ان هذه الوعود سرعان ما نست . فالامبريالية الاميركية التى كانت تسعى الى السيطرة على العالم وتعد الخطط ضد الاتحاد السوفييتى

كانت بحاجة الى جهاز الصهاينة الدعائى والتجسسى لتعزيز مواقعها فى اوربا ولاستخدامه فى «الحرب الباردة» القادمة. وكان الصهاينة يتميزون باهمية كبيرة متميزة بالنسبة للاوساط البترولية الاميركية التى ظهرت لديها امبراطورية بترولية فى الشرق الاوسط خاصة بها. وكان يتعين حماية هذه الامبراطورية من الحركة التحررية للشعوب العربية ومن الهجمات المضادة التى يشنها المنافسون البريطانيون الذين ترسخت اقدامهم فى العالم العربى عند نهاية الحرب العالمية الثانية واعتمدوا على التحالف مع الاقطاعيين العرب.

وفى هذه الظروف اصبح العملاء الصهاينة فى الشرق الاوسط ورأس الجسر الفلسطينى للهجوم على العالم العربى سلاحا هاما فى ايدى الاحتكارات البترولية الاميركية. وليس من قبيل الصدفة ان ٦٨ عضوا فى مجلس الشيوخ الاميركى (من بين ٩٦) وجهوا الى روزفلت على اثر نشر بيان بلتمور رسالة خاصة طالبوا فيها بدعم الهجرة اليهودية الى فلسطين بكل الوسائل. وفى عام ١٩٤٤ جرى تكرار هذا المطلب. وبعد وفاة روزفلت وتزايد عدوانية السياسة الاميركية على النطاق العالمى، وخصوصا فى الشرق الاوسط، واشتداد الميول المعادية للاتحاد السوفييتى فى السياسة الخارجية الاميركية ساد لدى قيادة الحزب الديمقراطى الاميركى نهج التقارب مع الصهاينة ودعم خططهم الطامعة بفلسطين. ففى آب (اغسطس) ١٩٤٥ طالب ترومان الحكومة البريطانية بأن تسمح فورا بدخول ١٠٠ الف مهاجر يهودى الى فلسطين. وتحولت فلسطين والصهاينة الى ورقة رابحة فى النضال الذى شنته الامبريالية الاميركية من اجل السيطرة على العالم.

تلك هى الطريق التى قطعها التوسعيون الاميركان فى العالم العربى خلال قرن ونصف: من تجارة الافيون وتنظيم الغارات

القرصنية غير المنتظمـــة على طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش ، من عمليات القرصنة الاولى التى شنتها عمارة المتوسط الاميركية فى مستهل القرن التاسع عشر الى تاسيس الامبراطورية البترولية الهائلة فى الشرق الاوسط ومحاولات الاستعمار الجديـــد لاخضاع شعوب البلدان العربية . ولئن كان التوسعيون الاميركان قد استخدموا فى هجمات الغزو الاولى على الدول العربية فى شمال افريقيا السفن الشراعية وفصائل غير كبيرة من مشاة البحرية ، فانهم عند اواخر الحرب العالمية الثانية قد وجهوا الى البحـــر الابيض المتوسط حاملات الطائرات الهائلة وحاولوا تغطية العالم العربى بشبكة من القواعد العسكرية (واستخدموا على نطاق واسع الصهيونية ـ هذا السلاح المسموم ـ فى مكافحة الحركة التحرريـــة العربية) وعملوا على تحويل فلسطين الى قلعة اميركية-صهيونيـــة فى العالم العربى .

مراجع الفصل الثالث

١ – يفيموف ، بحوث فى تاريخ الولايات المتحدة الاميركية (١٤٩٢ – ١٨٧٠) ، موسكو ، ١٩٥٥ , ص ١٥٣ .

خالفين ، بداية التوسع الاميركى فى بلدان البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندى ، موسكو ، ١٩٥٨ , ص ٤٥–٥١ .

٢ – المصدر ذاته .

D. Finnie, Pioneers East Harward, 1967, pp. 45-81, 137-166.

٣ – ماركس وانجلس ، المؤلفات ، المجلد ٩ ، ص ٢٥٢ .

٤ – خالفين ومراديان ، اليانكى فى الشرق فى القرن التاسع عشر ، موسكو ، ١٩٦٦ ، ص ٨١ ، ١٥٩ , ١٦٩ . ١٧١ .

٥ – زوبوك ، السياسة التوسعية للولايات المتحدة الاميركية فى مستهل القرن العشرين ، موسكو ١٩٦٩ ، ص ٢٥٦ .

٦ – Ch. Hamilton, Americans and Oil in the Middle East, Houston, 1962, p. 11.

٧ – لويد جورج ، حقيقة معاهدات الصلح ، المجلد ٢ ، ص ٣٠٢ .

٨ – Encyclopedia of Zionism and Israel, v. I., New York, 1971, pp. 154-156.

٩ – Ibid.

١٠ – E. Dagdale, The Balfour Declaration, London, 1940, p. 27.

١١ – Ibid., K. Young, Balfour, London, 1963, p. 391.

١٢ـ L. Evans, United States Policy and the Partition of Turkey, Baltimore, 1965, pp. 36. 43-45.

١٣ـ لويد جورج ، حقيقة معاهدات الصلح ، ص ٣٠٢ .

١٤ـ J. Kimche, The Unromantics, The Great Powers and the Balfour Declaration, London, 1968, p. 45.

١٥ـ Ibid.

١٦ـ Ibid., p. 46.

١٧ـ «ارشيف الكولونيل هاوز» ، المجلد ٣ ، ـ موسكـــو ، ١٩٣٩ ، ص ٢٣٣ .

١٨ـ L. Evans, United States Policy, pp. 153-154.

١٩ـ «ارشيف الكولونيل هاوز» المجلد ٣ ، ص ٢٣٣ .

٢٠ـ «ارشيف الكولونيل هاوز» ، المجلد ٤ ، موسكـــو ، ١٩٤٤ ، ص ١٢٢ .

٢١ـ لينين ، المؤلفات ، المجلد ٢٧ ، ص ١٩٢ـ١٩٣ .

٢٢ـ لويد جورج ، حقيقة معاهدات الصلح ، ص ٣١٧ـ٣١٨ .

٢٣ـ Ch. Sykes, Gross Roads to Israel, London, 1965, p. 31.

٢٤ـ Documents on British Foreign Policy, v. IV, London, 1952, pp. 1276-1278.

٢٥ـ Encyclopedia of Zionism and Israel, v. I., p. 156.

٢٦ـ لويد جورج ، حقيقة معاهدات الصلح ، ص ٢٣١ـ٢٣٢ .

٢٧ـ Ch. Sykes, op. cit., p. 32, S. Hadawi, Ritter Harvert, New York, 1967, p. 57.

٢٨ـ Y. C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, v. II, New York, 1956, p. 127.

٢٩ـ Ibid., pp. 161-176.

٣٠ـ K. S. Twitchell, Saudi Arabia, Princeton, 1947, pp. 139-149.

٣١ — The Memoirs of Cordell Hull, v. II. New York, 1948, p. 1529.

٣٢ — Ibid.

٣٣ — Ibid., pp. 1529-1530.

٣٤ — Ibid.

٣٥ — بروشين ، العربية السعودية ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٩ .

٣٦ — The Memoirs of Cordell Hull, pp. 1531.

٣٧ — Ibid., pp. 1531-1532.

٣٨ — Ibid., pp. 1532-1533.

٣٩ — Ibid., p. 1536.

٤٠ — Ibid.

٤١ — بروشين ، العربية السعودية ، ص ١١٠ ، ١٢٩ .

الفصل الرابع

الاتحاد السوفييتي والعالم العربى

الصلات الروسية العربية

كانت الاوساط الاجتماعية التقدمية فى روسيا تكن مشاعر الاحترام العميق دوما للحضارة العربية الرائعة ، ومشاعر التعاطف الودى ازاء النضال التحررى للشعوب العربية . ويجد المرء فى مؤلفات بوشكين وليرمونتوف مواضيع عربية غير قليلة . وقد قدر بوشكين الحضارة العربية رفيع التقدير . وكتب غوغول عن العرب بشعور من الاحترام والتعاطف العميق . وكان غوغول قد زار بيروت فى عام ١٨٤٨ حيث حل ضيفا على صديقه الحميم بازيلى القنصل الروسى فى سوريا ولبنان الذى شغل هذا المنصب طوال سنين عديدة . ومن المعروف ان موسيقى «شهرزاد» الرائعة للملحن ريمسكى-كورساكوف اعتمدت لدرجة كبيرة على الانغام العربية . وألهمت الطبيعة العربية الخلابة الرسامين الروس المبدعين ايفانوف وماكوفسكى وآيفازوفسكى . وابدى الكاتب الروسى البارز والشخصية الاجتماعية تشيرنيشيفسكى اهتماما كبيرا بالحضارة العربية .

كان المستعرب والدبلوماسى البارز بازيلى قنصلا لروسيا فى بيروت طوال ١٥ عاما (اعتبارا من ١٨٣٩) . وقدم بازيلى فى كتابه المعروف «سوريا وفلسطين تحت الحكم التركى تاريخيا

وسياسيا» وصفا رائعا لتاريخ وثقافـــة هذين البلدين ، وكتب بمشاعر التعاطف العميقة عن النضال التحررى لشعبيهما . وبعد ان اطلع الكاتب الروسى العظيم غوغول على هذا الكتاب مخطوطـا اشاد باهميته وكتب عنه يقول : «الف بازيلى كتابا مدهشا للغاية سيعرض على اوربا الشرق بشكله الحقيقى . معارف ثرة واهتمام شديد . ولست اعرف كتابا آخر قدم للقارئ هذا القدر من معرفة احوال المنطقة» (١) . وقد صدرت الطبعة الاولى من الكتاب فى ١٨٦٢ ، بينما صدرت طبعـــة اخيرة له فى ١٩٦٢ . وكان اول قنصل روسى فى البصرة اداموف مستعربا شهيرا ، وهـــو مؤلف كتاب «العراق العربى» . ولاول مرة فى البحوث العلمية الروسية استعرض هذا الكتاب مجمل تاريخ الشعب العراقى بجوانبـــه المتعددة ، والقى الاضواء على قسط العراق فى الحضارة العالمية .

وفى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين درس الحضارة العربية وتاريخ العرب علماء روس يتمتعون بشهرة عالمية من امثال فرين وبولديريف وسافيليف وغريغوريف وسينكوفسكى ودورن وروزين وميدنيكوف وبارتولد وكريمسكى وكراتشكوفسكـــى . وتعاون معهم على نحو مثمر العالمان السوريان مرقص وعطايـا اللذان سكنا روسيا ، وكذلك الفلسطينى جوزيه وبخاصـــة العالم والاديب المصرى المعروف الشيخ طنطـاوى الذى مارس تدريس اللغة العربية منذ عام ١٨٤٠ فى قسم تدريس اللغات الشرقيـــة لدى وزارة الخارجية الروسية ، وشغل اعتبارا من ١٨٤٧ كرسى اللغة العربية فى جامعـــة بطرسبـــورغ . واكد الاكاديمـــى كراتشكوفسكى فى بحثه بعنوان «الشيخ طنطاوى ، استاذ جامعة سانت بطرسبورغ» ان الشيخ طنطاوى لم يكن عالمـــا كبيرا فحسب ، بل كان يمثل الادب العربى الحديث الذى شق طريقـــه

بصعوبة . ومما له دلالتــه ان الاكاديمى كراتشكوفسكى ، وهو صاحب العشرات من البحوث والمؤلفات الكبيرة ، اعتبر كتابه عن الشيخ طنطاوى واحدا من بحوثه الاربعة الاكثر اهمية من وجهة نظره . وساهمت مساهمة كبيرة فى دراسة الثقافة العربية ونشر الثقافة الروسية فى البلدان العربية الجمعية الفلسطينية الروسية التى تأسست فى ثمانينات القرن التاســع عشر ، وكان الاكاديمى كراتشكوفسكى نائبا لرئيسها طوال سنوات عديدة . وكانت هذه الجمعية القائمة حتى اليوم قد فتحت فى فلسطين ولبنان وسوريا فى اواخر القرن الماضى عدة مدارس لابناء العرب وكذلك مدرستين للمعلمين . وفى ١٩٠٦ـ١٩١١ عاش فى روسيا واحد من خريجى هذه المدارس ، نعنى الكاتب والناقد اللبنــانى المعروف ميخائيل نعيمة ، صاحب المذكرات الرائعة عن الصداقة الروسيةـالعربية . ومارس خريجو مدارس الجمعية الفلسطينية ترجمة مؤلفــات بوشكين وليون تولستوى وتشيخوف وتورغينيف وغوغــول وغوركى الى اللغة العربية . وقد الف المؤرخ والكاتب الشهير امين الريحانى ملحمته المعروفة «الثورة» بتأثير من الثورة الروسية فى ١٩٠٥ .

واعتبارا من القرن الثامن عشر تعززت وتوسعت الصــلات الاقتصادية بين روسيا والبلدان العربية ، وفى المقام الاول سوريا ومصر . وبعد افتتاح قناة السويس اتسع نطاق هذه الصلات . وفى عام ١٩٠١ فتحت شركة الملاحة والتجارة الروسية خطا ملاحيــا منتظما بين اوديسا وموانئ الخليج العربى . وبغية احتكار السيطرة على حوض الخليج العربى قرر المستعمرون البريطانيــون خنق المزاحمة الروسية فى التجارة والنقليات وهى فى مهدها . ولذلك خفضت شركات الملاحة البريطانية ، بعد وصول «كورنيلوف» ـ

اول سفينة لشركة الملاحة والتجارة الروسية الى البصرة فى عام ١٩٠١ ، اجرة النقل البحرى من موانئ الخليج العربى الى اوربا بنسبة ٧٠٪ . ومع ذلك استمرت التجارة الروسية العربية تتطور . وساعد على ذلك ان الحكومة القيصرية التى طبقت ، دون شك ، سياسة استعمارية ازاء بلدان الشرق الاوسط المجاورة لها ، لم تكن ، مع ذلك ، تبيت نوايا غزو الاراضى العربية . زد على ذلك ان الحكومة القيصرية كانت ، لجملة اسباب سياسية وستراتيجية ، قد عارضت لفترة طويلة الخطط البريطانية للاستيلاء على البلدان العربية . وفى عام ١٨٩٨ رفضت الحكومة القيصرية ، كما ذكرنا سابقا ، الاقتراح الرسمى الذى قدمته الحكومة البريطانية بشأن اقتسام الامبراطورية العثمانية ، ذلك الاقتراح الذى افترض ان يشمل نفوذ روسيا القسطنطينية ومضيقى البوسفور والدردنيل وآسيا الصغرى ، وان يشمل النفوذ البريطانى جميع البلدان العربية .

لينين وثورة اكتوبر والعالم العربى

بديهى ان الحكومة القيصرية لم تكن لتدافع عن حرية شعوب البلدان العربية واستقلالها . فالاوساط الاجتماعية الروسية التقدمية هى التى كانت تدافع عن هذه الحرية وهذا الاستقلال . وعلى تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين ، حيث انتقل مركز الحركة الثورية العالمية الى روسيا اصبح الذود عن شعوب الشرق ، بما فيها البلدان العربية ، قضية حيوية للبروليتاريا الروسية الاكثر ثورية فى العالم ، ولطليعتها الكفاحية حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى بزعامة لينين . وبعد ان طور لينين النظرية الماركسية تطويرا خلاقا حسب ظروف عصر الامبريالية وضع

برنامجا منطقيا قويما لتحرير الشعوب المضطهدة فى المستعمرات والبلدان التابعة . فقد ربط لاول مرة مسألة القوميات ومسألة المستعمرات بمسألة الاطاحة بالامبريالية واثبت ان مسألة القوميات ومسألة المستعمرات باعتبارهما جزء لا يتجزأ من المسألة العامة ، مسألة الثورة البروليتارية ودكتاتورية البروليتاريا .

وقد ابدى لينين اهتماما كبيرا ببلدان الشرق وبنضال التحرر الوطنى لمئات الملايين من سكان آسيا وافريقيا فتابع بكل اهتمام احداث الشرق الاوسط والوضع فى تركيا والبلدان العربية . واصبحت افكار لينين وآراؤه بشأن الحركة التحررية لهذه الشعوب والسياسة الاستعمارية للامبريالية فى الشرق الاوسط اساسا للبرنامج الذى وضعه حزب البلاشفة لأمد طويل قبل ان يتسلم السلطة ، برنامج السياسة الخارجية ، بما فيها الشرقية .

وابدى لينين اهتماما خاصا بدسائس الدول الامبريالية فى العالم العربى . فقد كتب باشد الاستنكار عن عدوان الامبرياليين الايطاليين على عرب طرابلس الغرب فى ١٩١١ . ونعت لينين هذه الحرب الاستعمارية بأنها «مجزرة بشرية متمدنة متقنة ، كانت تقتيلا للعرب بواسطة «أحدث» العتاد» . وتكهن زعيم البروليتاريا العالمية بأن العرب سيتابعون مقاومتهم الباسلة : «ان الحرب ستستمر فى الواقع بالرغم من «الصلح» لأن القبائل العربية الموجودة بعيدا عن الساحل فى داخل القارة الافريقة لن ترضخ . وسيستمرون زمنا طويلا فى «تمدينها» بالحراب والرصاص وحبال المشانق والنار واغتصاب النساء» (٢) .

وفى سنوات الحرب العالمية الاولى صدر كتاب لينين «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» . وهو الكتاب الذى تضمن عرضا لتعاليم لينين عن الامبريالية وحتمية انهيارها . وبغية تأليف

هذا الكتاب درس لينين عددا هائلا من المؤلفات والمقالات والادلة والمعطيات الاحصائية . وقد طبعت ملخصات هذه المصادر والكتب مع ملاحظات لينين وتحليلاته فى مجلد تحت عنوان «دفاتر حول الامبريالية» . ويساعد هذا المجلد فى تفهم مختبر الفكر اللينينى وادراك الاساس المتين الذى استندت عليه تعاليم لينين الخالدة عن الامبريالية . وقد لخصت فى «دفاتر حول الامبريالية» جميع الكتب المتوفرة آنذاك عن العالم العربى . فعندما راجع لينين «التقويم التاريخى» لشولتيس لعام ١٩٠٩ استنسخ كل ما يتعلق بمؤتمر «مصر الفتاة» المنعقد آنذاك فى جنيف ووضع خطوطا تحته . وبرز لينين خصوصا كلمة عضو البرلمان البريطانى كيتل الذى ذكر الحاضرين فى المؤتمر بالوحدة الاخوية بين مصر وايرلندة . وسجل لينين مقابل هذه الفقرة من الملخص «N B : **التآخى** مع ايرلندة» (٣) . واستنسخ لينين بالتفصيل فى «دفاتر حول الامبريالية» جميع الحقائق عن محاولات بريطانيا والمانيا وفرنسا للاستيلاء على البلدان والاراضى العربية . وابدى لينين اهتماما كبيرا بسعى الامبريالية البريطانية الى السيطرة على الكويت وامارات الخليج العربى الاخرى . وعدد لينين بالتفصيل فى «قائمة الغزوات والحروب الاستعمارية» التى وضعها هو جميع غزوات الامبرياليين الاستعمارية فى العالم العربى ، بما فى ذلك احتلال فرنسا لتونس فى ١٨٨١ واحتلال بريطانيا لمصر فى ١٨٨٢ ، والصراع الانكلو فرنسى من اجل السودان فى ١٨٩٨ والامتياز الالمانى لمد سكة حديد بغداد (باعتباره شكلا من اشكال الاستعمار) فى ١٩٠٢ـ١٩٠٣ ، واحتلال فرنسا لمراكش فى ١٩١١ واستيلاء ايطاليا على طرابلس الغرب فى ١٩١١ ، والاتفاقية الانكلو المانية حول تقسيم العراق الى مناطق نفوذ فى ١٩١٣ (٤) .

ولقد كشف لينين فى مؤلفه «الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية» عن خصائص السياسة الاستعمارية للامبريالية واوضح ان تكون الرأسمال المالى وتشكل الاحتكارات واثراء الدول الكبرى ــ كل ذلك نتيجة للاستغلال الذى لا رحمة فيه لملايين العبيد فى المستعمرات ، بمن فيهم العرب . واثبت لينين ان الصراع من اجل العالم العربى هو واحد من اهم اسباب اندلاع الحرب العالمية الاولى .

وقد ساعدت التعاليم اللينينية حول الامبريالية الثوريين والعلماء والدبلوماسيين والكتاب الاجتماعيين الروس فى وضع اولى البحوث الماركسية عن دور العالم العربى فى عصر الامبريالية . ومن بين هؤلاء بافلوفيتش وفوروفسكى وخصوصا روتشتين الثورى الروسى الذى اضطر فى عام ١٨٩٣ الى الهجرة الى لندن . واعتبارا من عام ١٩٠١ انخرط روتشتين فى صفوف حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى وفضح بنشاط السياسة الاستعمارية للامبريالية البريطانية . وبعد البحث والتنقيب طوال سنين اصدر روتشتين فى عام ١٩١٠ كتابه الشهير «تدمير مصر» باللغة الانجليزية ، وترجم الكتاب الى لغات عديدة ومنها العربية طبعا . وتتلخص اهمية كتاب روتشتين بانه قدم لاول مرة فى الدراسات العالمية تحليلا عميقا لطرق واساليب خنق الامبريالية لمصر سياسيا واقتصاديا . وبالاستناد الى مثال مصر اوضح روتشتين خصائص التوسع الاستعمارى وابتزاز الارباح فى عصر الامبريالية . وقد اصدر الكاتب الطبعة الروسية لكتابه فى عام ١٩٢٥ بعد ان اضاف اليه اربعة فصول واطلق عليه عنوان «غزو مصر واستعبادها» . ويشير المؤرخ المصرى ابراهيم عامر فى كتابه «الثورة الوطنية فى مصر» الصادر فى القاهرة عام ١٩٥٧ الى ان روتشتين يعتبر من ابرز

المؤرخين الذين فضحوا السياسة الاستعمارية البريطانية فى مصر . ومما يدل على الاهتمام الكبير بكتاب الاكاديمى روتشتين فى ايامنا هذه صدور طبعة جديدة منه فى موسكو عام ١٩٥٩ بعد وفاة المؤلف .

لقد اثرت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى تاثيرا هائلا على الشرق كله . وقد انتشرت فى الشرق على نطاق واسع المراسيم الاولى للسلطة السوفييتية ، ونشرت بأمر من لينين اتفاقية سايكس-بيكو والوثائق السرية الاخرى لدول الوفاق حول استعباد الشرق الاوسط . واثارت هذه الوثائق استنكارا شديدا لدى شعوب البلدان العربية لدسائس الامبرياليين . وكانت حقيقة بلاد السوفييت التى لم تكتف حكومتها بالمطالبة بوقف المجزرة الامبريالية ، بل وطالبت بتصفية الاستعمار ومدت يد الصداقة والاخوة الى شعوب الشرق ، قد وصلت الى جميع الاقطار العربية بالرغم من كل احابيل الامبرياليين . وعرف هذه الحقيقة العرب الذين جندوا اجباريا فى الجيش التركى المرابط فى القفقاس ، وعرفها الفلاحون المصريون والعراقيون الذين جندهم البريطانيون فى ما سمى بكتائب البناء وارسلوهم الى جبهات الحرب العالمية ، وعرفها الجزائريون المجندون فى الاسطول الفرنسى الذى دخل البحر الاسود .

وعلم العرب بوثائق السلطة السوفييتية ونداءاتها عن طريق الصحافة بالرغم من الرقابة الشديدة . فقد اعرب الحاكم البريطانى فى كركوك الميجر ستون عام ١٩١٩ عن قلقه الشديد حيث اعلن لرؤسائه ان «مبادئ البلشفية اصبحت معروفة ، ويا للأسف ، (عن طريق صحف كركوك خصوصا)» (٥) . وفى فترة انتفاضة الشعب المصرى الشهيرة عام ١٩١٩ عرفت القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والسويس ليس بقيام السلطة السوفييتية فى روسيا

فحسب ، بل وبسياستها فى مساعدة شعوب الشرق المستعبدة . فقد كتب مؤرخ هذه الانتفاضة الكاتب المصرى المعروف شهدى الشافعى يقول : ان بيانات الدولة السوفييتية الفتية كانت جديدة على البشرية كليا ... فلأول مرة فى التاريخ ظهرت دولة كبرى لا تريد استعمار احد ولا احتلال اراضى احد ولا استغلال احد ، دولة التزمت جانب جميع القوى التحررية فى العالم . وعرضت هذه الدولة الجديدة على سعد زغلول مساعدة بالاسلحة ، ولكنه خاف ورفض العرض (٦) .

ان افادة شهدى الشافعى تتميز بأهمية علمية وسياسية كبيرة . فمن المعروف لدى الجميع ان الدعاية الامبريالية والصهيونية تحاول بكل الوسائل ان تسيىء الى سمعة المساعدة النزيهة التى يقدمها الاتحاد السوفييتى حاليا الى مصر وسوريا بغية ازالة اثار العدوان الاسرائيلى لعام ١٩٦٧ . وتسعى هذا الدعاية الى ان « تبرهن » على ان الحكومة السوفييتية تستهدف اغراضا عسكرية-ستراتيجية بعيدة المدى . والحال فان لينين العظيم قدم قبل اكثر من نصف قرن مثل هذا العرض بتوفير السلاح لحزب الوفد بغية صد المستعمرين البريطانيين ...

وكانت سياسة السلم والصداقة مع شعوب الشرق ، تلك السياسة التى انتهجتها روسيا السوفييتية ، معروفة جيدا فى سوريا ايضا . ففى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠ كانت « لجنة توحيد العرب » التى تشكلت فى دمشق قد اكدت فى تقرير خاص ان حكومة لينين واصدقائه والثورة العظمى التى اعلنوها لتحرير الشرق من نير الطغاة الاوربيين يعتبرهما العرب قوة عظيمة قادرة على منحهم السعادة والرفاه . ان سعادة العالم العربى كله واستقراره يعتمدان على التحالف بين العرب والبلاشفة . فالبلاشفة يضحون

بالكثير لبلوغ هدفهم الجليل ، وهم يريدون للعرب ان يشهروا السلاح بوجه المستغلين . ولتحقيق ذلك يطلب العرب من البلاشفة السلاح والذخيرة الحربية (٧) .

فى ربيع ١٩٢٠ دحر الجيش الاحمر بدعم من شعوب مـا وراء القفقاس وما وراء قزوين قوات الحرس الابيض وقــوات المتدخلين البريطانيين . وفى ايار (مايو) ١٩٢٠ قام اسطول قزوين الاحمر بعملية انزال ناجحة فى منطقة مينـــاء انزيلى (بهلوى) الايرانى حيث تم دحر قوات المحتلين البريطانيين . وقد وجه ذلك ضربة شديدة الى سمعة الامبريالية البريطانية وبــدد الاسطورة القائلة بأن قواتها المسلحة لا تقهر ، تلك الاسطورة التى بثتهـا الدعاية البريطانية بكل الوسائل فى الشرق بأسره . وكان دحـر الدخلاء البريطانيين فى معركة انزيلى قد عجل بتحرير ايران مـن قوات الاحتلال البريطانية ، كما عجل باندلاع ثورة العشريـــن الوطنية التحررية فى العراق . فقد هب الوطنيون العراقيون للنضال ضد المستعمرين الانجليز فى حزيران (يونيو) ١٩٢٠ وهم يعلمون بأن من الممكن ضرب الامبرياليين الانجليز وان القوات البريطانية يمكن ان تقهر . ومع ان المستعمرين البريطانيين استطاعوا ان يخمدوا هذه الانتفاضة بالتعاون مع الرجعية الاقطاعية المحلية ، فقد ساعدت الانتفاضة ، دون شك ، فى اضعاف مواقع الامبرياليين البريطانيين لدرجة كبيرة فى العراق وفى العالم العربى بأسره . ومما له دلالته انه حتى الحكومة المؤقتة التى شكلها البريطانيون بعـد اخماد الانتفاضة من بين ممثلى الاقطاعيين العراقيين قد حاولت فى عام ١٩٢١ اقامة اتصال مع روسيا السوفييتيـــة . ففى صيف ١٩٢١ افاد القنصل السوفييتى فى ساريكاميش (تركيا) بأن ممثل هذه الحكومة صدقى وصل الى ساريكاميش بطريق غير مباشر ، عبر طهران ، وطرح مسألة اقامة العلاقات مع موسكو .

وفى شباط ــ آذار (فبراير ــ مارس) ١٩٢١ وقعت فى موسكو المعاهدات مع ايران وافغانستان وتركيا . واتسم ذلك بأهمية كبيرة جدا لجميع شعوب الشرق ، بما فيها الشعوب العربية . فلأول مرة فى تاريخ آسيا وقعت دولة اوربية معاهدات ودية متكافئة مع دول الشرق . وتأكدت فى التطبيق العملى الافكار اللينينية العظيمة ، افكار الصداقة مع شعوب الشرق . وتحولت ايران وافغانستان وتركيا التى كانت منطلقات للتدخل البريطانى ضد روسيا السوفييتية وفى الوقت نفسه حاجزا وقائيا حاول الامبرياليون البريطانيون ان يقيموه بين البلاشفة وبين شعوب البلدان العربية المستعبدة الى جيران واصدقاء لروسيا السوفييتية . زد على ذلك ان طريقا واسعة افتتحت عبر تركيا وايران للاتصالات والعلاقات بين روسيا السوفييتية والشعوب العربية ، وفى المقام الاول سوريا والعراق .

وقد ثارت ثائرة المستعمرين البريطانيين الذين اتخذوا اجراءات استثنائية . فقبل عام ١٩٢١ كانت المسائل المتعلقة بالسياسة البريطانية فى البلدان العربية موزعة على دوائر مختلفة ، ولكنها اعتبارا من كانون الثانى (يناير) ١٩٢١ تركزت فى دائرة واحدة هى وزارة المستعمرات . وعين وزيرا لهذه الوزارة ونستون شرشل الذى نعته لينين «بألدّ خصم للسلطة السوفييتية» . وكان اول اجراء اتخذه شرشل هو فتح قسم فى وزارة المستعمرات لشؤون الشرقين الادنى والاوسط ، اى لشؤون البلدان العربية ، واصبح لورنس فى الواقع مديرا لهذا القسم . وكان الاجراء الثانى الذى اتخذه شرشل هو عقد مؤتمر القاهرة فى آذار (مارس) ١٩٢١ حيث رسم الخط العام للسياسة الاستعمارية البريطانية فى العالم العربى لعشرات السنين . ولم يكن توقيع اولى المعاهدات

المتكافئة بين روسيا السوفييتية وتركيا وايران وافغانستان فى شباط - آذار (فبراير - مارس) ١٩٢١ وعقد مؤتمر القاهرة مجرد توافق زمنى . فاخفاق التدخل ضد منطقتى ما وراء القفقاس وما وراء قزوين السوفييتيتين وانهيار الحاجز الوقائى ونهوض الحركة التحررية فى العالم العربى - كل ذلك دفع المستعمرين البريطانيين الى تغيير تاكتيكهم بسرعة فى العالم العربى . ذلك هو مكنون مؤتمر القاهرة الذى عقده شرشل .

ولم يكتف المستعمرون البريطانيون بالاجراءات الدفاعية . وتدل الوثائق البريطانية التى عثر عليها مؤلف هذا الكتاب فى الارشيف الوطنى فى الهند على ان «الانتليجينس سيرفس» استخدمت الشرقين الادنى والاوسط بمثابة رأس جسر ارسلت منه مئات الجواسيس الى منطقتى ما وراء القفقاس وآسيا الوسطى السوفييتيتين ومولت حركة الباسماتشيين (حركة اعداء الثورة فى آسيا الوسطى السوفييتية) ودعمتها وبذلت قصارى جهدها للحيلولة دون رسم الحدود بين القوميات وتكوين الجمهوريات فى آسيا الوسطى وعرقلة انضمام جمهوريات الى الاتحاد السوفييتى . والى جانب اعمال التخريب استخدم المستعمرون البريطانيون على نطاق واسع سلاح الافتراء المسموم . وتدل وثائق الارشيف الوطنى فى الهند على انه تأسس فى بيشاور عام ١٩١٩ «مكتب مكافحة البلشفية» الذى كان من مهامه طبع الكراسات والمنشورات المزورة باللغات الشرقية ، وبالعربية قبل غيرها ، والزعم بأن هذه المطبوعات صادرة فى موسكو وباكو وطشقند وتضمين هذه المنشورات تهجما على الاسلام وعلى حضارة شعوب الشرق ، بما فيها الشعوب العربية . وبهذا الاسلوب كان الامبرياليون البريطانيون يأملون بدق اسفين بين شعوب روسيا السوفييتية والعرب .

وفى تشرين الاول (اكتوبـــر) ١٩٢٢ فرض المستعمـــرون البريطانيون معاهدة جائرة على العراق . وأثار ذلك استنكار الرأى العام العراقى . وكان المساهمون النشطاء فى ثورة العشرين المنفيون الى طهران قد شكلوا لجنة الاستقلال الوطنى . وفى ٣٠ تشريـن الثانى (نوفمبر) ١٩٢٢ بعث اعضاء اللجنة رسالـــة الى مفوض الشعب للشؤون الخارجية فى روسيا السوفييتية تشيتشيرين رجوه فيها ان ينقل الى مندوبى مؤتمر لوزان ان الشعب العراقى بأسره يستنكر التدخل فى شؤون العراق والتطاول على استقلاله . وانه لن يوافق ابدا على المعاهدة البريطانية العراقية فى ١٠ تشرين الاول ١٩٢٢ ، ... وهو يحتج على تدخل بريطانيا غير المشروع (٨) . وكانت اللجنة قد بعثت بهذه الرسالة الى تشيتشيرين بواسطة الممثلية السوفييتية فى طهران حيث شغل منصـــب السفير طوال عامين روتشتين الذى فضح كتابه «تدمير مصر» المستعمرين البريطانيين وجللهم بالعار . وكان مجرد تعيين صديق العرب الحميم والخبير الممتاز بالسياسة الاستعمارية البريطانيـــة فى مصر روتشتين فى منصبه بطهران يدل على ان لينين والبلاشفة لم ينسوا العرب حتى فى احلك الاوقات بالنسبة لروسيـــا السوفييتيـــة ابان التدخل الاجنبى والحرب الاهلية وتفشى المجاعة والاوبئة . ومما له دلالته كذلك ان الوطنيين العراقيين الذين قرروا تقديم الشكوى الى مؤتمر لوزان على المستعمرين البريطانيين قد كلفوا الحكومة السوفييتية بالذات لكى تنقل شكواهم الى مندوبى المؤتمر .

وليس اقل من ذلك دلالة طلب المساعـــدة من روسيـــا السوفييتية الذى قدمه زعيم السنوسيين الامير محمـــد ادريس السنوسى الذى اضطر الايطاليون الذين استولـــوا على طرابلس الغرب وعجزوا عن اخضاع برقة كلها الى الاعتراف به حاكمـــا

للبلاد (اعتبارا من ١٩٥٠ حتى ١٩٦٩ كان ادريس السنوسي ملكا لليبيا) . وفي عام ١٩٢٢ بعث ادريس السنوسي ممثلا عنه الى كمال اتاتورك ومعه رسالة طلب فيها المساعدة في تحرير عرب افريقيا . واشار السنوسي في رسالته هذه الى انه توجه بطلب المساعدة في الوقت ذاته من روسيا السوفييتية «التي تكافح الامبريالية» . وعلى اثر ذلك بعث السنوسي رسالة خاصة الى الحكومة السوفييتية عن طريق السفير السوفييتي في انقرة آرالوف . (٩)

وقد تشممت السفارة البريطانية في انقرة والمخابرات البريطانية في طهران نبا طلب العراقيين والسنوسيين الى روسيا السوفييتية . فتطايرات الى لندن برقيات مذعورة . وجاء في التقرير السري الذي اعده المشرفون على المخابرات البريطانية الى الحكومة البريطانية بعنوان «لينين ستراتيجي الثورة في الشرق» ان من اخطر الامور على السيطرة البريطانية في الشرق هو التحالف المحتمل بين البلاشفة والاتاتوركيين والعرب .

الاتصالات الاولى بين روسيا السوفييتية والبلدان العربية

في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ افتتح في لوزان المؤتمر الدولي المكرس لقضايا الشرق الاوسط . وفي تلك الاثناء كانت قوات تركيا الثورية المتمتعة بدعم نشيط من قبل روسيا السوفييتية قد دحرت المتدخلين البريطانيين واليونانيين وفسخت تركيا معاهدة صلح سيفر الجائرة التي فرضتها دول الوفاق عليها في عام ١٩٢٠ . وكان يتعين على «المنتصرين» المغلوبين ان يوقعوا مع تركيا المنتصرة ، ولكن الضعيفة ، معاهدة صلح جديدة . وكان

يجب ان يصبح الاتفاق بشأن نظام مضيقى البوسفور والدردنيل جزء لا يتجزأ من هذه المعاهدة . وخشية «التحالف بين البلاشفة والاتاتوركيين والعرب» (فلا بد لقضايا العالم العربى ان تطرح فى مؤتمر لوزان) بذل وزير الخارجية البريطانى اللورد كيرزون قصارى جهده لكى يحول دون اشتراك مندوبى روسيا السوفييتية فى مؤتمر لوزان بحجة كونها قد وقعت معاهدة مع تركيا فى ١٦ اذار (مارس) ١٩٢١ . وبعد عدة احتجاجات شديدة اللهجة من قبل الحكومة السوفييتية اضطر منظمو المؤتمر الى دعوة الوفد السوفييتى ، ولكن لمجرد مناقشة مسألة نظام المضيقين لا اكثر . وبديهى ان المندوبين السوفييت لم يكونوا ينوون الاقتصار على هذه المسألة ، لا سيما وان الاوساط الاجتماعية فى البلدان العربية وخصوصا لجنة الاستقلال الوطنى العراقية قد رجت الحكومة السوفييتية ان تحمى مصالحها فى المؤتمر .

وفى ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٢ نشر الوفد السوفييتى الذى وصل الى لوزان مذكرة بصدد المسألة الشرقية ايد فيها مطالب وفود الاوساط الوطنية العربية التى وصلت الى لوزان للدفاع عن مصالحها . ووجه الوفد السوفييتى فى هذه الوثيقة نقدا لاذعا لسياسة الدول الامبريالية التى استأثرت بحق الوصاية على شعوب العراق وسوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية «والتى تعتبرها غير قادرة على تسيير امورها بنفسها» (١٠) .

وفى فترة المؤتمر زار مرارا ممثلو المنظمات الوطنية فى مصر وسوريا وفلسطين والعراق والبلدان العربية الاخرى رئيس الوفد السوفييتى تشيتشيرين .

وفى ٣٠ كانون الثانى (يناير) ١٩٢٣ زار وفد من حزب الوفد تشيتشيرين وسلمه عدة وثائق عن السياسة الاستعمارية البريطانية

في مصر ، بما في ذلك «الكتاب الاسود» عن الاعمال الوحشية التي اقترفها الانجليز في مصر . وابدى تشيتشيرين اهتماما كبيرا بحياة ونضال شعوب البلدان العربية . وبالرغم من مشاغل تشيتشيرين وتدهور حالته الصحية فقد انهمك في دراسة اللغة العربية واتقنها الى درجة جعلته يقرأ الصحف المصرية (١١) .

ولعب دورا فعالا في اقامة الاتصالات مع وفود البلدان العربية في مؤتمر لوزان الامين العام للوفد السوفييتي والدبلوماسي والكاتب الاجتماعي البارز المتمسك بالمبادئ اللينينية فوروفسكي . وقد اشار تشيتشيرين الى «ان التقارب الناشئ بينه وبين ممثلي الشعوب والمنظمات الشرقية عاد علينا باعظم النفع في لوزان حيث تعين علينا ان نتقابل مع عدد كبير من وفود وممثلي مختلف المنظمات الوطنية الشرقية» . (١٢) وتبين الوثائق ان تشيتشيرين يعني في المقام الاول وفود البلدان العربية .

وكان الاتصال الوثيق بين الوفد السوفييتي ومندوبي البلدان العربية العديدين والدعم النشيط الذي ابداه تشيتشيرين وفوروفسكي للحركة التحررية العربية قد اثارا هياج المستعمرين وفي مقدمتهم كيرزون . وهناك ما يستدعي الاعتقاد بان سفر كيرزون والوفد البريطاني كله من لوزان في مطلع شباط (فبراير) ١٩٢٣ وفترة الانقطاع في اعمال المؤتمر بحوالي ثلاثة اشهر كان مبعثهما ليس فقط سعي الامبرياليين البريطانيين الى الضغط على تركيا ودق اسفين بينها وبين روسيا السوفييتية ، بل ورغبتهم في الاخلال بالاتصالات والعلاقات التي قامت خلال المؤتمر بين روسيا السوفييتية وممثلي البلدان العربية . وفي نيسان (ابريل) ١٩٢٣ استأنف مؤتمر لوزان اعماله . الا ان الوفد السوفييتي لم يتسلم الدعوة لحضوره ، بل ولم يتسلم اشعارا بذلك . وعندما وصل الى

لوزان فى مطلع ايار (مايو) ١٩٢٣ صديق العرب فوروفسكى الذى جوت بواسطته الاتصالات مع الوفود العربية حرم بصورة غير مشروعة من الحصانة الدبلوماسية وتعرض لملاحقـــة العنـاصر الرجعية وانتهى ذلك بمأساة فاجعة حيث قتل على ايدى هــذه العناصر فى ١٠ ايار ١٩٢٣ ...

والقى تشيتشيرين خطابا فى اجتماع تأبين فوروفسكـــى فى الاكاديمية الاشتراكية بموسكو فى ايار ١٩٢٣ وقال : «اجــرى الرفيق فوروفسكى فى الفترة بين الدورتين الاولى والثانية لمؤتمـر لوزان مفاوضات معقدة باكمل آداب اللياقة وباقصى حد من الحذر ولكن بنشاط كبير فى الوقت ذاتـــه ... وان صـــلات الرفيق فوروفسكى التى اقامها واستمر فى تطويرها خلال هذا العمـــل (المقصود صلات فوروفسكى مع الوفود الشرقية وفى مقدمتهـــا العربية ـ **ملاحظة المؤلف**) قدمت لنا خدمة هائلة ... وقد وصل الى لوزان عندما اعد كيرزون الهجوم وعندما كانت ثمة ادلة عــلى ظهور الانذار البريطانى المرتقب ... ومما لا شك فيـه ان تبعـــة مقتله الفاجع تقع على حكومات الدول الكبرى ...» (١٣) .

ولم يكن بمقدور احابيل كيرزون ولا فاجعة مقتل فوروفسكى وهو يؤدى عمله الكفاحى ان ترغم الدبلوماسية السوفييتية عـــلى التراجع عن مواقف دعم شعوب البلدان العربية . وفى ايار (مايو) ١٩٢٣، فى معمعان عمل الدورة الثانية لمؤتمر لوزان وجهت الحكومة السوفييتية الى حكومتى بريطانيا وفرنسا مذكرتين جاء فيهما : «ان فلسطين وسوريا واقعتان حاليا تحت ما يسمى بالانتداب . وان الحكومة الروسية لا تعترف بهذا الشكل الجديد للاوضاع الدولية» (١٤) . وبعد تحليل الوضـــع فى البلدان العربية الواقعة تحت الانتداب البريطانى والفرنسى اكدت الحكومة السوفييتية انعـــدام

ابسط الحقوق هنا للتطور التقدمي للشعوب العربية . ولذلك اعربت الحكومة السوفييتية في مذكرتيها عن موقفها السلبي المتشدد ازاء السياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا ، وبريطانيا على الخصوص ، في العالم العربي تحت راية عصبة الامم ونظام الانتداب السيئ الصيت الذي اقرته العصبة .

ان تعاطف شعوب الاتحاد السوفييتي مع حركة التحرر الوطني لشعوب البلدان العربية ومساعدتها في احراز هذه البلدان استقلالها لم يكونا محصورين في قاعات جلسات المؤتمرات العالمية وحدها . وكان ذلك امرا معروفا لجميع شعوب العالم العربي ، بما فيها شعبا مراكش ومصر . في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٤ اصيب بجرح مميت في القاهرة الحاكم العام للسودان والقائد العام للجيش المصري ممثل المستعمرين البريطانيين لي ستاك الذي تزعم العمليات الوحشية جدا لاخماد انتفاضة الشعب السوداني . وانتهز الامبرياليون البريطانيون ذلك فوجهوا الى الحكومة المصرية انذارا وقحا مهينا . وكان قبول هذا الانذار يؤدي الى اعادة تعزيز المواقع البريطانية التي تضعضعت في البلاد و«يهيئ الامكانية للاسد البريطاني ان يبتلع السودان نهائيا» على حد تعبير احدى الصحف القاهرية . واثار ذلك العمل اشد الاستنكار في الاتحاد السوفييتي ، حيث قامت حركة مؤيدة لمصر . ففي باكو تأسست لجنة «ارفعوا ايديكم عن مصر» . وتأسست لجان مماثلة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية . وجاء في القرار الذي اتخذته الادارة الروحية لمسلمي اوزبكستان في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٤: «لقد حمل الامبرياليون البريطانيون الى العالم الاسلامي الدماء والعداء والفاقة والجوع . البريطانيون جزارون سفاكو الدماء ، خونة وكذابون !... ان السلطة السوفييتية تحمل الحرية الى

الشرق ، بينما يحمل اليه امبرياليو بريطانيا الاستعباد» (١٥) . وتعهدت جمهوريتان من جمهوريات الشرق السوفييتى برعاية المعتقلين السياسيين المصريين الذين زج بهم المستعمرون البريطانيون فى السجون . وبالرغم من ضغط الامبرياليين البريطانيين والارهاب الوحشى الذى مارسوه فى القاهرة كلفت الحكومة المصرية سفيرها فى روما فى مطلع عام ١٩٢٥ بان يقابل سفير الاتحاد السوفييتى فى ايطاليا ويستوضح منه رد فعل الاتحاد السوفييتى على الاحداث المصرية . وتسلم السفير المصرى معلومات ضافية عن مشاعر التعاطف العميقة التى يكنها الاتحاد السوفييتى حكومة وشعبا للشعب المصرى .

وفى عام ١٩٢١ بدأت حركة جبارة مناوئة للامبريالية فى منطقة الريف الجبلية الداخلة انذاك ضمن ما يسمى بمراكش الاسبانية ، اى فى قسم من البلاد الذى احتلته اسبانيا نتيجة لاتفاقيات ١٩٠٤ ـ ١٩١١ الانكلوفرنسية الاسبانية . (فالامبرياليون البريطانيون الذين وافقوا فى عام ١٩٠٤ على احتلال فرنسا لمراكش مقابل اعتراف فرنسا بمصر «منطقة للسيطرة البريطانية» ، لم يكونوا مع ذلك راغبين فى السماح للمنافسين الفرنسيين باحتلال المناطق المراكشية الهامة من الناحية الستراتيجية والمتاخمة لمضيق جبل طارق . ولذلك تنازلت بريطانيا وتصدقت بهذا القسم من مراكش على اسبانيا الضعيفة) وفى اواخر ١٩٢١ تاسست فى جبال مراكش جمهورية الريف برئاسة عبد الكريم . ودحرت قوات الجمهورية الفتية المتدخلين الاسبانيين ، كما دحرت فى عام ١٩٢٤ القوات الاستعمارية الفرنسية التى وصلت لنجدة الاسبانيين بغية الحيلولة دون انتشار النضال التحررى وشموله المناطق الفرنسية من مراكش . وقد

حظى نضال المراكشيين البطولى بتعاطف عميق من قبل الرأى العام السوفييتى . فقد هبت الصحافة السوفييتية باسرها للدفاع عن جمهورية الريف . وفى عام ١٩٢٥ صدر فى موسكو كتاب غنى المضمون ساطع الاسلوب بعنوان «المتمدنون الاوربيون فى مراكش» . وشجب الكتاب بكل شدة دسائس الامبرياليين فى هذا البلد العربى العريق الذى حافظ على استقلاله فى فترة السيطرة العثمانية على الشعوب العربية طوال اربعة قرون . وتضمن الكتاب عرضا سياسيا-ستراتيجيا مفصلا لجمهورية الريف . واوضح لماذا عين المستعمرون الفرنسيون والاسبانيون الذين اتحدوا لخنق الشعب المراكشى قائدا عاما للجيش الذى خصص لقمع جمهورية الريف هو بيتان بالذات الذى اصبح فى فترة الاحتلال الهتلرى لفرنسا خائنا وجلادا لها . وكان مؤلف هذا الكتاب المفعم بمشاعر الاحترام والتعاطف والود للعرب هو ميخائيل فرونزه رئيس المجلس العسكرى الثورى للاتحاد السوفييتى ومفوض الشعب للشؤون العسكرية والبحرية . ففى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٢ — كانون الثانى (يناير) ١٩٢٣ ترأس فرونزه الذى كان انذاك قائدا لجميع القوات المسلحة فى اوكرانيا والقرم وفد جمهورية اوكرانيا الاشتراكية السوفييتية الى تركيا . ولم يكتف هناك بالعمل على تعزيز العلاقات السوفييتية-التركية الودية والمساعدة بالنصائح الرشيدة فى وضع خطط دحر المتدخلين البريطانيين واليونانيين على ايدى قوات الاتاتوركيين دحرا تاما ، بل اطلع كذلك على تاريخ النضال التحررى لشعوب البلدان العربية واوضاعه آنذاك . وقد ضمن فرونزه كتابه عن مراكش معارفه ومشاعره الودية . ويؤكد ذلك مرة اخرى ان المعاهدة السوفييتية التركية للصداقة والاخوة

المعقودة فى ١٦ اذار (مارس) ١٩٢١ قد ساعدت على اقامة الاتصالات والعلاقات الودية بين شعوب الاتحاد السوفييتى والبلدان العربية .

كفاح الكومنترن ضد الصهيونية

كان النضال الدائب الذى خاضه البلاشفة والدولة السوفييتية الفتية ضد دسائس الصهاينة وحماتهم الامبرياليين فى فلسطين مساعدة كبيرة للحركة التحررية لشعوب البلدان العربية فى السنوات الاولى بعد الحرب العالمية الاولى . ففى ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٩ نشرت المفوضية المؤقتة لشؤون اليهود القومية لدى مفوضية الشعب لشؤون القوميات فى جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية نداء خاصا اشار باستنكار شديد الى «ان الصهاينة يحاولون ازاحة العرب من فلسطين ويستعدون لانشاء دولة يهودية لهم هناك ... ان جماهير الشغيلة اليهود ترى فى جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية وطنها الاشتراكى الذى تدافع عنه فى الجبهات مع عمال روسيا وفلاحيها ضد امبريالية دول الوفاق وجميع عملائها ... اننا لسنا بحاجة الى اية بلدان اخرى . ولا نبدى اية حقوق قومية لامتلاك فلسطين . ونحن نعترف بهذه الحقوق كاملة لجماهير العرب والبدو الكادحة» (١٦) .

ولعب المؤتمر الثانى للاممية الشيوعية (الكومنترن) الذى عقد فى تموز (يوليو) ـ آب (اغسطس) ١٩٢٠ دورا كبيرا للغاية فى فضح دسائس الصهاينة فى فلسطين . ففى «المسودة الاولية للموضوعات فى المسالة القومية ومسالة المستعمرات» التى اعدها لينين فى حزيران (يونيو) ١٩٢٠ من اجل المؤتمر افرد البند

الحادى عشر لخصائص النضال الايديولوجى فى البلدان المستعمرة والتابعة . واشار القسم السادس من هذا البنـــد الى «ضرورة التوضيح والفضح الدائبين امام اوسع جماهير الشغيلة فى جميـــع البلدان ، وخصوصا المتخلفة ، للخداع الذى تمارسه الــــدول الامبريالية باستمرار والتى تنشئ بحجة تاسيس دول مستقلـــة سياسيا دولا تابعة لها كليا من النواحى الاقتصادية والماليـــــة والعسكرية» (١٧) .

وقد نوقشت هذه الوثيقة الهامة جدا تحت اشراف لينين فى اللجنة الخاصة بالمسالة القومية ومسالة المستعمرات والتى شكلها المؤتمر الثانى للكومنترن وفى جلستى المؤتمر العامتين الرابعة والخامسة . وقد طرحت هناك بكامل الحدة مسالة ضرورة فضح نظرية وتطبيق الصهيونية الرجعية ، وخصوصا تأسيس دولة صهيونية فى فلسطين تحت الحماية البريطانية ــ واشارت مندوبة المؤتمر فرومكينا الى «ان السكان اليهود فى فلسطين لا يشكلون اغلبية . فهنا اقليـــة تسعى الى اخضاع جماهير الشغيلة التى تشكل اغلبية البلاد لنير دول الوفاق . وعلينا ان نناضل باشد ما يمكن من الحزم ضـــد هذا النوع من الميول . فالصهاينة يسعون الى كسب انصار لهم فى جميع البلدان ، وهم يخدمون بدعايتهم وتحريضهم مصالح طبقة الرأسماليين . ويجب على الاممية الشيوعية ان تكافح هذه الحركة باشد ما يمكن من الحزم» (١٨) وحظى هذا الرأى بالتأييـــد فى خطب عدد من مندوبى المؤتمر . وتحدث ممثل وفد الحـــــزب الشيوعى (البلشفى) الروسى ميريجين بالتفصيل عن الصـــلات بين المنظمات الصهيونية الشوفينية وامبرياليى الوفاق الذين لهـــم مصلحة فى مذابح اليهود . واعلن ميريجين قائلا : «ان عملاء الوفاق الموجودين فى صفوف الجيوش المعادية للثورة فى روسيا واوكرانيا

وبولونيا والمجر وبلدان اخرى هم المساهمون المباشرون فى هذه المذابح ، الامر الذى تجلى بكامل الوضوح فى مذبحة القدس التى دبرها عملاء الحكومة البريطانية فى نيسان (أبريل) الماضى» (١٩). وهكذا افتضحت من منصة المؤتمر الثانى للاممية الشيوعية مزاعم الصهاينة والمستعمرين البريطانيين الذين ادعوا بان احداث نيسان ١٩٢٠ فى القدس حيث وقعت ضحايا بالارواح ، كانت نتيجة لدسائس زعماء المجلس العربى الفلسطينى المعادين للسامية . وفيما بعد استخدم الصهاينة احداث نيسان بمثابة «تبرير» للمذابح العديدة ضد العرب . والحال فقد اثبت الكومنترن ان المستعمرين البريطانيين هم الذين دبروا احداث نيسان .

وكان ممثل «بوالى-تسيون» أ . كون الذى حضر المؤتمر الثانى للكومنترن نتيجة للخداع (كانت لجنة الطعون فى المؤتمر قد رفضت منحه حق حضور المؤتمر لان «بوالى-تسيون» حزب قومى تعصبى ، وحذفت اسمه من قائمة الوفد النمساوى الذى تطفل عليه . ولكن أ . كون حصل على حق حضور المؤتمر كممثل للحزب الاشتراكى الفلسطينى) قد القى خطابا سعى فيه الى رفض تعديلات فرومكينا وميريجين . علما بانه حاول ان يمرر الاحكام «النظرية» التى سعى الصهاينة ويسعون بواسطتها الى تبرير نشاطهم العدوانى فى فلسطين . وبذل كون جهده «للبرهنة» على ان نضال شعوب العراق وسوريا وشبه الجزيرة العربية نضال دينى غير موجه ضد الامبريالية ، وان زعماء الحركة التحررية يعملون ، على حد زعمه ، لكى يعززوا سيطرة الاقطاعيين هناك . اما اهداف الصهاينة ، كما اعلن كون ، فهى تتلخص فى العمل ، عن طريق الهجرة الواسعة وانشاء المستوطنات الزراعية والمؤسسات الصناعية فى فلسطين ، على تكوين بروليتاريا صناعية وزراعية يهودية تتزعم فيما بعد نضال الفلاحين العرب ضد الاقطاعيين والامبرياليين (٢٠) .

وقد اثار خطاب كون الذى تضمن دفاعا واضحا عن الصهيونية اشد الاستنكار لدى المندوبين . فحـرم كـون من حق الكلام . وفضح مندوبو المؤتمر الطرق الرذيلة التى استخدمها كون لكى يحضر جلسة الكومنترن واثبتوا بصـورة لا تدحض صلة حزبـه «بوالى-تسيون» بالاممية الثانية المنحلة (٢١) .

وفى ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٢٠ اقر مؤتمر الكومنترن الثانى فى جلسته العامة الخامسة (بامتناع ثلاثة مندوبين عن التصويت) الموضوعات اللينينية حول المسالة القومية ومسالة المستعمرات واضيف الى القسم السادس من البند الحادى عشر ما يلى : «والدليل الواضح على خداع جماهير شغيلة الامة المضطهدة بالجهود المشتركة لامبريالية دول الوفاق وبرجوازية هذه الامة يتجلى فى عملية الصهاينة بشأن فلسطين ، كمـا يتجلى فى الصهيونية عموما التى تقدم الى الاستغلال البريطانى بحجة تأسيس دولة يهودية فى فلسطين قربانا هو السكان العرب الكادحون فى فلسطين حيث يشكل الشغيلة اليهود مجرد اقلية ضئيلة» (٢٢) .

وهكذا فضح المؤتمر الثانى للكومنترن بقيادة لينين فضحا تاما الجوهر الاستعمارى الاستغلالى «لعملية الصهاينة بشأن فلسطين» واثبت بان المقصود لم يكن مجرد «وطن يهودى» متواضع ، كما حاولت ان تصوره الدعاية البريطانية ، بل تأسيس دولة صهيونية فى قلب العالم العربى على اساس استغـلال الشعب العربـى واضطهاده . وهكذا قدم لينين والبلاشفة والكومنترن منذ عـام ١٩٢٠ سلاحا نظريا فعالا للقوى التقدمية فى العالم العربى بغية مكافحة الصهيونية والامبريالية . وفى ٣٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٢ نشر الوفد السوفييتى فى مؤتمر لوزان مذكرة بشأن المسألة الشرقية طالبت بالغاء نظام الانتداب ، بما فيه ، طبعا ، الانتداب البريطانى على فلسطين العربية .

الاتحاد السوفييتى والعربية السعودية

فى اواسط العشرينات اخذت تقام اولى الاتصالات بين روسيا السوفييتية والبلدان العربية على النطاق الحكومى . وفى عام ١٩٢٤ تكون وضع معقد فى شبه الجزيرة العربية ، حيث تأزمت العلاقات لدرجة كبيرة بين شريف مكة الحسين الذى اعلن نفسه ملكا للحجاز وبين حاكم نجد ابن سعود . وكان للبريطانيين ، ولا بد ، ضلع فى ذلك . ففى فترة معينة اخذت الدبلوماسية البريطانية التى وعدت ابان الحرب العالمية الاولى بالاعتراف بالحسين ملكا لدولة عربية موحدة فى آسيا تحرض ابن سعود للحرب ضد الحسين . وفى فترة مؤتمر لوزان كان قد جرى لقاء بين تشيتشيرين وبين الممثل الرسمى للحجاز الذى اعلن عن رغبة الحسين فى اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى واكد فى الوقت ذاته ان الحسين يريد ان يضطلع بدور زعيم العرب جميعا . ويتسم باهمية كبيرة جواب مفوض الشعب للشئون الخارجية السوفييتى . فبعد ان اعرب تشيتشيرين عن موافقته من حيث المبدأ على اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الحجاز اعلن قائلا : «اننا نتعاطف جدا مع توحيد الشعب العربى ، ولكننا لا نستطيع ان نتدخل فى مسألة ما اذا كان هذا التوحيد مرغوبا فيه بشكل اتحاد تحت زعامة الحسين او بشكل آخر ما . فذلك امر يعود للشعب العربى نفسه» (٢٣) . وجوابا على ذلك اكد مندوب الحجاز ان الحسين يصر على الاعتراف به رئيسا «للحكومة الهاشمية» العربية . وكان من رأى تشيتشيرين ان يستوضح وجهة نظر ممثلى البلدان والمنظمات العربية الاخرى . وعندما غادر رئيس الوفد السوفييتى لوزان فى شباط (فبراير) ١٩٢٣ كلف فوروفسكى بان يستوضح من ممثلى

سوريا وفلسطين والبلدان العربية الاخرى موقفهم من نية الحسين ومن فكرة «الحكومة الهاشمية» عموما . وكان على فوروفسكى ، فى روما ثم فى لوزان من جديد ، ان يجرى مباحثات مع المنظمات العربية العديدة بغية الاستيضاح بشان هذه المسالة وكذلك المسائل الاخرى الهامة جدا بالنسبة للعرب وللاتحاد السوفييتي . وكان يتعين على فوروفسكى كذلك ان يتابع المباحثات بشأن امكانية اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الحجاز . ولكنه لم يستطع ان يسير حتى النهاية فى هذه المباحثات الهامة جدا للعالم العربى ، فقد قتل فى ١٠ ايار (مايو) ١٩٢٣ .

فى نيسان (ابريل) ١٩٢٤ اقيمت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي والحجاز . وتسلم اول ممثل سوفييتي فى الحجاز حكيموف منصب مندوب دبلوماسي وقنصل عام . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ تنازل الحسين عن العرش لابنه على تحت ضغط بريطانيا . وفى الوقت ذاته اشتدت العمليات الحربية بين قوات على وفصائل ابن سعود . وبالرغم من ان انطباعا تكون فى اواخر ١٩٢٤ ومطلع ١٩٢٥ وكأن الدبلوماسية البريطانية تؤيد ابن سعود ، الا ان المشرفين على السياسة الخارجية السوفييتية استطاعوا ان يقيموا الاحداث الجارية فى شبه الجزيرة العربية بصواب وبعد نظر . فقد جاء فى تقرير تشيتشيرين عن حديثه مع السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية برتيلو : «قلت لبرتيلو ان ابن سعود يضطلع بصورة متزايدة بدور الموحد والمنظم والمجدد للجزيرة العربية . فقال برتيلو ان ابن سعود واقع فى ايدى بريطانيا كليا . واجبت بأن ذلك غير صحيح ، لان بريطانيا تنتهج فى الجزيرة العربية خمس سياسات فى وقت معا ، وهى تؤيد ابن سعود ، كما تؤيد جميع منافسيه . تنمو بشخص ابن سعود قوة جديدة غير

ملائمة لبريطانيا من حيث الجوهر ، لان الجزيرة العربية الجديدة الموحدة المنظمة تبنى بالتدريج ... وتتطور العلاقات الودية بيننا وبينها ، ونحن واثقون بان الجزيرة العربية الجديدة ستصبح بالتدريج بلدا صديقا لنا» (٢٤) . وحتى ايلول (سبتمبر) ١٩٢٥ اصبح واضحا ان ابن سعود هو المنتصر فى النزاع بينه وبين على . وبما ان ابن سعود صار اكثر استقلالا ، فقد اثار ذلك استياء كبيرا لدى الاوساط الحاكمة فى بريطانيا . وبغية الاساءة الى سمعة ابن سعود فى البلدان الاسلامية بثت وكالة رويتر فى ايلول ١٩٢٥ فى آسيا وافريقيا نبأ ملفقا عن التدمير الذى زعمت الوكالة بان قوات ابن سعود مارسته اثناء احتلال مكة والمدينة . وقررت الحكومة السوفييتية مساعدة ابن سعود فى دحض هذا الافتراء الخطر بالنسبة له . فكتب تشيتشيرين فى رسالة الى السفير السوفييتى فى طهران : «ان احدى وسائل الضغط على ابن سعود تلك الحملة التى تشنها بريطانيا حاليا فى البلدان الاسلامية على الوهابيين بسبب التدمير الذى زعمت بريطانيا بان الوهابيين مارسوه فى مكة والمدينة . وبغية عزل ابن سعود وحرمانه من اى دعم فى الهند ومصر والمناطق الواقعة تحت الانتداب يشجع العملاء البريطانيون تعصب الجماهير الاسلامية ضد الوهابيين بغية اضعاف ابن سعود وارغامه على الاتفاق مع الحجاز والموافقة على المقترحات البريطانية» (٢٥) . وكلف ممثل الاتحاد السوفييتى فى ايران بان يدحض هذه المزاعم الافترائية ويساعد ، بالتالى ، على تعزيز سمعة ابن سعود فى الشرق . وهكذا استخدمت الحكومة السوفييتية العلاقات الودية مع تركيا وايران ليس فقط لاقامة الاتصالات مع العرب عن طريق انقرة وطهران ، بل ولتقديم المساعدة الملموسة لهم .

وعلى اثر دخول قوات ابن سعود الى جدة اتخذ لنفسه في شباط (فبراير) ١٩٢٦ لقب ملك الحجاز وسلطان نجد وتوابعها (فيما بعد المملكة العربية السعودية) . وفي ١٦ شباط ١٩٢٦ وجه حكيموف المندوب الدبلوماسي والقنصل العام السوفييتي في جدة مذكرة الى ابن سعود تضمنت الاعتراف بلقبه وبالدولة الجديدة . وكتب حكيموف في تقريره الى موسكو : «لقد عزز هذا الاعتراف مواقع ابن سعود في الجزيرة العربية لانه اصبح ، كما قيل لي في حاشية الملك ، سببا دفع بريطانيا والدول الاخرى للاعتراف بابن سعود . ويمكن اعتبار اعتراف بريطانيا الذي اتسم بطابع الاستعجال لدرجة كبيرة امرا اضطراريا ...» (٢٦) .

ان العلاقات الودية التي قامت بين الاتحاد السوفييتي وابن سعود قد تجلت ، فيما تجلت ، في تأييد الوفد السوفييتي لممثليه في المؤتمر الصحي الدولي الذي عقد في باريس في ايار (مايو) ١٩٢٦ . فقد حاولت الدبلوماسية البريطانية هناك ان تدرج في الاتفاقية الصحية العالمية عدة مواد تسيء الى سيادة العربية السعودية . وقد ساعد دعم الوفد السوفييتي العربية السعودية في الدفاع عن موقفها (٢٧) . وكان مقررا في عام ١٩٢٦ ان يقوم الامير فيصل آل سعود والي الحجاز بزيارة الى الاتحاد السوفييتي . ولكنه اصيب بمرض اضطره الى قطع جولته في اوربا . وفي ايار (مايو) ١٩٢٧ وجهت الحكومة السوفييتية دعوة جديدة الى فيصل اعرب فيها رئيس اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتي ميخائيل كالينين عن امله بان زيارة فيصل ستهيئ للحكومة السوفييتية امكانية عرض «مشاعر الصداقة والتعاطف التي تكنها شعوب الاتحاد السوفييتي للشعب العربي في طموحه الى الوحدة الوطنية والتقدم الاقتصادي» (٢٨) . وقال ابن سعود في رسالته الجوابية انه

سيتخذ كل الاجراءات لكى تتـــم زيارة فيصـــل باقرب وقت ممكن .

الا ان الزيارة لم تتم الا بعد خمس سنـــوات فالدبلوماسية والمخابرات البريطانية بذلت قصارى جهدها لنسف الاتصالات بين الاتحاد السوفييتى وبلدان شبه الجزيرة العربية . ومن الادلة على ذلك الوثائق والمواد المحفوظة فى الارشيف الوطنى فى الهند . (ظلت الممثليات العسكرية والدبلوماسية ودوائر المخابرات البريطانية فى الجزيرة العربية وحوض الخليج العربى خاضعة للادارة الاستعمارية البريطانية فى الهند حتى عام ١٩٤٧) ويتجلى رعب المستعمـــرين البريطانيين من الاتصالات السوفييتية العربية فى ملفة مثيرة بعنوان «مواد عن البلشفية فى عدن والجزيرة العربية» . وتعود وثائق هذه الملفة الى الفترة ١٩١٩ـ١٩٢٣ حيث كان سكان شبه الجزيـــرة العربية ، ولا شك ، لا يعرفون الا القليل جدا ليس عن البلاشفـة وحسب ، بل وحتى عن روسيا السوفييتية نفسها . ومع ذلك فقد كان جواسيس الانتيليجنس سيرفس يبحثون عن المفوضين البلاشفة المرعبين فى جبـــال اليمن وصحراء الربع الخالى ! وتفيد مـــواد الارشيف الوطنى فى الهند انه تاسست فى لندن عام ١٩٢٧ «لجنة شؤون الاضطرابـــات فى الشرق» . وابدى موظفو اللجنـــة التى هى بمثابة فرع للدوائر البريطانية الخاصة اهتماما كبيرا بدراسة الحركة التحررية الوطنية فى البلدان العربية ، وكانوا يؤكدون باصرار فى التقارير المرفوعـــة الى كبار المسؤولين فى وزارتى المستعمرات والخارجية ان جميع الحركات المعادية للامبريالية فى العالم العربى لها سبب واحد ومصدر واحد هو «يد موسكو» الموجودة فى كل مكان .

وفي عام ١٩٢٧ ذاته انجز الدبلوماسيون ورجال المخابرات البريطانيون وضع ملفة ضخمة (يتجاوز عدد صفحاتها ٤٠٠) بعنوان «الدعاية السوفييتية واجراءات مكافحتها» . وابدى واضعو الملفة اهتماما خاصا بدراسة الاسباب التي ادت الى تعاظم نفوذ وسمعة الاتحاد السوفييتي في بلدان العالم العربي . وتتضمن الملفة مذكرات وتقارير فيها مقترحات محددة لمكافحة النفوذ السوفييتي في البلدان العربية . وابدى واضعو المذكرات والتقارير اهتماما خاصا بنشر الاشاعات الافترائية حول ملاحقة الدين الاسلامي في الاتحاد السوفييتي ومنع طبع اثار الثقافة الشرقية ، بما فيها العربية ، في الاتحاد السوفييتي وهلمجرا .

وفي عام ١٩٢٩ اعد رجال المخابرات والدبلوماسيون البريطانيون ملفة اخرى تناولت هذه المرة العلاقات السوفييتية السعودية ، وهي بعنوان «الدعاية الروسية والحج» . وتضمنت هذه الملفة تقارير من الجواسيس البريطانيين في جدة ، وحتى في مكة والمدينة . واتضح ان الامبرياليين البريطانيين الذين اتهموا الاتحاد السوفييتي بالنشاط المعادي للاسلام قد طوقوا بالجواسيس كل حاج قادم من الاتحاد السوفييتي . وكان هؤلاء الجواسيس ينصتون الى الاحاديث بين المسلمين السوفييت ومسلمي البلدان الاخرى ويبذلون جهدهم لاثارة النزاعات بينهم وهلمجرا .

بديهي ان نشاط الجواسيس البريطانيين ضد الاتحاد السوفييتي لم يقتصر على ذلك . وعندما طرح في اواخر العشرينات اقتراح بعقد معاهدة سوفييتية ـ سعودية للصداقة ورفع مرتبة الممثلين الدبلوماسيين في كلا البلدين الى مستوى للسفراء ، مما كان يعني الاستقلال التام للعربية السعودية في ميدان العلاقات الخارجية ، اضطر ابن سعود ، مع الاسف ، الى رفض هذا الاقتراح . ففي ايار

(مايو) ١٩٢٨ قال ابن سعود لحكيموف ان مجرد بدء المباحثات مع الاتحاد السوفييتى بشأن المعاهدة يعنى تحديا مباشرا للانجليز ويعقد لدرجة كبيرة وضعه المعقد اصلا (٢٩) .

وبذل الجواسيس البريطانيون قصارى جهدهم كذلك للحيلولة دون تطور العلاقات الاقتصادية بين الاتحاد السوفييتى والعربية السعوذية . فبعد ان ارسل الاتحاد السوفييتى فى ١٩٢٦ـ١٩٢٧ الى الحجاز لاغراض البيع كمية كبيرة من الاقمشة والسكر والدقيق ومشتقات البترول ، ونظم فى جدة معرضا لنماذج سلع الصناعة السوفييتية اتخذت الدبلوماسية البريطانية اجراءات مضادة نشيطة . وكان تطور العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفييتى وبلدان شبه الجزيرة العربية قد حرم بريطانيا من سلاح فعال للغاية ، نعنى احتكار العلاقات التجارية لهذه البلدان مع العالم الخارجى ايضا ، ذلك الاحتكار الذى استخدم طوال عقود من السنين للضغط السياسى عليها . ولذلك شنت الصحافة المحافظة فى بريطانيا عام ١٩٢٩ حملة على التجارة بين الاتحاد السوفييتى وجزيرة العرب . واتخذت اجراءات لتنظيم مقاطعة البضائع السوفييتية فى جدة . فقد زار ضباط بريطانيون بملابس مدنية الشخصيات العربية واقنعوها بالحاح بوقف استيراد البضائع السوفييتية . وفى تموز (يوليو) ١٩٣١ اعلن ابن سعود بصراحة للسفير السوفييتى الجديد تورياكولوف ان عقد اتفاقية اقتصادية ، بله سياسية ، مع الاتحاد السوفييتى يثير الاستياء فى العالم الخارجى (٣٠) .

ومع ذلك استمرت العلاقات تتطور بين كلا البلدين . ففى عام ١٩٣٢ (من ٢٨ ايار (مايو) الى ٧ حزيران (يونيو)) قام وزير الخارجية الامير فيصل (ملك العربية السعودية السابق) بزيارة الى الاتحاد السوفييتى . واطلع الوفد الذى ترأسه على المعامل والمصانع

والمؤسسات الثقافيـــة وزار الاكاديميات العسكريـــة والوحدات العسكرية (كان فيصل فى الوقت ذاته يضطلع بمهام وزير الحربية) . وقام الوفد بزيارة الى لينينغراد . وتهيأت لفيصل واعضاء الوفد الآخرين امكانية التأكد من ان شراء الآلات الزراعية اللازمة لبلادهم من الاتحاد السوفييتى ارخص بكثير من شرائها من بريطانيا . وقال كالينين فى مأدبة الفطور تكريما لفيصل : «اننى ارحب بكم بارتياح كبير فى عاصمة الاتحاد السوفييتى لانكم تمثلون حكومة شعب عربى استطاع بعد الحرب العالمية وبفضل سياسة زعمائه الباسلة البعيدة النظر ان يحرز ويعزز استقلاله التام الذى هو المقدمـــة الضرورية للتطور الاقتصادى والثقافى للبلد» (٣١) . وليس من قبيل الصدفة طبعا ان اشار رئيس الدولة السوفييتية الى الاستقلال التام للعربية السعودية فى وقت بذل فيه المستعمرون البريطانيون قصارى جهدهم لكى ينسفوا وضـــع البلاد من الداخل وعلى الصعيد الدولى . وقال الامير فيصل فى كلمته الجوابية : يسعدنى ان ازور الاتحاد السوفييتى الذى تربطه مع العربية السعوديـــة اوثق عرى الصداقة ... وقد استمعت بسرور عظيم الى قولكم بانكم تتابعون باهتمـــــام كبير التقدم الاقتصادى والثقافى لبلادنـــا وارجوكم ان تبدوا مزيدا من الاهتمام بنا فى المستقبل ، مما يعود بالمنفعة على كلا الطرفين (٣٢) . واعلن نائب وزير الخارجية فؤاد حمزة الذى رافق فيصل فى حديث له مع نائب مفوض الشعب للتجارة الخارجية فى الاتحاد السوفييتى ايليافا فقال ان جلالة الملك يقدر رفيع التقدير الدعم المعنوى من الاتحـــاد السوفييتى وهو يعلم ان الاتحاد السوفييتى صديق الشرق . واكد حمزة كذلك ان تأييد الاتحـــاد السوفييتى يتميز باهمية كبيرة للغاية لتوطيد استقلال العربية السعودية (٣٣).

ولكنه لم يحدث ، مع الاسف ، تحسن لاحق فى العلاقات بين البلدين . وتتضمن البحوث الغربية بهذا الخصوص اراء لا اساس لها من الصحة . وتزعم هذه الاراء ان الاتحاد السوفييتى لم يبد اهتماما بذلك . وتثير الاهتمام الحقائق الواردة فى الملفة الخاصة «العلاقات التجارية السوفييتية السعودية لعام ١٩٣٥» المحفوظة فى الارشيف الوطنى فى الهند . فهذه الحقـــائق تلقى الاضواء على الاسباب الفعلية التى حالت دون تطور العلاقات بين البلدين . وتتضمن الملفة المذكورة عرضا مفصلا للطرق والاساليب التى استخدمهـــا المستعمـــرون البريطانيون لنسف العلاقات السياسيـــة وكذلك الاقتصاديـــة بين البلدين . وفى هذا المجال حظى الامبرياليـــون البريطانيون بتأييد تام من الممثلين الرسميين للامبريالية الاميركية التى اخذ نفوذها فى العربية السعودية يزداد بسرعة بعد الحصول على اول امتياز واسع للبترول فى عام ١٩٣٣ .

الاتحاد السوفييتى واليمن

كانت اليمن هى الدولة العربية الثانية التى اقام الاتحـــــاد السوفييتى العلاقات الدبلوماسية والتجارية الرسمية معها .

كان وضع اليمن فى النصف الثانى من العشرينات معقدا للغاية . فالامبريالية البريطانية بدأت هجوما جديدا على هذه الدولة العربية المستقلة واعتمدت فى ذلك على مواقعها فى عدن ومحميـــة عدن الغربية واستخدمت على نطاق واسع التجسس والتخريب وشراء ذمم شيوخ القبائل . وكان الامام يحيى فى بادئ الامر يامل بتعزيز مواقعه عن طريق اول معاهدة رسميـــة مع دولة اجنبية ، نعنى المعاهدة التى وقعت مع ايطاليا فى ١٩٢٦ . الا ان محاولة الاستفادة

من التناقضات الانكلوايطالية قد اخفقت . فبنتيجة اتفاقية روما التى وقعت بين بريطانيا وايطاليا فى ربيع ١٩٢٨ توصلت كلتـا الدولتين الامبرياليتين الى اتفاق مؤقت بشأن مصالحهما فى الجنوب العربى . وانتهز الامبرياليون البريطانيون ذلك فشنوا عدوانا على اليمن فى اذار (مارس) ١٩٢٨ . وانهال سلاح الجو البريطانى بقصف وحشى على المدن اليمنية ، وبدأ الاسطول الحربى البريطانى محاصرة سواحل اليمن ، بينمـا مارست المخابرات البريطانية التحضير لانتفاضة الاقطاعيين ذوى الميول الانفصالية .

وفى هذه الظروف قرر الامام يحيى الذى كان قد امر فى عام ١٩٢٧ ببدء المباحثات حول امكان اقامة العلاقات التجارية مـع الاتحاد السوفييتى ان يقيم علاقات متينة اقتصادية وسياسية ايضا مع اول دولة اشتراكية فى العالم .

وفى ايار (مايو) ١٩٢٨ وصل الى اليمن استاخوف اول ممثل عن الاتحاد السوفييتى ومعه رسالة من تشيتشيرين اكدت صلاحياته فى اجراء المباحثات حول اقامة العلاقات مع اليمن . وبنتيجة هذه المباحثات تم فى ١٢ تموز (يوليو) ١٩٢٨ التوقيع على النص الاولي لمعاهدة الصداقة والتجارة السوفييتية-اليمنية . وبعث امام اليمن برسالة الى تشيتشيرين فى تموز (يوليو) ١٩٢٨ قدر فيها رفيع التقدير نشاط «صاحب المعالى الرفيق استاخوف» . واوضح الامام يحيى موقفه الذى ادى الى الطابع المحدود لنص المعاهدة الاولي ، وذلك لان مسالة تبادل الممثلين الدبلوماسيين لم تكن قـد حلت انذاك . وعزا الامام يحيى ذلك الى خصائص الوضع فى اليمن . الا ان ملفتين ضخمتين بعنوان «سلسلة الجزيرة العربية لعام ١٩٢٩» و«السلسلة اليمنية ١٩٢٨-١٩٢٩» من محفوظـات الارشيف الوطنى فى الهند القتا النور على هذه المسألة بتفصيل اكبر . وتضم

هاتان الملفتان مئات الوثائق للدبلوماسيين والجواسيس البريطانيين والعملاء المأجورين الذين عملوا بصورة محمومة فى مختلف مناطق الجنوب العربى وعدن ومحمية عدن الغربية وعسير والعربية السعودية واستخدموا المال والشانتاج وشراء الذمم والوعيد والتهديد والاستفزازات بغية اخافة الحكومة اليمنية والحيلولة دون توقيع المعاهدة السوفييتية اليمنية او التقليل من اهميتها فى احسن الاحوال . وكتب تشيتشيرين فى مقالة نشرتها «البرافدا» باسم مستعار قبيل هذه الاحداث «ان جيشا لجبا من مختلف انواع الجواسيس البريطانيين كأنما يتنافس فى اظهار مواهبه ... ان قوة الدبلوماسية البريطانية تكمن فى عملائها الغفيرين ، وخصوصا فى الكولونيلات الذين يتحلون بالتفنن والمهارة وروح المغامرة والذين يقودون فى الجزيرة العربية السلاطين والامراء المتعادين ...» (٣٤).

وادراكا من الحكومة السوفييتية لجميع الصعوبات التى تواجهها الحكومة اليمنية ورغبة منها فى تقديم الحد الاقصى من المساعدة لدولة كانت انذاك ، بالرغم من النظام الملكى الاقطاعى السائد فيها ، البلد الوحيد الذى خاض فى العالم العربى كفاحا مسلحا ضد الامبريالية البريطانية فى سبيل الاستقلال وافقت الحكومة السوفييتية على تحويل المعاهدة الاولية ، مع بعض التعديلات الطفيفة ، الى معاهدة نهائية للصداقة والتجارة بين الاتحاد السوفييتى واليمن . وقد وقعت هذه المعاهدة فى صنعاء فى الاول من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٨ . وكانت هذه المعاهدة التى تضمنت اعتراف الاتحاد السوفييتى «باستقلال اليمن التام المطلق» قد رسمت لسنوات عديدة العلاقات بين البلدين . ونظرا لتعقد الوضع السياسى الداخلى فى اليمن كان مندوب الاتحاد السوفييتى فيها حكيموف يضطلع كذلك بمهام الممثل العام لمؤسسة «بليجفوست غوستورغ» ، وهى

مؤسسة تجارية حكومية متخصصة تأسست في موسكو بغية تطوير العلاقات مع اليمن .

وحددت مفوضية الشعب للشؤون الخارجية في الاتحاد السوفييتي اهداف السياسة السوفييتية في الجزيرة العربية بعد توقيع هذه المعاهدة على النحو التالي : «يتلخص واحد من الجوانب الاساسية لسياستنا ازاء اليمن في كوننا سنقدم المساعدة الى اليمن من حيث توسيع الاعتراف الدولي الحقوقي بالدولة اليمنية المستقلة . وفي الوقت الحاضر تعاني اليمن ، وكذلك الحجاز ، من صعوبات كبيرة بسبب كون عدد الدول التي اعترفت بهما محدودا للغاية . ونتيجة لذلك يقوم خصومهما المباشرون بخرق جميع اصول القانون الدولي دون اي ضابط ودون ان يخشوا الاعلان عن ذلك» (٣٥) .

وفي نيسان (ابريل) ١٩٢٩ ابرمت اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتي المعاهدة السوفييتية-اليمنية . وردا على كتاب الاشعار بالابرام بعث الامام يحيى برسالة الى كالينين في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٢٩ جاء فيها ما فحواه :نأمل بان المعاهدة التي ترسخ علاقات الصداقة الابدية والاخلاص بين بلدينا ستستكمل وتطبق دوما ومن جميع الوجوه . وسيكون من دواعي سرورنا وافتخارنا ان تطبق المعاهدة بهذا الاتجاه . ولذا ننقل الى فخامتكم مشاعرنا الودية الخالصة ... وتمنياتنا بالمنفعة لجمهوريتكم العزيزة وبالرفاه والازدهار لشعبكم وبالسعادة لدولتكم الشاسعة العريقة الرائعة ... (٣٦) .

وفي السنوات التالية استمرت العلاقات التجارية والثقافية والسياسية تتطور بين الاتحاد السوفييتي واليمن بالرغم من دسائس العملاء البريطانيين . وبغية النجاح في مجابهة التوسع البريطاني حاول الامام يحيى اقامة العلاقات الاقتصادية مع المانيا التي كانت علاقاتها

مع بريطانيا فى اواخر العشرينات ليست على ما يرام . وبناء على طلب ملك اليمن قامت الدبلوماسية السوفييتية بوساطة موفقة لاقامة الاتصالات بين المانيا واليمن . ولعبت دورا كبيرا فى فك الحصار البريطانى ضد اليمن العلاقات التجارية السوفييتية اليمنية السريعة التطور وارسال البضائع السوفييتية الضرورية الرخيصة والجيدة الى اليمن . فقد ارسل الاتحاد السوفييتى الى اليمن فى ١٩٢٩ــ١٩٣٠ ٥٠٪ مما استوردته البلاد من كيروسين و٦٠٪ من الصابون و٣٥٪ من السكر ، بالاضافة الى كمية كبيرة من الاخشاب والدقيق والسلع الاخرى . وفى عام ١٩٣١ بلغ استيراد اليمن من الاتحاد السوفييتى رقما قياسيا ، حيث وصل الى اليمن اكثر من ٢٢ الف طن من مختلف البضائع (٣٧) .

وقد اثار التطوير الشامل للعلاقات السياسية والاقتصادية بين الاتحاد السوفييتى واليمن اشد الاستياء لدى الاوساط الحاكمة فى بريطانيا . وادعت الصحافة المحافظة البريطانية ان الاتحاد السوفييتى يستخدم معاهدة ١٩٢٨ مع اليمن «للنشاط الدعائى فى الجزيرة العربية ومصر والهند» . والقت على الاتحاد السوفييتى تبعة التوتر فى العلاقات الانكلوــيمنية (٣٨) . وقد كتبت الصحف البريطانية ذلك فى وقت كانت القوات الجوية البريطانية المقاتلة حسب الطريقة التى وضعها شرشل ولورنس منذ عام ١٩٢١ تسلط فيه قصفا وحشيا «تخويفيا» على مناطق اليمن الجنوبية والجنوبية الشرقية . وسجلت رقما قياسيا فريدا فى الدعاية ضد الاتحاد السوفييتى صحيفة «برمنغهام بوست» التى نسبت الى الاتحاد السوفييتى ، بالاضافة الى «الدعاية والدسائس» ، نيته فى ممارسة . . . تجارة الرقيق فى البحر الاحمر (٣٩) .

وفى مستهل الثلاثينات استمرت العلاقات تتطور بين الاتحاد السوفييتى واليمن . وتلبية لطلب الامام يحيى ارسلت الحكومة السوفييتية الى اليمن مجموعة من الاطباء الذين افتتحوا فى صنعاء اول مستوصف واول عيادة لطب الاسنان فى متناول الجميع . وقد كتب الامام يحيى فى رسالة خاصة الى كالينين بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٣١ عن عمل احد هؤلاء الاطباء، نعنى الدكتورة سليوزبيرغ (وهى اول طبيبة فى اليمن) . وجاء فى رسالة الامام يحيى : لقد حظيت بثقة الجميع نتيجة لطيبة طبعها وانسانيتها المتناهية . وحظيت بحب الجميع واحترامهم نتيجة لقابلياتها ومهارتها التى ابدتها فى الممارسة الطبية فى كل يوم من وجودها هنا . وخلال فترة قصيرة اتقنت اللغة العربية ولم تعد بحاجة الى مترجم لدى عيادة المرضى ومعالجتهم ، مما جلب لها شهرة اكبر كطبيبة (٤٠) .

وفى مستهل الثلاثينات بعثت الحكومة السوفييتية الى اليمن آلات زراعية مع اخصائيين لاستثمارها واجهزة لانشاء المحطات التلفونية . وتم وضع تصميم سوفييتى لانشاء اول معمل للنسيج فى البلاد . وجرت كذلك خطوات اولى فى اقامة العلاقات الثقافية بين كلا البلدين . وقامت بعثة سينمائية سوفييتية برئاسة المخرج السينمائى شنيديروف بتصوير فيلم طويل عن اليمن (٤١) . وقد اضطر الباحثان الغربيان، مؤلفا الدراسات الحديثة عن اليمن ماكرو وفينر الى الاعتراف بان المساعدة السياسية والاقتصادية والثقافية الشاملة التى قدمها الاتحاد السوفييتى الى اليمن فى العشرينات والثلاثينات اتاحت لدرجة كبيرة امكانية احتفاظ البلاد باستقلالها بالرغم من التوسع الاستعمارى للامبريالية البريطانية والفاشية الايطالية (٤٢) .

الاتحاد السوفييتي وبلدان الخليج العربى

فى نفس وقت اقامة العلاقات الودية السياسية والاقتصادية مع اليمن بدأ الاتحاد السوفييتي يوسع العلاقات التجارية مع بلدان الخليج العربى .. واعتبارا من عام ١٩٢٨ استؤنفت خطوط ملاحة الشحن بين الموانئ السوفييتية فى البحر الاسود وموانئ الخليج العربى ، وهى الخطوط التى افتتحتها شركة الملاحة والتجارة الروسية لاول مرة فى عام ١٩٠١ وانقطعت ابان الحرب العالمية الاولى . واثر افتتاح هذه الخطوط من جديد تأثيرا ايجابيا للغاية على تطور التجارة السوفييتية-العراقية . وابدى التجار العراقيون اهتماما كبيرا بشراء الاخشاب والسكر والاقمشة من الاتحاد السوفييتي . وعند اواسط الثلاثينات استورد العراق من الاتحاد السوفييتي نصف عدد الصناديق الفارغة لتعليب التمور التى هى اهم بضاعة فى الصادرات العراقية . ولكن ركودا شديدا حل بعد ذلك فى العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الاتحاد السوفييتي وبلدان شبه الجزيرة العربية وحوض الخليج العربى .

ويحاول الباحثون الغربيون ، كما هو شأنهم فى حال العلاقات مع العربية السعودية ، ان يلقوا تبعة ذلك على الاتحاد السوفييتي . الا ان دراسة الوثائق المحفوظة فى الارشيف الوطنى فى الهند تتيح امكانية العثور على المذنبين الحقيقيين فى هذه المسألة ايضا . ويكفى المرء ان يدرس تقارير السفارة البريطانية فى بغداد خلال النصف الاول من الثلاثينات والمحاضر الهامة لجلسات لجنة الدفاع الامبراطورى التى هى الهيئة السوقية للحكومة البريطانية وكذلك تقارير المندوبين البريطانيين فى جدة وصنعاء خلال الثلاثينات وتقارير المندوب السامى البريطانى فى عدن ، لكى يدرك ان المذنب الرئيسى فى اضعاف

الاتصالات بين الاتحاد السوفييتي وبلدان الجزيرة العربية والخليج العربي هو الامبريالية البريطانية وعملاؤها المحليون . فبغية تحقيق تدهور وضع بلدان هذه المنطقة وجعلها اكثر انصياعا وخضوعا دبر الامبرياليون البريطانيون في عام ١٩٣٤ الحرب اليمنية-السعودية التي عقدت وضع البلدين في الداخل وعلى الصعيد الدولي وازمت لدرجة كبيرة العلاقات بين مشيخات جنوب شرقي الجزيرة العربية . وتتميز باهمية كبيرة لفهم الطرق الاستفزازية للدبلوماسية البريطانية وثائق ملفتين مثيرتين من الملفات المحفوظة في الارشيف الوطني في الهند ، وهما «نشاط البلاشفة في جنوب بلاد فارس» و«السفن الروسية في الخليج العربي عام ١٩٣١» .

وتضم ملفة «السفن الروسية في الخليج العربي» اخباريات لينغيمان الملحق التجاري لدى الممثلية البريطانية في طهران الى قسمي التجارة والمخابرات في الادارة الاستعمارية البريطانية في الهند والى المندوب السامي البريطاني في العراق والمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي . وتضمنت هذه الاخباريات الموضوعة على اساس تقارير القناصل والجواسيس سجلا للسفن السوفييتية التي عبرت قناة السويس الى موانئ البحر الاحمر والخليج العربي . وتضمنت التقارير المؤرخة في ٨ ايلول (سبتمبر) و٣٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٠ و٦ نيسان (ابريل) و١٥ آب (اغسطس) ١٩٣١ وصفا مفصلا للبضائع المشحونة في السفن السوفييتية «توبولسك» و«ميخائيل فرونزه» و«كومونيست» و«فوستوك» و«اركوس» و«رابوتشي» و«فانتسيتي» و«ميكويان» و«مولوتوف» و«روزا لوكسمبورغ» و«زيريانين» و«توركمين» التي زارت في ١٩٢٩-١٩٣١ الحديدة والبصرة وبندر عباس وبوشير والمحمرة والاهواز . وتشير هذه التقارير الى اوزان الشحنات بالاطنان والكيلوغرامات

والى المسميات الدقيقة للبضائع التى افرغتهـا السفن المذكورة فى هذه الموانئ . وعمل رجالات المخابرات البريطانية عن طريق وكلاء «شركة البترول الانكلوفارسية» فى بورسعيد والسويس وعـن طريق وكلاء شركة الملاحة البريطانية «سترايك اند كومبانى» فى موانئ الخليج العربى على معرفة مسميات البضائع التى تقلها السفن السوفييتية قبل وصول هذه السفن الى الموانئ التى تقصدها ، وذلك بغية اتخاذ الاجراءات المضادة اللازمة لنسف التجارة السوفييتية فى هذه المنطقة . وقد استعرض لينغيمان ومستخدموه فى تقرير خاص بعنوان «الروس ـ اساليبهم التجارية وشهرتهم ونجاحاتهـم واخفاقاتهم» سلسلة كاملـة من الاجراءات المستخدمـة لنسف العلاقات الاقتصادية بين الاتحاد السوفييتى وبلدان شبه الجزيرة العربية وحوض الخليج العربى . ومن هذه الاجراءات بث الاشاعات الاستفزازية حول الدعاية السوفييتية «المعادية للاسلام» وحول «النوعية الرديئة» للبضائع السوفييتية وكذلك الشانتاج وتخويف التجار المحليين وتخفيض اجور شحن السفن البريطانية واسعـار السلع البريطانيـة بعد استلام برقيات تفيد بقرب وصول السفن السوفييتية المحملة بسلع مماثلة وهلمجرا . وتدل الاوامر العديدة التى ذيلت بها تقارير لينغيمان على الدراسة الدقيقة لها من قبل كبار المسؤولين فى الادارة الاستعمارية البريطانية واستخدامها الى اقصى حد محاولة نسف سمعة الاتحاد السوفييتى ونفوذه فى الشرقين الادنى والاوسط (٤٣) .

وتدل دراسة هذه المواد كذلك على ان المستعمرين البريطانيين طبقوا قسما كبيرا من هذه الاجراءات ابتداء من عام ١٩٠١ عندما ظهرت فى مياه الخليج العربى اول سفينة تابعة لشركة الملاحـة والتجارة الروسية ، وهى السفينة «كورنيلوف» . وعندما زارت

اول سفينة حربية روسية هى الزورق المسلح «غيلياك» موانى الخليج فى العام ذاته تسلمت جميع الصحف البريطانية وصحف كثيرة فى بلدان اوربا الغربيـــة ، بأمر من كيرزون نائب الملك فى الهند انذاك والذى اصبح فيمـا بعد وزيرا لخارجية بريطانيـا ، نبـأ استفزازيا يعرف فيما بعد باسم «اكذوبة بندر عباس» . فقد انتهز كيرزون واقع ان «غيلياك» لم يستطع ان يشحن كل كمية الفحم التى خصصتها له شركة بريطانية فى بندر عباس فترك على الساحل ٣٠ طنا ، واخذ كيرزون يطبل ويزمر فى العالم كله تقريبا مدعيا بان السلطات البريطانيـــة اكتشفت خطة روسية فظيعـــة للاستيلاء على بندر عباس او ، على الاقل ، لتحويلهـا الى قاعدة عسكرية بحرية جبارة على مشارف المحيط الهندى . وتبين الوثائق المذكورة اعلاه ان اختلاقات كيرزون هذه قد استخدمهـا الدعاة والمروجون البريطانيون لشن حملة مماثلـة فى مطلع الثلاثينات ولاخافة حكام بلدان حوض الخليج العربى باسطورة «الخطر الروسى» بغية تحقيق تقليص العلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفييتى . وفى اواخر ستينـات واوائـل سبعينات القرن العشرين انتحل الامبرياليون البريطانيون والاميركان وعملاؤهم للمرة الثانية ابتكار اللورد كيرزون فبعثوا من جديد «اكذوبة بندر عباس» السيئـة الصيت بعد ان غيروا مكياجها بعض الشيء . وتدل على ذلك ليس فقط المقالات العديدة التى نشرتها الصحف الغربيـة ، بل وكذلك بحث «الخليج : نتائج الانسحاب البريطانى» الذى اعدته عام ١٩٦٩ لجنة مؤلفة من كبار المستشرقين والدبلوماسيين ورجال المخابرات البريطانيين والاميركان بتكليف من مركز الدراسات الستراتيجيـة والدولية لدى جامعة جورج تاون (واشنطن) . وحاول هذا البحث ان يثبت بان انسحاب القوات المسلحـة البريطانيـة من الخليج

العربى سيؤدى الى تعزيز شديد هناك لمواقع الاتحـــاد السوفييتى الاقتصادية والسياسية والعسكرية . واصر واضعو البحث على ابقاء «الوجود» البريطانى والاميركى فى الخليج (٤٤) .

الاتحاد السوفييتى ومصر

عندما كان الاتحاد السوفييتى يقيم الاتصالات مع العربيـــة السعودية واليمن ويعزز العلاقات الاقتصادية مع العراق بكل الوسائل ويتعاطف مع النضال التحررى لشعبى مراكش وسوريا لم ينس ابدا النضال العادل الذى خاضـــه من اجل الحرية اكبر بلد فى العالــم العربى ، نعنى مصر . ففى عام ١٩١٩ عرض لينين على حزب الوفد الاسلحة . وفى ١٩٢٤ـ١٩٢٥ قامت فى جمهوريات آسيا الوسطى وما وراء القفقاس السوفييتية حركة واسعة للتضامن مع النضال التحررى للشعب المصرى . وفى تلك الفترة طرحت مسألـــة امكان اقامة العلاقات السياسية والدبلوماسيـــة المباشرة بين الاتحـــاد السوفييتى ومصر ، لا سيما وان المستعمرين البريطانيين اضطروا فى شباط (فبراير) ١٩٢٢ تحت ضغط الحركة التحررية القويـــة للشعب المصرى ان يمنحوا الاستقلال الشكلى لمصر .

وفى كانون الثـــانى (يناير) ١٩٢٣ تقابل ممثلـــو القوميين المصريين اثناء مؤتمر لوزان مرارا مع تشيتشيرين وفوروفسكى فناقشوا مسألة امكان اقامـــة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحـــاد السوفييتى ومصر . وممـــا له اهميتـــه ان المصريين طرحوا فى المحادثات مـــع مفوض الشعب للشؤون الخارجيـــة السوفييتى تشيتشيرين مسألة خرق بريطانيا لمعاهدة ١٨٨٨ الدولية حول قناة السويس ، وهى المعاهدة التى كانت روسيا مساهمة فيها . واكد

الجانب المصرى ان بريطانيا تحتفظ بقواتها المسلحة فى منطقة القناة خلافا لمعاهدة ١٨٨٨ وتعرقل التئام اللجنة الدولية لقناة السويس وهلمجرا . ورجا الجانب المصرى الدبلوماسيين السوفييت طرح مسألة خرق بريطانيا لمعاهدة ١٨٨٨ على المحافل الدولية (٤٥) .

وبعد فترة الانقطاع فى اعمال مؤتمر لوزان كلف تشيتشيرين الذى سافر الى موسكو فوروفسكى بمواصلة المباحثات مع الجانب المصرى بشأن هذه المسائل . ويتضح مدى تقدم المباحثات من الرسالة التى وجهها تشيتشيرين الى فوروفسكى فى ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٢٣ قبيل سفر فوروفسكى للمرة الثانية الى لوزان حيث كان مقررا ان يجرى لقاء رسمى آخر مع ممثلى مصر . فقد كتب تشيتشيرين فى رسالته التوجيهية يقول : «ارجوك ان تنتهز هذه الفرصة للشروع ، اخيرا ، بهذه القضية وتوجيه الدعوة الى الحكومة المصرية حول الدخول فى علاقات دبلوماسية» (٤٦) . الا ان فوروفسكى لم يستطع ان ينفذ المهمة التى عهدت بها حكومته اليه ، لانه قتل بعد اسبوعين من ذلك . وقبل يومين من ذلك وجه اللورد كيرزون الى الاتحاد السوفييتى انذارا اتهم الحكومة السوفييتية فيه بممارسة الدعاية المعادية لبريطانيا فى آسيا . وتضمن هذا الانذار مطلبا لم يسبقه مثيل حول وقف نشاط السفير السوفييتى فى ايران وافغانستان وحول تقديم الاعتذار عن الاعمال المزعومة لممارسة الدعاية المعادية لبريطانيا فى الشرق (٤٧) .

وانتهت بالاخفاق التام محاولة المحافظين البريطانيين لالحاق الضرر بنفوذ الاتحاد السوفييتى المتعاظم ولقطع اتصالاته وعلاقاته مع بلدان الشرقين الادنى والاوسط ، بما فيها البلدان العربية (حيث كانت اتصالات كثيرة مع العرب تجرى عن طريق طهران) . وفى

المذكرة الجوابية المؤرخة فى ١١ ايار (مايو) ١٩٢٣ رفضت الحكومة السوفييتية اتهامـــات ومطالب المستعمرين البريطانيين الخرقاء ، بما فيها مطلب سحب ممثلى الاتحاد السوفييتى من كابل وطهران . واشارت المذكرة بكل سخرية الى «ان شكوك الحكومة البريطانية عظيمة للغاية اذا كانت تعتقد بان المندوب السوفييتى فى الشرق لا يجد مجالا آخر لصرف النقود غير الانفاق على الدسائس ضد بريطانيا . وان الحكومة البريطانية على علم اكثر من اية حكومة اخرى ، اذا كانت معلوماتها صحيحة ، بان الحكومة السوفييتية تستهدف وتحقق اقامة علاقاتها الطيبـــة مع شعوب الشرق ليس بالدسائس والذهب ، بل بالاجراءات النزيهة وحسن النية حقـــا ازاءها» (٤٨) . لقد كان هناك شيء غير الرابط الزمنى بين انذار كيرزون (٨ ايار) ومقتل فوروفسكى (١٠ ايار) الذى كان يمسك بكثير من خيوط علاقات الاتحاد السوفييتى مع البلدان العربية ، وفى المقام الاول الحجاز ومصر . وفى ١٠ ايار (مايو) ١٩٢٤ ، بعد عام على جريمة القتل الشنيعـــة ، قال نائب مفوض الشعب للشؤون الخارجية ، ومفوض الشعب لهذه الشؤون فيما بعد ، ليتفينوف فى الاجتماع التأبينى الذى كرس لازاحة الستار عن تمثال فوروفسكى فى موسكو : «قبل عام اطلق الممثل الافخم للعالم القديم المتعفن الذى ولى زمانـــه ، عالم الظلام والحقد على البشر اللورد الرجعى كيرزون انذارا وجهه الى قلب العالم الجديد الحديث الولادة ، الى الجمهورية السوفييتية . وبعد يومين اطلق كونرادى عضو الحرس الابيض والخادم والتلميذ الجدير باستاذه اللورد البريطانى ــ اطلق الرصاص على ممثل الجمهوريات السوفييتية الرفيق فوروفسكى . وكانت كلتا الاطلاقتين نتيجة لاسباب بعينها وكانتا تستهدفان غرضا بعينه . . .» (٤٩) .

ولقد قطع مقتل فوروفسكي ، كما كان يأمل مدبروه ، اولى الاتصالات الرسمية السوفييتية-المصرية . ولكن ذلك كان ظاهرة مؤقتة . ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٢٤ وجه خليفة فوروفسكي السفير السوفييتي الجديد في ايطاليا ايوردانسكي اقتراحا خطيا الى وزير خارجية مصر «باقامة العلاقات السياسية والتجارية بين البلدين وذلك بوجه خاص نظرا الى الصلات الاقتصادية المتينة التي ربطت بين روسيا ومصر طوال سنين عديدة ، ونظرا للتعاطف العميق الذي تبديه شعوب الاتحاد السوفييتي ازاء الشعب المصري» (٥٠) .

واتسمت هذه الرسالة بأهمية سياسية كبيرة ولا تزال تتميز بأهمية كبيرة لدراسة السياسة الخارجية لاول دولة اشتراكية في العالم . فمن المعروف ان الدبلوماسية السوفييتية في تلك الفترة كانت تخوض نضالا حادا من اجل فك الحصار الذي فرضته دول الوفاق في حينه ، ومن اجل الحصول على «فرصة سلمية» ومن اجل اقامة العلاقات الدبلوماسية الطبيعية مع البلدان الرأسمالية على اساس المبدأ اللينيني للتعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة . ولذلك كان اعتراف بريطانيا التي هي من اقوى الدول الغربية بالاتحاد السوفييتي مهمة كبيرة وفقت الدبلوماسية السوفييتية في حلها ، حيث احرزت في شباط (فبراير) ١٩٢٤ اتفاقية اقامة العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ، وفي ٨ آب (اغسطس) ١٩٢٤ وقعت معاهدة سياسية عامة ومعاهدة تجارية بين البلدين . الا ان الحكومة السوفييتية طوال كامل فترة النضال الطويل من اجل اقامة العلاقات الطبيعية مع بريطانيا ، ذلك النضال الذي بدأ على اثر دحر المتدخلين ، لم تتراجع ابدا عن المبدأ الآخر الهام جدا في سياستها الخارجية ، الا وهو مساعدة ودعم الحركة

التحررية لشعوب الشرق ، بما فيها شعوب العالم العربى . ومما لا جدال فيه ان هذا المبدأ فى السياسة الخارجية السوفييتية قد عرقل اقامة العلاقات الدبلوماسية الطبيعية مع بريطانيا . لا سيما وان الحكومة السوفييتية لم تتراجع ابدا عن الخط العام لسياستها الخارجية الرامية الى اقامة علاقات الصداقة مع شعوب الشرق . وكان على الامبرياليين البريطانيين ان يتراجعوا هم . وكانت اول اتفاقية تجارية انكلو ـ سوفييتية ، وهى اتفاقية ذات اهمية سياسية ايضا ، قد وقعت فى لندن فى ١٦ اذار (مارس) ١٩٢١ اى بعد مرور اسبوعين على توقيع المعاهدتين السوفييتية ـ الايرانية والسوفييتية ـ الافغانية فى موسكو ، وفى نفس يوم توقيع المعاهدة السوفييتية التركية فى موسكو حول الصداقة والاخوة .

وفى ايار (مايو) ١٩٢٣ كان المستعمرون البريطانيون يأملون من وراء انذار كيرزون ومقتل فوروفسكى فى ارغام الحكومة السوفييتية على وقف دعم النضال الذى تخوضه شعوب الشرق ، بما فيها شعوب البلدان العربية ، ضد الامبريالية . الا ان هذه المحاولة اخفقت . فقبل شهر من اقامة العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا اقترح خليفة فوروفسكى فى روما رسميا على الحكومة المصرية اقامة العلاقات الدبلوماسية ، مما كان سيؤدى الى تعزيز نضال الشعب المصرى ضد الامبريالية البريطانية . وفى الوقت ذاته كان من شأن هذا الاقتراح ان يحبط اقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى وبريطانيا . ومع ذلك قامت الحكومة السوفييتية بهذه المجازفة . وفى نيسان (ابريل) ١٩٢٤ ، بعد شهرين من اقامة العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفى معمعان المفاوضات المعقدة بشأن توقيع المعاهدتين السياسية والتجارية ، اعترفت الحكومة السوفييتية بالحجاز فى لحظة تأزم العلاقات بينه

وبين بريطانيا ، مما اثار غضب لندن وهياجها بالطبع .

وفى غضون ١٩٢٤ـ١٩٢٦ استمرت فى روما وانقرة ولندن المحادثات والمباحثات شبه الرسمية ، والرسمية فى عدة حالات ، بين ممثلى الاتحاد السوفييتى ومصر حول اقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . ولكن ذلك لم يتحقق . فان مواقع الامبريالية البريطانية فى مصر كانت قوية للغاية . وكان من الامور الاكثر صعوبة على المستعمرين البريطانيين الحيلولة دون تطور العلاقات الاقتصادية بين الاتحاد السوفييتى ومصر . ففى عام ١٩٢٤ بلغ التداول التجارى بين البلدين ٩٠٪ من مستوى ما قبل الحرب العالمية الاولى . وفى عام ١٩٢٧ استطاعت الحكومة المصرية ، بالرغم من المقاومة الشديدة من جانب الاوساط الاستعمارية البريطانية التى سعت الى المحافظة على دور الوساطة والسمسرة المربحة فى العلاقات التجارية السوفييتية المصرية ، ان تمرر قرارا بشأن بيع القطن الى الاتحاد السوفييتى مباشرة على الطبيعة (فى مصر) وليس بوساطة الشركات اللندنية . وافتتح فى الاسكندرية مكتب لمؤسسة «تيكستيل امبورت» السوفييتية للتجارة الخارجية . وخلال عام واحد ازدادت المشتريات السوفييتية من القطن المصرى بنسبة ١٥٠٪ ، وشغل الاتحاد السوفييتى المرتبة الاولى فى استيراد مصر من الكيروسين .

وعجل المستعمرون البريطانيون فى الانتقال الى الهجوم المعاكس . ويتضح من ملفة «نشاط السفن السوفييتية فى مصر ، عام ١٩٢٩» المحفوظة فى الارشيف الوطنى فى الهند كيف نظمت المخابرات البريطانية طوال عدة سنوات التجسس المستمر على جميع بحارة السفن السوفييتية وموظفى مكتب «تيكستيل امبورت» . واستخدم المستعمرون البريطانيون عملاءهم المحليين فاعدوا بنشاط مختلف الاستفزازات التى استهدفت تأزيم العلاقات

التجارية السوفييتية المصرية . ففى اواخر نيسان (ابريل) ١٩٢٩ نشرت «التايمس» مقالة ضافية من مصر تضمنت زعما بانه اكتشف فى الاسكندرية «مركز للدعايـة السوفييتيـة ... اسسه وكلاء تيكستيل امبورت السوفييتيون» . وفى اليوم التالى نشرت «الديلى نيوز» الصفراء مقالة متحيزة حول ممارسـة الوكلاء السوفييت اعداد انتفاضة فى مصر (٥١) . وبعد ذلك اعدت على عجل اوراقا مزورة حول وجود صلة بين موظفى مكتب «تيكستيل امبورت» فى الاسكندرية وبين الحركة الشيوعية المصرية . وعلى هذا «الاساس» اغلق المكتب وتقلصت التجارة السوفييتية-المصرية لدرجة كبيرة . وقد حدث ذلك فى خضم الازمة الاقتصادية العالمية التى عقدت وضع مصر المعقد اصلا .

الاتحاد السوفييتى والبلدان العربية فى سنوات الحرب العالمية الثانية

يدل الاستعـراض الموجز للعلاقات بين الاتحــاد السوفييتى وشعوب البلدان العربيــة فى الفترة بين الحربين العالميتين على ان بلاد السوفييت بذلت قصارى جهدها ، وبالرغم من الصعوبــات والتعقيدات الاقتصادية والسياسية والدولية التى واجهتها ، لاقامة الاتصالات والعلاقات مع الشعوب والاوساط الاجتماعية والحكومات فى البلدان العربية ومساعدتها فى نضالها المرير من اجل الحريـة والاستقلال . وبالرغم من مقاومة المستعمرين المسعورة استطاع الاتحــاد السوفييتى ان يقدم مساعدة جوهرية لشعبى العربيـة السعودية واليمن فى النضال من اجل تعزيز استقلالهما . وكانت عظيمة قوة الدعم المعنوى من جانب الاتحــاد السوفييتى لشعوب

العراق وسوريا ولبنان ومصر والجزائر والمغرب التى هبت شاهرة السلاح للنضال ضد المستعمرين . واتسم باهمية كبيرة للشعب العربى فى فلسطين ولجميع شعوب البلدان العربية ذلك النضال المبدئى الثابت الذى خاضه الحزب الشيوعى والحكومة السوفييتية ولينين شخصيا ضد الصهيونية فى جميع مظاهرها . ويتميز فضح لينين فى السنوات الاولى من قيام السلطة السوفييتية لجوهر الصهيونية الرجعى المعادى للشعب باهمية نظرية وعملية دائمة بالنسبة لشعوب البلدان العربية المناضلة فى سبيل ازالة اثار العدوان الاسرائيلى الصهيونى . ولما كان الشكل الاساسى للاستعمار فى العالم العربى هو نظام الانتداب فقد قدم نضال الاتحاد السوفييتى الثابت فى جميع المؤتمرات والمحافل الدولية ضد هذا النظام مساعدة جوهرية للعرب فى نضالهم التحررى الوطنى . ولقد قال لينين فى عام ١٩١٩ : «ونحن نعلم حق العلم انهم عندما يتحدثون عن توزيع الانتدابات على المستعمرات ، فانما يعنون توزيع الانتدابات للنهب والسلب ، اعطاء اقلية ضئيلة من سكان المعمورة حق استثمار الاكثرية من سكان الكرة الارضية» (٥٢) . وعندما انضمت الحكومة السوفييتية الى عصبة الامم فى ١٩٣٤ بسبب ضرورة التحضير لردع الفاشيين الالمان والعسكريين اليابانيين ابدت تحفظا خاصا واكدت بان المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الامم المكرسة للانتداب غير مقبولة لدى الاتحاد السوفييتى .

وبعد هجوم المانيا الفاشية على الاتحاد السوفييتى تغير طابع الحرب العالمية الثانية لدرجة كبيرة . فقد اكتسبت الحرب بالنسبة لبلدان الائتلاف المعادى للفاشية طابعا تقدميا . وجاء فى البيان الذى نشرته الحكومة السوفييتية فى ٢٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ : «ان الاتحاد السوفييتى يسترشد فى سياسته الخارجية ... بمبدأ

حق الامم فى تقرير مصيرها ... والاتحاد السوفييتى يذود عن حق كل شعب فى استقلال دولته وحرمة اراضى بلاده وحق اقامة النظام الاجتماعى واختيـــار شكل الادارة اللذين يرتضيهما ويعتبرهمـــا ضروريين لتامين الازدهار الاقتصادى والثقافى لبلاده» (٥٣). وكانت هذه المبادئ النبيلة التى كانت دوما اساس سياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية قد روعيت بكل قدسية فى سنوات الحرب الوطنية العظمى ايضا. وقد ادى النضال البطولى الذى خاضته القوات المسلحـــة السوفييتية ضد الجيوش الفاشية فى ١٩٤١ـ١٩٤٢ ليس فقط الى انهيار «خطة بربروسا»، بل والى انهيار الخطط الهتلرية الوثيقة الارتباط بها والرامية الى غزو العالم العربى واستعباد شعوبه. ولذلك كانت الانتصارات فى معارك موسكو وستالينغراد والقفقاس قد دشنت ليس فقط تدمير الآلة الحربية للامبريالية الالمانيـــة وتحرير شعوب الاتحاد السوفييتى، بل وازالة الخطر النازى الذى كان يتهدد شعوب العالم العربى.

وبقدر تدهور وضع بلدان المحور الفـــاشى وتعزز الائتلاف المعادى للنازية وتزايد نفوذ الاتحاد السوفييتى فى هذا الائتلاف تضعضعت مواقع المستعمرين فى جميع انحاء العالم وتعززت الحركة التحررية لشعوب الشرق عموما بما فيها شعوب العالم العربى.

ولـــم يعد المستعمرون فى الوضع الدولى والعسكرى والسياسى الذى تغير قادرين على عرقلـــة اقامة علاقات الصداقة والعلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى والبلدان العربية. ففى ٦ تموز (يوليو) ١٩٤٣، عندما كانت القوات المسلحة السوفييتية تخوض معركة هائلة فى قوس كورسك، وجه وزير خارجية مصر رسالة الى السفير السوفييتى فى لندن. وبعد ان اكد وزير الخارجية المصرى نحاس باشا ان مصر تابعت بعين الاعجاب طوال عامين مآثر الجيش

الروسى البطل اقترح اقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين (٥٤) . وفى ٢٦ آب (اغسطس) ١٩٤٣ اقيمت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . وفى ٢١ تموز (يوليو) ١٩٤٤ بعث وزير خارجية سوريا برقية الى وزارة خارجية الاتحاد السوفييتى اقترح فيها اقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين وعزا الوزير هذا القرار الى ... الاعجاب بالشعب السوفييتى الذى تقدم جهوده وانتصاراته فى النضال العظيم للديمقراطية ضد روح الغزو والسيطرة اساسا للامل الراسخ فى الحرية والمساواة فى المستقبل لجميع الامم صغيرها وكبيرها (٥٥) . وفى اليوم التالى اقيمت العلاقات بين الاتحاد السوفييتى وسوريا .

واعرب وزير خارجية لبنان فى برقية بعث بها الى موسكو فى ٣١ تموز (يوليو) ١٩٤٤ عن رغبة حكومته فى اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى . واكد الوزير ان هذه الرغبة ... تستجيب للمطامح العميقة لدى الامة اللبنانية التى تكن اعظم الاعجاب بالبطولة الرائعة لشعوب الاتحاد السوفييتى وبالمبادئ السامية التى تسترشد بها السياسة الخارجية لزعمائه (٥٦) . وفى آب (اغسطس) ١٩٤٤ اقيمت العلاقات بين البلدين . وفى ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٤ بعث وزير خارجية العراق ببرقية الى موسكو تضمنت اقتراحا باقامة العلاقات الدبلوماسية . وقال الوزير ما فحواه : من دواعى سرورى ان اتوجه اليكم بهذه المسألة فى الوقت الذى تتكلل فيه بالانتصارات الجهود الجبارة للجيوش السوفييتية ، تلك الجيوش المجيدة التى قدمت دوما اكبر التضحيات لتحرير الشعوب (٥٧) . وفى ايلول (سبتمبر) ١٩٤٤ اقيمت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى والعراق .

وهكذا دحر الاتحاد السوفييتى فى اواخر الحرب العالمية الثانية الغزاة الالمان الفاشيين وحرر اراضيه من المعتدين وحمى العالم العربى من الخطر الفاشى ، بل وساهم بقسطه الوافر فى عملية تصفية الاستعمار فى العالم العربى وحظى بصداقة وتعاطف شعوب البلدان العربية . وتحقق الحلم الذى راود افضل ابناء الشعوب العربية طوال سنين بالصداقة والاخوة والتحالف والمساعدة المتبادلة مع شعوب الاتحاد السوفييتى . وتحققت وصية لينين العظيم بشأن التحالف بين شغيلة الاتحاد السوفييتى وشعوب الشرق ، بما فيها الشعوب العربية . وساعد ذلك لدرجة غير ضئيلة على بدء عهد جديد فى تاريخ شعوب العالم العربى .

مراجع الفصل الرابع

١ ـ غوغول ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٤ ، موسكو ، ١٩٥٢ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

٢ ـ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

٣ ـ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، ص ٥٠٣ .

٤ ـ المصدر ذاته ، ص ٤٨٩ـ٤٩٤ .

٥ ـ A. Wilson, Mesopotamia, 1917--1920, London, 1931, p. 145.

٦ ـ شهدى الشافعى ، تطور الحركة التحررية الوطنية فى مصر فى ١٨٨٢ـ ١٩٥٦ ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٥٦ .

٧ ـ أ . خيفيتس ، الدبلوماسية السوفييتية وشعوب الشرق ١٩٢١ ـ ١٩٢٧ ، موسكو ، ١٩٦٨ ، ص ٣٠٨ـ٣٠٩ .

٨ ـ «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى» ، المجلد ٦ ، الوثيقة رقم ٣٥ .

٩ ـ ارالوف ، مذكرات دبلوماسى سوفييتى ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٩ .

١٠ ـ «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى» ، المجلد ٦ ، الوثيقة رقم ٦٠ .

١١ ـ غوروخوف وزامياتين وزيمسكوف ، الدبلوماسى تشيتشيرين خريج المدرسة اللينينية ، موسكو ، ١٩٥٦ ، ص ٣٩ .

١٢ ــ تشيتشيرين ، خطاب فى الاجتماع فى الاكاديمية الاشتراكية المكرس لتأبين فوروفسكى ــ فى كتاب «فوروفسكى ، مقالات ومواد فى مسائل السياسة الخارجية» ، موسكو ، ١٩٥٩ ، ص ٣٠ .

١٣ ــ المصدر ذاته .

١٤ ــ «تاريخ الاقطار العربية المعاصر» موسكو ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ .

١٥ ــ المصدر ذاته ، ص ٢٤ــ٢٥ .

١٦ ــ فوستوكوف ، نشاط الصهاينة المعادى للشعب فى روسيا ، مجلة «قضايا التاريخ» ، ١٩٧٣ ، العدد ٣ ، ص ٣٥ .

١٧ ــ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤١ ، ص ١٦٧ .

١٨ ــ «المؤتمر الثانى للاممية الشيوعية» ، موسكو ، ١٩٣٤ ، ص ١٤١ .

١٩ ــ المصدر ذاته ، ص ١٤٧ــ١٤٨ .

٢٠ ــ المصدر ذاته ، ص ١٤٩ــ١٥٤ .

٢١ ــ المصدر ذاته ، ص ١٥٤ ، ١٦٠ .

٢٢ ــ المصدر ذاته ، ص ٤٩٥ .

٢٣ ــ «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى» ، المجلد ٦ ، الوثيقة رقم ٨٦ .

٢٤ ــ المصدر ذاته ، المجلد ١٠ ، الوثيقة رقم ١٣٠ .

٢٥ ــ المصدر ذاته ، المجلد ٨ ، الوثيقة رقم ٣١٨ .

٢٦ ــ المصدر ذاته ، المجلد ١٠ ، الوثيقة رقم ٧٧ .

٢٧ ــ المصدر ذاته ، المجلد ٩ ، الوثيقة رقم ١٦١ .

٢٨ ــ المصدر ذاته ، المجلد ١٠ ، الوثيقة رقم ١١٧ .

٢٩ ــ المصدر ذاته ، المجلد ١١ ، الوثيقة رقم ١٧٢ .

٣٠ ـ ايوفيه ، السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي في ١٩٢٨ـ١٩٣٢ ، موسكو ١٩٦٨ ، ص ٤١٠ـ٤١١ .

٣١ ـ «الاتحاد السوفييتي والبلدان العربية في ١٩١٧ـ١٩٦٠» ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٧٩ .

٣٢ ـ المصدر ذاته .

٣٣ ـ ايوفيه ، «السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي في ١٩٢٨ـ١٩٣٢» ، ص ٤١٢ .

٣٤ ـ تشيتشيرين ، مقالات وخطب ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٢٩٢ .

٣٥ ـ «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي» ، المجلد ١٢ ، الوثيقة رقم ٣٣ .

٣٦ ـ «الاتحاد السوفييتي والبلدان العربية في ١٩١٧ـ١٩٦٠» ، ص ٧٢ـ ٧٣ .

٣٧ ـ «التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتي في ١٩١٨ـ١٩٤٠» ، موسكو ، ١٩٥٠ ، ص ٨٧٤ .

٣٨ ـ «الازفيستيا» ، ١٩٢٩/٢/١٩ .

٣٩ ـ "Birmingham Post", 26, I. 1929.

٤٠ ـ «الاتحاد السوفييتي والبلدان العربية في ١٩١٧ـ١٩٦٠» ص ٧٩ .

٤١ ـ ايوفيه ، «السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي في ١٩٢٨ـ١٩٣٢» ، ص ٤١٦ـ٤١٧ .

٤٢ ـ E. Macro, Yemen and the Western World, London, 1968, p. 56-57; M. Wenner. ModernYemen 1918-1966, Baltimore, 1967, p. 155.

٤٣ ـ National Archives of India, Foreign Department, N/31 Fill N 22; "Russian Ships in the Persian Gulf", pp. 1-16.

٤٤ ـ "The Gulf; Implications of British withdrawal", W. 1969. pp. 89-98.

٤٥ ــ «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى» ، المجلد ٦ ، الوثيقة رقم ٨٦ .

٤٦ ــ «حول تاريخ اقامة العلاقات الدبلوماسيـــة بين الاتحاد السوفييتى ومصر» ، مجلة «الحياة الدولية» ، ١٩٦٤ ، العدد ٦ ، ص ١٥٨ .

٤٧ ــ «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى» ، المجلد ٦ ، ص ٢٩٧ ــ٣٠٢ .

٤٨ ــ «وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى» ، المجلد ٦ ، الوثيقة رقم ١٧٢ .

٤٩ ــ خطاب ليتفينوف فى ازاحة الستار عن تمثال فوروفسكى ــ فى كتـــاب «فوروفسكى ، مقالات ومواد فى مسائـــل السياسة الخارجية» ، ص ٢٢٤ .

٥٠ ــ مجلة «الحياة الدولية» ، ١٩٦٤ ، العدد ٦ ، ص ١٥٩ .

٥١ ــ "Times" 30.IV.1929; "Daily News" 1.V.1929.

٥٢ ــ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٩ ، ص ٣٢٧ــ٣٢٨ .

٥٣ ــ «تاريخ الاقطار العربية المعاصر» ، ص ٣٠ .

٥٤ ــ «الاتحاد السوفييتى والبلدان العربية فى ١٩١٧ــ١٩٦٠» ، ص ٨٠ ــ٨١ .

٥٥ ــ المصدر ذاته ، ص ٨٢ ــ ٨٣ .

٥٦ ــ المصدر ذاته ، ص ٨٤ــ٨٥ .

٥٧ ــ المصدر ذاته ، ص ٨٥ .

خاتمة

طوال قرن ونصف اعتبرت الاوساط الحاكمة فى الدول الغربية العالم العربى مادة للاستغلال بلا رحمة ولا حياء ومصدرا للاثراء الاستعمارى وواحدة من اهم مناطق العالم من الناحية الستراتيجية حيث تتقاطع خطوط المواصلات البرية والبحرية والجوية التى تربط بين اوربا وآسيا وافريقيا واحواض المحيطات الثلاثة الاطلسى والهندى والهادى . وفى القرن العشرين تحول الشرقان الادنى والاوسط بسرعة الى اهم منطقة بترولية تضم اكثر من ثلثى احتياطيات البترول المكتشفة فى العالم غير الاشتراكى . وفى عام ١٩٧٢ وحده استخرج هنا حوالى مليار طن من البترول .

لقد تميزت السياسة الاستعمارية للدول الغربية ازاء العالم العربى بسماتها الخاصة بها . فقد استولى المستعمرون البريطانيون على مراكز الاستناد فى العالم العربى منذ مطلع القرن التاسع عشر ، بينما علقوا فى اواخر هذا القرن امالهم السافرة على تجزئة الامبراطورية العثمانية واحتلال حوالى جميع الاراضى العربية الداخلة ضمنها وتأسيس «هند عربية» فى الشرق الاوسط وتحويل البحر الاحمر والخليج العربى الى «بحيرتين بريطانيتين»

وسعى الامبرياليون الالمان ، بعد ان تخلفوا عن اقتسام العالم ، الى تحويل الامبراطورية العثمانية مع جميع الاراضى

العربية التابعة لها الى محمية المانية والى شبه مستعمرة هائلة مهما كلف الثمن . ففى الوقت الذى حاول فيـــه الامبرياليون البريطانيون الراغبون فى تعزيز سيطرتهم على آسيا وافريقيـــا تطويق هاتين القارتين بحزام من سكة حديدية هائلة تربط بين كابتاون والقاهرة وكلكتا ، بذل المستعمرون الالمـــان قصارى جهدهم لنسف المواقع البريطانية فى الشرق الاوسط فمدوا سكتى حديد الحجاز وبغداد اللتين كان يتعين عليهما ان تنقلا فرقهـم الحربية الى قناة السويس والخليج العربى والى مشارف الهنـــد البعيدة . وكان الصراع الانكلوالمانى من اجل السيطرة على العالـم العربى واحدا من الاسباب الرئيسية لاندلاع الحرب العالمية الاولى وسببا هاما جدا لنشوب الحرب العالمية الثانية .

كان الاميركان الاوائل الذين ظهروا فى العالم العربى فى مطلع القرن التاسع عشر هم تجار الافيون ، والمبشرون ، وقباطنة عمارة البحر الابيض المتوسط الاميركية التى قصفت مدافعها موانئ شمال افريقيا ، والمغامرون الذين دبروا النزاعات والصدامات فى طرابلس الغرب وتونس ومصر والسودان . وفى مستهل القرن العشرين انخرطت الامبريالية الاميركية بنشاط فى الصراع من اجل امتيازات مـــد السكك الحديدية واستخراج المعادن فى العالم العربى ، وساهمت قبيل الحرب العالمية الثانية انشط مساهمة فى استغلال البترول العراقى وسيطرت على موارد البترول فى العربية السعوديـــــة والبحرين .

ولم يكتف الامبرياليون بالنهب الاستعمارى لثروات العالم العربى الطبيعية فحولوا اراضيه وشعوبه الى عملة صرف والى مادة للبيع والشراء والمساومة لدى عقد الاحلاف العسكريـــة وتوقيع الاتفاقيات . على هذا النحو استطاعت المانيا ان تجر

ايطاليا فى عام ١٨٨٢ الى الحلف الثلاثى ، حيث وعدتها بالدعم ضد المطامع الاستعمارية لفرنسا فى تونس . ولكن بريطانيا وفرنسا استطاعتا ان تنتزعا ايطاليا من الحلف الثلاثى فى عام ١٩٠٢ لقاء وعد بتاييد مطامعها فى طرابلس الغرب وبرقة . فى ١٩٠٤ عقدت بريطانيا وفرنسا بينهما حلف الوفاق الحربى السياسى المعادى لالمانيا . وقد استند هذا الحلف الى اعتراف فرانسا بسيطرة بريطانيا على مصر مقابل اعتراف بريطانيا بسيطرة فرنسا على مراكش . وفى سنوات الحرب العالمية الاولى «اشترت» بريطانيا وفرنسا دخول ايطاليا الحرب الى جانب دول الوفاق والتزمتا بتقديم تعويضات سخية لها على حساب الاراضى العربية . وفى نفس الوقت تقريبا اتفقت بريطانيا وفرنسا على تجزئة البلدان العربية حيث وقعتا اتفاقية سايكس ــ بيكو فى عام ١٩١٦ . وفى عام ١٩٣٩ سلم الامبرياليون الفرنسيون الذين احتالوا على سوريا لواء الاسكندرونة الى تركيا مؤملين بجرها الى التحالف ضد المانيا النازية . وفى سنوات الحرب العالمية الثانية اعلن الفاشيون الالمان بانهم حماة العرب من نير المستعمرين البريطانيين والفرنسيين ، ولكنهم وقعوا سرا مع النظامين الفاشيين فى ايطاليا واسبانيا وحكومة فيشى الفرنسية اتفاقيات حول ابقاء مستعمرات هذه البلدان فى المغرب والشرق العربى .

ولعب الصهاينة دورا كبيرا فى السياسة الاستعمارية للدول الامبريالية فى العالم العربى . فمنذ تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية فى عام ١٨٩٧ مارس زعماؤها لعبة وقحة معقدة سعيا منهم الى تحويل فلسطين الى ضيعة لهم مهما كلف الامر . ولهذا الغرض استخدموا الى اقصى حد التناقضات بين الامبرياليين ، فعرضوا خدماتهم بالتوالى على المستعمرين البريطانيين والالمان

ووعدوا السلطان عبد الحميد بمساعدة مالية ، وعلقوا آمالهم فى بداية الحرب العالمية الاولى على انتصار دول الوفـــاق والحلف الثلاثى فى وقت معا . وفى اواخر الحرب العالمية الاولى صار اسياد المنظمة الصهيونية العالمية يعولون بصورة متزايدة على الولايات المتحدة الاميركية التى تحولت الى اقوى بلد فى العالم الرأسمالى .

واستخدم الامبرياليون فى الشرق الصهاينة على نطاق واسع لاغراضهم الاغتصابية . وكان الامبرياليون البريطانيون يأملون من وراء بيان بلفور حول تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين ان يحققوا عدة اهداف فى وقت واحد . وهذه الاهداف هى دفـــع الولايات المتحدة الاميركية بواسطة الصهاينة الاميركان للاشتراك بشكل انشط فى الحرب العالمية الاولى واستخدام الصهاينة الروس للحيلولة دون توقيع معاهدة الصلح بين روسيا والمانيا واحباط تطبيق اتفاقية سايكس ــ بيكو والحيلولة دون تأسيس دولة عربية موحدة كما جاء فى الالتزامات البريطانية حسب اتفاقية مكماهون ــ الحسين ، وذلك بتأسيس دولة يهودية فى فلسطين ، اى فى قلب العالم العربى .

واعتبارا من عام ١٩١٨ ، على اثر احتلال القوات البريطانية لفلسطين ولخمس سنوات قبل حصول بريطانيا على حق الانتداب على فلسطين من عصبة الامم ، سعى زعماء المنظمة الصهيونيـــة العالمية ، باستخدامهم على نطاق واسع لزعيم الصهاينة البريطانيين وايزمان وزعيم الصهاينة الاميركان براندايس ، الى توسيع حدود فلسطين الى اقصى حد ، وطرحوا مطامعهم لضـــم لبنان الجنوبى وجنوب سوريا وما وراء الاردن وغيرها الى فلسطين . واستخدم اسياد المنظمة الصهيونية العالمية فى بادئ الامر «اللجنـــة الصهيونية» ثم «الوكالة اليهودية» فوسعـــوا حدود فلسطين

وسعوا بصورة محمومة الى ترسيخ مواقعهم في البلاد وتحويل الوطن القومي اليهودي الذي كان مقررا ان يشغل في البداية قسما غير كبير من فلسطين الى دولة يهودية صهيونية ادعت بجميع اراضي البلاد . وهكذا ارسى في العشرينات بدعم نشيط من صهاينة الدول الغربية ، وعلى رأسهم الصهاينة الاميركان ، اساس الدولة الاسرائيلية المرتقبة في فلسطين وارتسمت معالمها الرئيسية مع كل ما يلازمها من عنصرية وشوفينية وعدوان ، خلافا لالتزامات بريطانيا ازاء العرب وخرقا لميثاق عصبة الامم وتجاوزا حتى لروح ونص بيان بلفور .

وفي النصف الثاني من الثلاثينات وسع الصهاينة الاتصالات والعلاقات مع الولايات المتحدة الاميركية وتحالفوا في الوقت ذاته مع الفاشية الالمانية فامنوا لانفسهم الموارد البشرية والمادية القادمة من المانيا . وكان حكام المانيا الفاشية قد استخدموا تأييد الصهاينة لهم سرا لكي يشددوا التناقضات العربية ـ اليهودية في فلسطين ، وبالتالي التناقضات الانكلو ـ عربية ، ولكي ينسفوا مواقع بريطانيا في الشرق الاوسط ويعدوا هذه المنطقة للانتقال الى السيطرة الالمانية . وهكذا استخدم الصهاينة مراكزهم في البلدان الامبريالية الرئيسية فوقعوا سلسلة من الاتفاقيات السرية ذات الطابع المالي والسياسي والتجسسي مع الاوساط الحاكمة فيها بغية تحقيق خطط بناء «اسرائيل الكبرى» مهما كلف الثمن .

وفي سنوات الحرب العالمية الثانية كان الامبرياليون البريطانيون ينوون ، بحجة حماية العالم العربي من خطر الفاشية ، ان يستعيدوا ويعززوا سيطرتهم على شعوب مصر والعراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية ويجعلوا منطقة نفوذهم تشمل الممتلكات الاستعمارية الايطالية والفرنسية سابقا في شمال

افريقيا والشرق الاوسط . واخذت الامبريالية الاميركيـــة التى اصبحت القوة الحاسمة فى المعسكر الامبريالى تستخدم فى سنوات الحرب العالمية الثانية اجراءات ملموســة لكى تزيح من العالم العربى ليس فقط خصومها الفاشيست الالمان والايطاليين ، بل وحليفتيها بريطانيا وفرنسا . وكانت الاحتكارات الاميركية تعول فى تطبيق هذه الخطط على قدرتها العسكرية والمالية والاقتصادية المتعاظمة وعلى تنامى الميول المعادية للاستعمار فى العالم العربى وكذلك على سلاح الصهيونيـــة المسموم . ففى الوقت الذى كان الصهاينة فيه ضروريين للفاشيين الالمان بغية نسف مواقـــع منافسيهم البريطانيين ، وكان الـــوطن القومى اليهودى فى فلسطين ضروريا للمستعمرين البريطانيين ، بغيـــة مقاومـــة الخطط الاستعمارية للامبريالية الفرنسية ومقاومة الميول التوحيدية لدى الاوساط الحاكمة فى البلدان العربية ولدى الشعوب العربية ، كانت الامبريالية الاميركية تأمل باستخدام الدولة اليهوديـــة الصهيونية وجيشها ومخابراتها من اجل السيطرة على العالـم وفى مكافحة الثورات الوطنية .

تلك هى السياسة الامبريالية فى العالم العربى الموجهة كليا ، وبالرغم من تعدد جوانبها ، بل وحتى تناقضها فى بعض الاحيان ، نحو استعباد الشعوب العربية واستغلالها .

وعلى النقيض من ذلك تماما سياسة حزب لينين والحكومة السوفييتية . ففى اول مرسوم للدولة السوفييتية الفتية ــ مرسوم السلام ، ورد مطلب قطعى بتصفية الممتلكات الاستعمارية ، اى منح الاستقلال لشعوب البلدان العربية . وواصلت الدولـــة السوفييتية سياستها هذه فى «النداء» الشهير الذى وجهه لينين «الى الشغيلة المسلمين فى روسيا والشرق» ، وفى نشر معاهدات

دول الوفاق السرية حول اقتسام البلدان العربية ، وفى المطالبة بالتصفية الفورية لنظام الانتداب المشين وفى عرض تقديم الاسلحة الى حكومة سعد زغلول لتأمين نضال مصر فى سبيل استقلالها ، وفى اقامة العلاقات الودية المتكافئة مع اليمن والعربية السعودية ، وفى تطوير الصلات الاقتصادية والثقافية مع البلدان العربية وتقديم اقصى المساعدة الممكنة اليها وفى النضال من اجل اقامة العلاقات الدبلوماسية مع مصر والعراق . وبالرغم من دسائس المستعمرين ، وفى مقدمتهم البريطانيون ، حظيت بالاعتراف المتزايد سياسة الاتحاد السوفييتى التى استهدفت دعم العالم العربى فى نضاله من اجل الاستقلال ، وكذلك اقامة العلاقات المتكافئة مع شعوبه . وكان انتصار القوات المسلحة السوفييتية على الفاشية الالمانية والايطالية قد خلص العالم العربى من خطر الاستعباد النازى وحال دون بقاء الاستعمار بأشكاله السابقة . ولئن كان انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى قد ادى الى ازمة النظام الاستعمارى فان دحر الفاشية وتأسيس الاسرة الاشتراكية قد اديا الى انهيار هذا النظام .

بديهى ان الامبرياليين لم يكونوا راغبين فى الاعتراف بهزيمتهم ، لا سيما وان ثروات العالم العربى الهائلة لم تتجل كاملة الا فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية . وخلال زهاء الثلاثين عاما التى مرت على انتهاء الحرب العالمية الثانية طبق الامبرياليون فى هذه المنطقة سياسة معقدة ، حيث استخدموا اساليب وطرق الاستعمار القديم والجديد . ومن هذه الطرق شن العمليات العسكرية المباشرة ضد البلدان العربية المستقلة (العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦) واحتلال بعض البلدان العربية بحجة حماية «سلامتها» (التدخل الاميركى فى لبنان عام

١٩٥٨ والتدخل البريطانى فى الاردن فى العـــــام ذاته) وخوض الحروب الاستعمارية «الكلاسيكية الطراز» (حرب فرنســـا ضد الجزائر وحرب بريطانيا فى الجنوب العربى) وتدبير الصدامات بين بعض الدول العربية (مثل النزاع بين الجزائر والمغرب ، وبين الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) وتدبير الصدامات المسلحة بين البلدان العربية وجيرانها (الصدام بين سوريا وتركيا ، وبين العراق وايران وهلمجرا) ، وفرض مختلف اشكال الاكراه على البلدان العربية بحجة الحماية والوساطة (البيان الانكلو ـ فرنسى الاميركى لعام ١٩٥٠ حول مقاومة بيع الاسلحة فى العالم العربى و«مبدأ ايزنهاور» لعام ١٩٥٧ ومـــا شاكل) .

وحتى الحال الحاضر تعتبر اكثر الاوساط رجعية اسرائيل الصهيونية سلاحا فعالا فى مكافحة الوحدة العربية والانظمة التقدمية فى البلاد العربية وفى الحيلولة دون تعزز العلاقات الودية بين العالم العزبى والاسرة الاشتراكية . وقبل ربع قرن لعب الامبرياليون البريطانيون والاميركان دورا غدارا فى تدبير اول حرب عربية-اسرائيلية فى عام ١٩٤٨ . وتؤكد الوثائق التى نشرت فى الاونـــة الاخيرة ان الاوساط الاستعمارية فى بريطانيا وفرنسا بذلت قصارى جهدها لتقوية اسرائيل من الناحية العسكرية فى مطلــــع الخمسينات واستخدامها بمثابة المبادر فى العدوان الثلاثى لعام ١٩٥٦ الذى استهدف تصفية النظام التقدمى للرئيس عبــــد الناصر فى مصر واستعادة السيطرة البريطانية فى منطقة قنـــاة السويس . وكان مقررا لهذا العدوان ان يضعف المساعدة التى كانت تقدمها البلدان العربية للشعب الجزائرى البطل وان يحول دون انتشار الثورة العربية وشمولها افريقيا .

ويستخـــدم الامبرياليون بنشاط كبير ، في سياستهـــم الاستعمارية الجديدة الرامية الى الحيلولـــة دون توحيد العالم العربي على اساس تقدمي ، تركة عصر الاستعمار ، اي مسالة الحدود والمطالب الاقليمية المتبادلة بين بلدان شبه الجزيـــرة العربية ، حيث تستند اغلبية الحدود الى اتفاقية عام ١٩١٣ الانكلوتركية حول «الخط البنفسجي» التي رسمت الحدود بين العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية ، بين العربيـــة السعودية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، بين قطر ودولة الامارات العربيـــة المتحـــدة ، بين عمان وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وهلمجرا . ويستخدم الامبرياليون كذلك ما خلقه وسعره المستعمرون البريطانيون والالمان طوال السنين من تناقضات عربية ـ كردية في العراق وعربية ـ زنجية في السودان وهكذا دواليك . ولا تزال «انياب التنين» هذه التي زرعهـــا المستعمرون منذ القرن التاسع عشر تحمل ثمارها الدموية حتى اليوم .

وقد لعبت اسرائيل ولا تزال دورا خاصا في سياسة الولايات المتحدة الاميركية ازاء الشرق الاوسط . لقد سبق واشرنـــا الى الصلات الوثيقة بين الصهاينة والاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الاميركية قبيل واثناء الحرب العالمية الثانية . الا ان ذلك كان مجرد بداية . ففي ١٤ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، وقبل بضع ساعات من الاعلان عن تاسيس دولة اسرائيل ، اقترح الرئيس الاميركـــي ترومان على ممثل الوكالة اليهودية في واشنطن ان يطلب رسميـــا اعتراف الحكومة الاميركية ... بدولة لم تتأسس بعد . وهذا حادث لم يسبقه مثيل في تاريخ العلاقات الدولية ! وكان البيان الرسمي بالاعتراف باسرائيل قد صدر عن البيت الابيض بعد عشر دقائق لا

غير من اعلان تأسيسها فى تل ابيب . ومنـــذ ذلك الحين تسلمت اسرائيل مساعدة اميركية شاملة ودعما اميركيا باحجام متزايـــدة اكثر فاكثر . صحيح ان الاوساط الحاكمة الاميركية كانت تفضل فى الغالب لاعتبارات تكتيكية تمويه هذه السياسة بالمساعدة المقدمة من قبل المنظمات الصهيونية التى حظيت لهذا الغرض بكل انواع الدعم من قبل الحكومة حتى اعفاء المليارات المحولة الى اسرائيل من الضرائب وتقديم احدث الاسلحة الاميركية الى الصهاينة باسعار واطئة على نحو مدهش لغرض نقلها الى اسرائيل .

وفى تموز (يوليو) ١٩٥٢ تم توقيع اتفاقية اميركية اسرائيلية سرية بصدد المساعدة فى ضمان الامن المتبادل ، وهى المعاهـــدة التى التزمت اسرائيل طبقا لها بالمساهمة مع الولايات المتحـــدة الاميركية فى «الدفاع» عن الشرق الاوسط . ولم يفتضح امر هذا التواطؤ الا بعد تسع سنوات .

وكانت المساعدة والدعم الاميركيان قد لعبا الدور الحاسم فى نجاح «الحرب الخاطفة» الاسرائيلية ضد مصر وسوريا والاردن فى عام ١٩٦٧ . ومما يدل على الارتياح الكبير الذى تركه هذا العدوان لدى الاوساط الحاكمة الاميركيـــة ، ليس فقط الدعم السياسى والدبلوماسى النشيط الذى قدمته واشنطـــن لاسرائيل فى فترة العدوان نفسه ، بل وكذلك المساعدة الاقتصادية التى ابدتهـــا الولايات المتحدة الاميركية الى اسرائيل خلال السنوات الخمس بعد حرب ١٩٦٧ والتى تجاوزت ضعف ما قدمته الولايات المتحدة من مساعدة مماثلة الى اسرائيل طوال العشرين عاما السابقة . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٧١ اقر الكونغرس الاميركى تعديلا خاصا على قانون الاعتمادات العسكرية ، وهو التعديل الذى خول الرئيس الاميركى صلاحيات غير محدودة بشأن تسليم الآليات الحربية الى

اسرائيل بدون تحديد قيمتها الاجمالية . واستنادا الى هذا التعديل التزمت حكومة نيكسون بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ (سنتحدث عنها ادناه بتفصيل اكبر) بان ترسل الى اسرائيل احدث الاسلحة بمبلغ هائل قدره ٢,٢ مليار دولار .

ولا بد من الموافقة على ما اكدته «التايمس» اللندنية التي حللت تاريخ العلاقات الاميركية الاسرائيلية فكتبت في ٥ شباط (فبراير) ١٩٧١ تقول : «ان هذه الصلات في جميع ميادين الدفاع والتعاون الاقتصادي وتبادل المعلومات الاستطلاعيـــة والتجنس المزدوج والدعم الدبلوماسي المتبادل اصبحت اليوم اكثر وثوقا من العلاقات ، مثلا ، بين الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا» .

وغالبا ما تتكرر في المؤلفات العلمية والدعاية الاميركية المزاعم القائلة بان الولايات المتحدة الاميركية سعت بعد «حرب الايـــام الستة» ليس الى دعم اسرائيل ، بل الى تأمين الســلام في الشرق الاوسط . وبما ان هذه المزاعم انتشرت على نطاق واسع في الآونة الاخيرة ، وليس في الولايات المتحدة وحدها ، فمن اللازم التوقف عندها بتفصيل اكبر . حقا لقد ابدت الدبلوماسية الاميركية اعتبارا من النصف الثاني من عام ١٩٦٩ نشاطا كبيرا في الشرق الاوسط . وكانت لذلك جملة اسباب وملابسات .

اولا ، لم تستطع اسرائيل بنتيجة «حرب الايام الستة» ان تحقق هدفها الرئيسي الذي رسمته لهـــا الامبريالية والاوساط الصهيونية العالمية ، الا وهو تصفية النظامين التقــدميين في مصر وسوريا ووقف السير الصاعد للعملية الثورية في العالم العــربي . فبالعكس اخذت هذه العملية على تخوم الستينات والسبعينات تشتد وتتعمق حيث اجتذبت اليها فئات واسعة من الجماهير الشعبيـــة وبلدانا جديدة . ففي هذه السنوات بالذات قامت الثورة في ليبيا

وتأسست جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وتعززت القوى الديمقراطية فى العراق واضطر المستعمرون البريطانيون على مغادرة الخليج العربى .

ثانيا ، لم تستطع الامبريالية بنتيجة «حرب الايام الستة» ان تنسف سمعة الاتحاد السوفييتى وتأثيره فى العالم العربى ولا ان تضعف الصداقة السوفييتية العربية . فبالعكس ، ادى موقف الاتحاد السوفييتى المبدئى الاممى ابان وبعد «حرب الايام الستة» ، ذلك الموقف الذى ساعد لدرجة كبيرة على لجم المعتدى واحلال الهدنة واتخاذ القرار رقم ٢٤٢ فى مجلس الامن ، والمساعدة السوفييتية للبلدان العربية فى بعث وتعزيز قدرتها الدفاعية الى تقوية الصداقة السوفييتية العربية وازدهارها .

ثالثا ، حدثت تغيرات جوهرية فى سياسة حلفاء الولايات المتحدة الاميركية فى اوربا الغربية ـ بريطانيا والمانيا الاتحادية ، وفرنسا خصوصا ، ازاء الشرق الاوسط . فان اعتماد هذه البلدان المتزايد باطراد على البترول العربى واشتداد الخلافات بينها وبين الولايات المتحدة الاميركية بشأن طائفة من القضايا السياسية الخاصة بآسيا وافريقيا وتفاقم التناقضات المالية والاقتصادية بين الولايات المتحدة الاميركية وبلدان اوربا الغربية ـ كل ذلك اضطر هذه البلدان على معارضة العدوان الاسرائيلى اعتبارا من اواخر عام ١٩٦٧ . وتجلى ذلك فى الوثيقة التى وضعتها الدبلوماسية البريطانية واصبحت اساسا للقرار رقم ٢٤٢ وفى تخلى بلدان اوربا الغربية عن ارسال الاسلحة الى اسرائيل وفى مطالب الحكومة الفرنسية الملحة بان تسحب اسرائيل قواتها من جميع الاراضى العربية التى احتلتها عام ١٩٦٧ .

كل ذلك اضطر الدبلوماسية الاميركية الى ممارسة نشاط كبير

لغرض ستر تأييدها لاسرائيل وتامين تسوية سياسية فى الشرق الاوسط ملائمة للولايات المتحدة . وذلك هـــو منبع «مشروع روجرز» الذى طرحه وزير الخارجية الامير كى انذاك فى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٩ . وكان ذلك من حيث الظاهر تراجعا عن دعـــم المعتدى الاسرائيلى الكلى وعن الاتجاه الوحيد الجانب نحو تل ابيب . ولكنه سرعان ما اتضح ان الدبلوماسية الاميركية لم تذهب الى ابعد من التصريحات العامة عن «ان الولايات المتحدة الاميركية لا تؤيد التوسع ولا ابعد من عرض الخدمات بمثابة «سمسار نزيه» . واصبح واضحا للعيان ان الاوساط الحاكمة فى الولايات المتحدة الاميركية لم تكن تهدف من وراء طـــرح «مشروع روجرز» الى تطبيق القرار رقم ٢٤٢ عمليا ولا الى ضمان انسحاب المعتديـــن الاسرائيليين من جميع الاراضى العربية التى احتلوها فى عام ١٩٦٧ ، بل كانت تستهدف فى احسن الاحوال تحقيق تسوية اسرائيليـــة مصرية جزئية على حساب الشعبين السورى والفلسطينى . زد على ذلك ان الاوساط الحاكمة الاميركية عندما عرضت خدماتهـــا فى الوساطة حاولت منذ ذلك الحين ان توحى لبعض الزعماء العرب الفكرة القائلة بان «مفتاح تسوية» النزاع العربـــى الاسرائيلى محفوظ فى خزانة وزارة الخارجية الاميركية . وتستمر محاولة التمسك بهذا الخط فى واشنطن حتى الآونة الراهنة .

واعتبارا من النصف الثانى من عام ١٩٧٠ اطلق الجانب الاميركى على سياسته ازاء الشرق الاوسط مصطلحا جديدا هو «الدبلوماسية الهادئة» . ويقصد بذلك الاتصالات السريـــة بين الدبلوماسيين الاميركان وبين ممثلى الاطراف المتنازعة ، وهى الاتصالات التى يمكن ان يتحقق فيها ، كما زعموا ، اتفاق بشأن حل القضايا الملموسة لتسوية فى الشرق الاوسط بشرط قبول المقترحات الاميركية .

علما بانه يجرى التلميح للجانب العربى وللرأى العام العالمى بان الولايات المتحدة الاميركية هى بالذات التى تستطيع بلوغ تنازلات من اسرائيل وان «الدبلوماسية الهادئة» تدل على تحول اتجاه السياسة الاميركية ازاء الشرق الاوسط بحيث صارت تراعى، كما يزعمون، المصالح الحقيقية للعرب .

وطوال ثلاثة اعوام من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٣ لم تعد «الدبلوماسية الهادئة» بنفع محسوس على قضية التسوية السلمية فى الشرق الاوسط . فبعد ان ولدت هذه الدبلوماسية آمالا معينة لدى الاوساط الحاكمة فى بعض البلدان العربية فانها لم تحل دون مطامع اسرائيل العدوانية بل وما كانت تنوى قطع دابرها . وكان رئيس لجنة الشؤون الخارجية المعمر فى مجلس الشيوخ الاميركى فولبرايت على حق عندما اعلن «ان السبب الرئيسى فى عدم تحقيق اى تقدم فى مسالة التسوية فى الشرق الاوسط عن طريق المفاوضات هو ايمان اسرائيل بان الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ سيؤيدانها مهما كان الموقف الذى تتخذه» .

وادى ذلك كله الى جعل اسرائيل تدوس بوقاحة جميع قرارات الجمعية العامة ومجلس الامن الدولى بشان وقف العدوان وعودة ملايين الفلسطينيين وتعويضهم واستئناف اوضاع القدس السابقة واخيرا اعادة جميع الاراضى العربية المحتلة فى عام ١٩٦٧ . وتلك هى الاسباب الرئيسية لنشوب الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ . الا ان نتائج هذه الحرب لم تبرر ابدا آمال المعتدين وملهميهم وحماتهم فى معسكر الاستعمار الجديد .

كان ايام الحرب الستة عشر قد قبرت الى الابد خرافة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر والمسلح بالسلاح الاميركى، وكشفت الدربة

الكفاحية والبسالة وارادة النصر لدى جيشي مصر وسوريا المسلحين بالسلاح السوفييتي واللذين درسا المذهب العسكري السوفييتي وتهيأت لهما امكانية استخدام خبرة القوات المسلحة السوفييتية على نطاق واسع .

وكانت من اهم نتائج حرب ١٩٧٣ الخطوات الفعلية التي قام بها زعماء البلدان العربية نحو احراز الوحدة في قضية النضال ضد المعتدين الاسرائيليين . وبالرغم من الصعوبات الجسيمة الناجمة عن الفوارق الكبيرة في مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي والشكوك التي استمرت لسنين طويلة بنتيجة دسائس المستعمرين الجدد ومؤامراتهم لدرجة غير ضئيلة ، تمكنت البلدان العربية من وضع اسس تلك الوحدة . وتدل على متانة تلك الاسس القرارات التي اتخذها مؤتمر القمة العربي في الرباط في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ والتي تعتبر مرحلة جديدة في عملية رص صفوف الشعوب العربية ووحدتها ، تلك العملية المعقدة والمتسمة بأهمية حيوية لنضال هذه الشعوب ضد الامبريالية .

وكان من اكبر نتائج مؤتمر الرباط القرار الاجماعي بشأن الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثلة الشرعية الوحيدة للشعب العربي الفلسطيني . وهيأ ذلك الامكانية لتشكيل حكومة فلسطينية فيما بعد ، كما هيأ لاول مرة المقدمات الواقعية لتحقيق المطامح القومية للشعب العربي الفلسطيني ، ذلك الشعب الموهوب الباسل المحب للحرية .

وكانت الاعمال الموحدة التي قامت بها الاقطار العربية في عام ١٩٧٣ لتحديد استخراج البترول ووقف تصديره الى البلدان المؤيدة لاسرائيل قد عجلت وشددت ازمة الطاقة التي عقدت لدرجة كبيرة جدا اوضاع العالم الرأسمالي . وقد ادى استخدام العرب

لسلاح البترول الى اشتداد التناقضات وتعقد العلاقات بين المراكز الاساسية الثلاثة للعالم الرأسمالى ـ الولايات المتحدة الاميركيــــة واوربا الغربية واليابان . وبما ان الرأى العام والاوساط الحاكمة فى اوربا واليابان محقة تماما فى اتهام الولايات المتحدة الاميركيــة بالتساهل تجاه المعتدين الاسرائيليين الذين هم المسببون الرئيسيون للنزاع فى الشرق الاوسط ، وبالتـــالى لتفاقم ازمة الطـــاقة ، فان تلك الاوساط غيرت بصورة ملحوظة لدرجة اكبر موقفها من النزاع العربى الاسرائيلى وصارت تطالب مطالبة نشيطة بتطبيق القرار رقم ٢٤٢ وبسحب القوات الاسرائيلية من جميع الاراضى العربية التى استولت عليها فى عام ١٩٦٧ وباحلال سلام عادل فى الشرق الاوسط . وهكذا اصبح المعتدون الاسرائيليون وحماتهــم اميركان فى عزلة .

واضطر ذلك الدبلوماسية الاميركية على زيادة نشاطها فى الشرق الاوسط عام ١٩٧٤ . وتحاول الاوساط الحاكمة الاميركية العثور على مخرج من الوضع المعقد للغاية والمنذر بالانفجار فى الشرق الاوسط ، مخرج يستند الى التسوية الجزئية على مراحل . علما بان كتلا معينة تأمل فى احراز ذلك على حساب الشعب الفلسطينى الذى ذاق الامرّين . الا ان هذه الحسابات محكوم عليها بالاخفاق . فالسلام لا يمكن ان يحل فى الشرق الاوسط الا على اساس التنفيــذ التام لقرارات هيئة الامم المتحدة وانسحاب المعتدين من جميـــــع الاراضى التى اغتصبوها فى عام ١٩٦٧ وتحقيق الامانى الوطنيـــــة المشروعة للشعب العربى الفلسطينى .

ومن اكبر مهمات السياسة الاستعمارية الجديـــــدة للدول الامبريالية ، والولايات المتحدة الاميركية قبل كل شيء ، هى تأزيم العلاقات بين الاسرة الاشتراكية والعالم العربى . الا ان جميع هذه الخطط والحسابات التى يعدها المستعمرون الجدد والصهاينة تمنى

باخفاق تلو اخفاق . ففى سنة قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى (١٩١٧) لم تكن توجد فى العالم العربى ولا دولة مستقلة واحدة . وقبيل الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك غير اربع دول ــ العربية السعودية واليمن ومصر والعراق ــ تعتبر مستقلة شكليا ، ولكنها كانت فى الواقع مقيدة بمختلف الاتفاقيات الجائرة التى فرضتها عليها الدول الغربية . ولم تكن للاتحاد السوفييتى علاقات دبلوماسية انذاك الا مع اثنتين منها وهما العربية السعودية واليمن . اما الآن فتوجد ١٨ دولة عربية مستقلة ، وللاتحاد السوفييتى علاقات دبلوماسية مع ١٤ دولة منها . ويقيم الاتحاد السوفييتى وبلدان الاسرة الاشتراكية مع الاغلبية الساحقة من الاقطار العربية العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية الوثيقة ، ويقدم الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الاخرى لهذه الاقطار مساعدة اقتصادية كبرى ودعما فى تعزيز قدرتها الدفاعية . وان مساعدة الاتحاد السوفييتى فى بناء سد اسوان العالى ومحطة الطاقة الكهرمائية ومجمع الحديد والصلب فى حلوان (مصر) والمنشآت الضخمة لحقل بترول الرميلة الشمالية فى العراق وسد الفرات الذى يجرى انشاؤه فى سوريا وعشرات من المشاريع المماثلة فى الجزائر والمغرب والسودان والجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية هى مساهمة كبيرة لشعوب الاتحاد السوفييتى فى نضال شعوب الاقطار العربية من اجل احراز الاستقلال الاقتصادى . وان مساعدة الاتحاد السوفييتى لمصر ابان نضالها فى سبيل تأميم قناة السويس ، وللعراق فى فترة تأميم صناعة البترول قد دخلت تاريخ هذين البلدين كمثالين رائعين للصداقة النزيهة ، وكعاملين فى تأمين الانتصار فى النضال العسير ضد الامبريالية .

ويدرك ١٢٠ مليون عربى تمام الادراك ان العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ قد صد لدرجة كبيرة بفضل الموقف المبدئى الصلب الذى تمسك به الاتحاد السوفييتى . ويقدر العالم العربى بأسره رفيع التقدير موقف الاتحاد السوفييتى ابان العدوان الاسرائيلى فى ١٩٦٧ ، وتلك المساهمة الهائلة التى ابدتها بلاد السوفييت فى بعث القدرة الدفاعية للبلدان العربية . ودشنت معاهدتا الاتحاد السوفييتى مع مصر فى ٢٧ ايار (مايو) ١٩٧١ ومع العراق فى ٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ مرحلة جديدة فى تطوير الصداقة السوفييتية ـ العربية . وقال الرفيق بريجنيف فى تقريره «عن خمسينية اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية» : «لقد تكونت لدينا علاقات واسعة متنوعة الجوانب مع عدد من البلدان العربية . وبين كامل سير الاحداث ان الصداقة مع الاتحاد السوفييتى تؤمن للدول العربية التقدمية الدعم والمساعدة اللازمين فى احلك الاوقات بالنسبة لها . وهذا الامر معروف جيدا فى مصر وسوريا والعراق واليمن . ولدينا معاهدتا صداقة مع مصر والعراق وسوف نطور علاقاتنا مع هذين البلدين على اساس هاتين الوثيقتين . ونحن مصممون على تعزيز العلاقات الودية كذلك مع سوريا والجزائر والبلدان العربية الاخرى» .

فى الوقت الذى رسمت فيه سياسة الدول الغربية ازاء العالم العربى طبقا لمصالح الاستعمار الجديد وحساباته السياسية العسكرية والبترولية وتعرضت مرارا لتغيرات تكتيكية حسب الموقف ، ظلت سياسة الاتحاد السوفييتى طوال وجوده كله ثابتة تنبع من المبادئ اللينينية ، مبادئ الاممية والصداقة والاخوة مع شعوب الشرق . وقد تجلى ذلك بكامل الوضوح فى الفترة ١٩٦٧ ـ

١٩٧٢ وفى حرب تشرين الاول ١٩٧٣ حيث جهد المواطنـون السوفييت قولا وفعلا وبالنضال على الصعيد الدولى وبمد الجسور الجوية الى سوريا ومصر وارسال احدث الاسلحة وافضلها لمساعدة شعوب البلدان العربية فى توجيه الضربات الحساسة الى المعتدى وتغيير الوضع فى الشرق الاوسط تغييرا جذريا .

وكان من اهم النتائج السياسية لاحداث تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ارتفاع سمعة الاتحاد السوفييتى لدرجة كبيرة فى انظـار البلدان العربية وتعزز الصداقة السوفييتية العربية ومواصلـة توسيعها . وانعكس ذلك فى الوثائق والبيانات الدولية والدبلوماسية العديدة المكرسة للمرحلة الراهنة من العلاقات السوفييتية العربية ، وكذلك فى قرار خاص من مـؤتمر القمة العربى (تشرين الثانى ــ نوفمبر ١٩٧٣) اعرب عن الامتنان العميق للاسرة الاشتراكيـة جمعاء على المساعدة والدعم فى جميع المسائل اثناء احداث تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

وطوال عام ١٩٧٤ واصل الاتحاد السوفييتى نضاله النشيط الثابت من اجل سلام وطيد عادل فى الشرق الاوسط . وقد القى الامين العام للجنة المركزية للحـزب الشيوعى السوفييتى الرفيق ليونيد بريجنيف الاضواء الساطعة على اهداف ومهمات السياسة السوفييتية ازاء العالم العربى فى خطابه بمدينة كيشينيف يوم ١١ تشرين الاول ١٩٧٤ . واشار الرفيق بريجنيف فى خطابه هذا الى الاهمية التى يعلقها الاتحاد السوفييتى على الصداقة والاتصالات مع البلدان العربية وزعمائها ومع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، واكد ان المهمة الرئيسية لسياسة الاتحاد السوفييتى ازاء هـذه المنطقة هى ضمان السلام الوطيد فى الشرق الاوسط . وقال الرفيق بريجنيف : « من الضرورى اخيرا تطبيق قرارات هيئة الامم المتحدة

وضمان انسحاب اسرائيل من الاراضى المغتصبة وتلبية المصالح المشروعة للشعب العربى الفلسطينى وحقه فى العيش فى وطنه القومى . ويجب القيام بذلك دون تأجيل اذا ما اردنا ان يسود سلام وطيد فى الشرق الاوسط . اما تأجيل حل هذه المسائل واطالة الوضع الحالى الذى هو فى صالح المحتلين الاسرائيليين وحدهم فان ذلك يعنى الجلوس على برميل بارود يمكن ان ينفجر فى كل لحظة . ولذلك يدعو الاتحاد السوفييتى لاستئناف اعمال مؤتمر جنيف السلمى على نحو فعال وباسرع وقت ممكن باشتراك جميع الاطراف المعنية بمن فيها الفلسطينيون . يجب ان يحل فى الشرق الاوسط اخيرا سلام وطيد عادل . وسوف يربح من ذلك امن كافة دول المنطقة ومن بينها اسرائيل . ونحن على يقين بان هذا السلام سيحل حتما اذ تفرض ذلك ارادة الشعوب وتتطلبه مصالح الامن الدولى» .

وتعتقد الصحف العالمية الموثوق بها ان هذا الخطاب اثر تأثيرا شديدا للغاية على كامل سير الاحداث فى العالم العربى وعزز مواقع المنادين بالسلام الوطيد وعقد لدرجة كبيرة وضع المعتدين وحماتهم وسياستهم ، سياسة المناورة اللامبدئية . وعرض هذا الخطاب مبدئية سياسة الاتحاد السوفييتى اللينينية ووضوحها وثباتها .

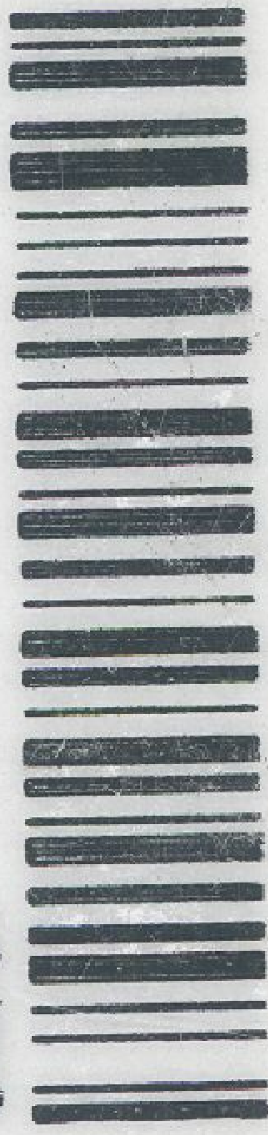
تلك هى حصيلة ونتائج خطين سياسيين ازاء العالم العربى . ومما لا شك فيه ان سياسة الامبرياليين والصهاينة والمستعمرين الجدد محكوم عليها بالاخفاق التام ، وليس لها اى مستقبل . اما سياسة الصداقة والاخوة ، تلك السياسة اللينينية التى ينتهجها الاتحاد السوفييتى ازاء العالم العربى طوال اكثر من ٥٧ عاما فهى تحظى بالتأييد الشامل من قبل عشرات الملايين من العرب الذين يرون فى التحالف الوثيق مع الاتحاد السوفييتى والاسرة الاشتراكية جادة عريضة لتامين الاستقلال الاقتصادى والسياسى التام . وان الصداقة بين الشعبين السوفييتى والعربى تتعزز وتنتصر .

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكـــــرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمـــة الكتاب وموضوعه ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١ ،
موسكو ـ الاتحاد السوفييتي


Bibliotheca Alexandrina
0655656
